أنيس منصور

وجع في قلب إسرائيل



الزهراء
للإعلام
العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

الزهراء للإعلام العربى
قسم النشر

ص .ب : ١٠٢ مدينة نصر – القاهرة – تلغرافياً : زهراتيف – تليفون ٦٠١٩٨٨ – ٦١١١٠٦ – تلكس ٩٤٠٢١ رائف يوإن

P . O : 102 Madinat Nasr - Cairo - Cable : Zahratif - Tel : 601988 - 611106 - Telex : 94021 Raef U N

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله
وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ﴾

صدق الله العظيم
فصلت / ٣٣

الطبعة الثانية
١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م
حقوق الطبع محفوظة
الجمع التصويرى والتجهيز
بالزهراء للإعلام العربى

تصميم الغلاف : عصمت داوستاشى
إخراج فنى : السيد المغربى


الصهيونية عنصرية .. أو لعبة السهام
المرتدة الى الهيئات اليهودية فى العالم !



اليهود هم الذين قالوا عن أنفسهم : نحن مثل حبات الرمال كلما داستنا الأقدام ، كلما ازددنا نعومة ولمعاناً ..

وهم الذين قالوا عن أنفسهم أيضاً : نحن مثل حبات العنب تعصرنا الأقدام فيكون منا النبيذ بعد ذلك ..

ولكن من الذى جعل الرمل سماً أبيض لكل الأقدام التى تدوسه أو الشفاه التى تقبله ؟! ومن الذى جعل النبيذ قاتلاً لكل الأفواه التى تدنو منه وتشربه ؟! - إنهم اليهود أيضاً ..

والذى قال إن هناك غريزة للحياة ، وغريزة أخرى للموت : رجل يهودى اسمه « فرويد » عاش فى « فيينا » عاصمة النمسا ، التى انعقد فيها المؤتمر الدولى لكتاب وشعراء العالم .

وهذا الرجل « فرويد » قد مد أصابعه إلى أعماق النفس البشرية ؛ فأخرج من ظلماتها وحوشاً ضارية،ومخاوف رهيبة .. وفزعاً لم يعرف له التاريخ مثيلاً .. إنه رجل قد انحدر من أكثر مخلوقات العالم خوفاً وفزعاً وقلقاً . فلا يوجد شعب فى الدنيا جرب أنواع العذاب ، ومجنون بتطبيقها على الآخرين مثل هؤلاء اليهود .

والذى نراه فى مؤتمر الأدباء فى « فيينا » يذكرنا بذلك .. فهذا المؤتمر قد انعقد لدراسة « الأدب الإسلامى » ، أو الأدب فى ظل السلام منذ سنة ١٩٤٥، منذ انتهت الحرب العالمية الثانية ،وأكلت عشرين مليوناً من الناس . ويقول اليهود إن ربع هذا العدد كان من اليهود وحدهم ،وهو رقم غير صحيح .. فقد أحرق هتلر اليهود ، وغيرهم من خصومه من المسيحيين فى أفران فى « داخا » و« بوخنفالد » و« بلزن » و« أوشفتس » ..

صحيح أن السلام لم يتحقق فى العالم كله حتى الآن .. فما تزال النار لها دخان فى فيتنام وفى الهند وباكستان وبنجالاديش والبرتغال وشيلى ،وغداً فى الأرجنتين وفى أنجولا وفى قبرص وفى الحبشة وفى جزيرة مندناو فى الفلبين وفى كوريا شمالاً وجنوباً .. ثم فى الشرق الأوسط .. ففى لبنان دخان ونار والشعب يأكل بعضه البعض باسم الدين والطبقية والتدخل السورى والروسى والأمريكى – والشاعر العربى القديم يقول عن الوضع فى لبنان : والنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله .. ثم إسرائيل هذه القنبلة الأمريكية العالمية المغروسة فى قلب الأمة العربية منذ ربع قرن وزيادة . وقد أدى الوجود الإسرائيلى فى العالم العربى إلى خراب بيوت العرب – مصر مثلا ولا داعى إلى أن أقول ما هو معروف عند كل العرب ،ويكفى أن أقول إن مصر كانت دولة لها مستقبل أصبحت دولة لها ماض . وبعد أن كانت مصر هى مستقبل الشعوب العربية ، أصبحت الشعوب العربية برواجها وثرائها وسلامها هى أمل مصر ..

فأين هو السلام فى العالم كله ؟ إننا نعيش فى ظل الحرب وفى حالة حرب وفى خوف من الحرب ،ولذلك نشترى المدافع بدلاً من الرغيف ، ونشترى الدبابة بدلاً من الأوتوبيس ، ونبنى الملاجىء للجنود بدلاً من المدارس والمستشفيات ..

ثم إننا لم نضع آخر نقطة فى آخر سطر فى اتفاقية السلام فى الشرق الأوسط ..

لقد انتقلت مصر من الكيلو (١٠١) غرب القناة إلى الكيلو (٣٥) شرقى القناة .. ولا تزال أرضنا محتلة .. ولا تزال قواتنا تحت السلاح .. ولا تزال مدافعنا محشوة بالنار .. وأقلامنا متخمة بالبارود ، وحناجرنا صارخة . وقلوبنا واجفة .. ولا يزال السلام أعز أمانينا وقد دفعنا فيه الكثير من أوراحنا وأقواتنا ..

فأين هو السلام ؟

أما الشعوب الأوروبية فقد أرهقتها الحروب .. وعذبتها المحاكمات ، وأقلق اليهود ضمائرالجميع ،ففى كل يوم عشرات الأفلام عن تعذيب اليهود .. ومئات الكتب عن إحراقهم ..

وألوف القضايا تطلب تعويضهم عن خسائرهم .. وعشرات الصيادين اليهود يطاردون النازيين القدامى الواحد وراء الآخر .. آخر هؤلاء إيخمان الذى استدرجوه إلى إسرائيل وأعدموه .. ولما فزع العالم لذلك .. راحوا يوقعون أعداءهم فى صمت .. ثم هذه « المحاكمة الخاصة » أو « محاكم التفتيش اليهودية » التى نصبوها فى كل مكان للبحث عن رائحة النازية فى تاريخ كل الأبرياء .. إنهم اليهود الذين يؤلبون الناس ، ويقلبون المواجع .. ويهزون الأمن الدولى ، والسلام القومى ،وهم الذين يمسكون الحديد والنار ..

ولا يملك العالم كله إلا أن يلعن اليهود .. ويلعن اليوم الذى أسكنهم أرضه وأبقاهم بين أفراده .. ولكن اليهود لا يتعبون من تعذيب أنفسهم وتعذيب غيرهم من الناس .. وليس من الصدف أن يكون من بينهم أناس من مثل فرويد العالم النفسى الكبير وخبير الخوف والفزع والعقد والموت .. وأن يكون من بينهم كافكا الذى لم يعرف من كل ألوان الطيف إلا اللون الأسود ،وراح يصبه على كل ورقة وكل أرض وفى الأدب الأوروبى كله .

وكأن اليهود ، بمطابعهم وصحفهم وشركاتهم السينمائية ، قد أعادوا للإنسانية كل أنواع العذاب .. ردوا إليها الضربة ألف مرة .. ثم راحوا يبيعون للناس الراحة بالفلوس ، ويقدمون لهم الجنس مقابل الشرف والقيم الأخلاقية

والدينية .. ثم يثورون على ذلك بالمذاهب الفوضوية والشيوعية والتخريبية والانحرافية .. وبذلك يهدمون المجتمع الذى تمنوا أن يعيشوا فيه .. ويطعنون الأيدى التى امتدت لهم ، والقلوب التى أخفقت إشفاقاً عليهم .

فمنذ أيام صدرت مجموعة قصصية رائعة مروعة لكاتب يهودى اسمه (إسحاق باشفيس سنجر) المجموعة اسمها (أنواع من العذاب) . وهى خريطة روحية للشعب اليهودى فى العصرالحديث ،من بين هذه القصص واحدة اسمها : هانكا .. إنها حكاية يهودى يسافر إلى الأرجنتين لإلقاء محاضرات فى جمعيات أدبية ودينية ،وتلتقى به فتاة اسمها«هانكا»تقول له إنها إحدى قريباته . وهذه الفتاة تحكى له قصص العذاب والمرارة التى يعيشها أى يهودى بعيداً عن بلاده،تقول له إنها ميتة أو تكاد تكون كذلك وإنها قد ألفت كل أنواع الحرمان والعدم والانطواء والعزلة ،وهو يحاول أن يعرف عنها شيئاً ،ولكنها لا تقول . وكأنها تريد أن تقول : أنا لست واحدة بالذات ، وإنما أنا كل واحدة فى هذه البلاد أو فى أية بلاد أخرى .. ويجىء رجل يهودى يقول له : إن هذه الفتاة غريبة الشكل وربما لم تكن بشراً .. ربما هى روح ويطلب إليه أن يتخلص منها .

ولا أعتقد أننى صادفت عدداً من المخاوف والكوارث فى أى عمل أدبى كالذى جاء فى هذه القصة.وهى تتوالى بصورة منطقية فى كل صفحاتها الشائكة الدامية الدامعة .. ويطلب إليه يهودى آخر ألا يلقى محاضرة عن الأرواح أو العالم الآخر أو حتى عن الله .. لأن الناس الذين سوف يلتقى بهم كلهم يساريون شيوعيون .. وتفادى هذا الأستاذ الكلام عن الغيبيات ،وفوجىء بأن الحاضرين يسألونه عن تحضير الأرواح والرؤية عن بعد والسماع عن بعد .. ثم يسألونه إذا كان هناك أرواح .. فلماذا لا تنتقم أرواح الشهداء اليهود من أرواح النازيين ، وإذا كانت الأرواح تتلاقى عن بعد ، فكيف يختلف اليهود فى كل العالم ؟ وإذا كان الله موجوداً فلم هو سعيد بتعذيب اليهود فى كل التاريخ .. ؟ واندهش المحاضر بأنه وجد الفتاة « هانكا » بين الحاضرين ، وكانت قد اختفت عنه أياماً عديدة .. وجدها بملابسها السوداء .. وعندما حاول أن يراها بوضوح كانت قد اختفت تماماً .

إنها إذاً مناجم العذاب والرعب التى يخفيها اليهود تحت جلودهم .. إنها ينابيع الاضطهاد والاحتقار والغيظ والكراهية التى تتفجر إلى غير نهاية فى أحاديثهم وقصصهم وأعمالهم الفنية،والتى يصدرونها إلى كل شعوب العالم حتى يضيق بهم العالم،وهنا تتجدد كل أشكال الاضطهاد والطرد والنفى .. والسبب اليهود أنفسهم !

ولم نكد نجلس فى مقاعدنا فى القاعة الكبرى الضخمة فى فندق هيلتون فيينا حتى تطايرت أوراق على مقاعدنا . إنها منشور وزعه الوفد الإسرائيلى على كل الأعضاء (٣٠٠ عضو من ٥٠ دولة من بينها مصر) ..

يقول المنشور :

« مضت ثلاثون عاماً على الحرب العالمية الثانية ، ثلاثون عاماً على قتل النظام النازى لملايين من يهود أوروبا ، ذلك النظام الذى آمن بالعداء للسامية وإبادة الشعوب .. »

« إن القرار الذى اتخذته الجمعية العامة للأمم المتحدة، قد أدان الصهيونية كحركة عنصرية تماماً كالفاشية والنازية . وقد صدر هذا القرار بمبادرة وتصويت من الدول العربية ودول العالم الثالث وكتلة الدول الشيوعية . إن مثل هذا القرار الذى ليس له مثيل ضد مذهب تاريخى .. انحراف شائن ضد حقائق التاريخ والإنسانية والأخلاق فى هذا العصر . إنه امتهان لذكرى كل ضحايا التمييز العنصرى فى كل العصور ، وخاصة اليهود .. فما هى الصهيونية ؟ إنها حنين اليهود للعودة إلى أرضهم التاريخية التى طردهم منها الرومان الغزاة ، فتأثروا،وهذا الحنين إلى أرضهم قد شغلهم ألفى سنة دون انقطاع ، فى صلواتهم وفى عاداتهم وتقاليدهم وأدبهم وآمالهم فى الخلاص ، وحجهم إلى الأماكن المقدسة » .

كما أن الصهيونية منذ القرن التاسع حتى الآن ، ليست إلا منظمة سياسية تعبر عن هذا الأمل ..

ويقول المنشور بمنتهى الوقاحة : فالصهيونية هى حركة التحرير القومية الوحيدة التى اتجهت إلى تحقيق الأمل منها ، دون استخدام القوة أو الحرب وإنما عن طريق العمل وإنشاء المستعمرات الزراعية وتخصيب الأراضى البور ، والصهيونية هى حركة الاستيطان الوحيدة التى لم تعمل على طرد السكان الأصليين من أرضهم،وإنما اختارت أن تعيش معهم وأن تعاونهم لا أن تستغلهم ، لا أن تحاربهم وإنما أن تتعايش معهم فى سلام ..

ومن المغالطات أيضاً أن يقول المنشور الإسرائيلى : الصهيونية لم تدع إلى كراهية العرب – لا فى الدعاية ولا فى الأدب ولا فى الصحف ولا فى المدارس .

ويقول المنشور فى نهايته : إن إدانة الحركة الصهيونية كحركة عنصرية ليست إلا محاولة للقضاء على الدولة اليهودية وذلك بطردها من حظيرة القانون الدولى .

واليهود يضحكون على الأوروبيين الذين حضروا من أقصى الشرق والغرب والجنوب والشمال،ولا يعرفون الكثير عن الذى فعلته إسرائيل فى فلسطين وفى العرب ، عندما سرقت أراضيهم وطردتهم وأودعتهم السجون والمعتقلات وقتلت منهم الألوف ، وباعدت بين الرضيع وأمه والعجوز وزوجها لمجرد أن هناك (شبهة) اتصال بالعرب الأقارب أو الأشقاء خارج إسرائيل ..

وإن كانت إسرائيل توافق على أن يتلقى العرب فى داخلها ملايين الجنيهات من عائلاتهم فى كل أنحاء العالم ، وهو مكسب هائل لا ينتهى !

ثم إن الصهيونية نداء يهودى عالمى بأن يكون لليهود وطن ، ولم يحلم زعيم الصهيونية "هرتسل" بأن يكون هذا الوطن فى فلسطين ، وإنما فى أى مكان ..

ولكن اليهود اهتدوا إلى أكاذيب أخرى فى التوراة أو التلمود تقول إن الرب اختار لهم فلسطين بالذات . وهى أكذوبة . وهناك أكذوبة أخرى هى أن الله قد اختارهم دون بقية الشعوب .

وقد صدر فى أوروبا كتاب رائع للباحث الجاد (اليجرو) يناقش كل الخرافات التى فرضها اليهود وصدقوها وفرضوها بالحيل والنار على الشعوب الأخرى .. وخصوصاً الشعب العربى فى فلسطين .

وهذه الصهيونية عنصرية : لأنها دين خاص باليهود وحدهم .فاليهودية دين عائلى،دين وراثى .. وليس فى الديانة اليهودية تبشير ككل الديانات الأخرى . بل إن اليهود يشترطون صفات قاسية لكل من يحق له أن يسمى نفسه يهودياً أو يحصل على الجنسية الإسرائيلية .. فاليهودى يجب أن تكون أمه وجدته يهوديتين .. فإذا كانت أمه ملحدة أو مسلمة لم يعد يهودياً .. وإذا كانت أمه لم تتزوج،وكانت جدته يهودية فليس يهودياً .. ولا يوجد فى إسرائيل حتى الآن تعريف نهائى لمن يكون اليهودى ؟

وهذه المناقشات لها هدف واحد أن يكون اليهودى، والمواطن الإسرائيلى بعد ذلك ، يهودياً بالدم والدين .. ولكن الذى به بعض الدم اليهودى ، ليس يهودياً ..

ولكن لما هاجر إلى إسرائيل عدد من اليهود من جميع بلاد العالم : أطباء ومهندسون ورجال الدين تعطلت الحياة تماماً،فقد كانت المشكلة أنهم لا يجدون الأيدى العاملة ، ولذلك كان لابد من (استيراد) يهود ملونين ليقوموا بالأعمال الحقيرة فى إسرائيل .. وكانت أولى العمليات هى عملية (البساط السحرى) .. والتى نقلوا فيها اليهود من اليمن . وذهب ألوف اليمنيين ليقوموا بكنس الشوارع وزراعة الأرض . ثم نقلوا اليهود الزنوج لنفس السبب . وأحس اليهود البيض بأن هناك خطراً على الدولة الجديدة ، بأن يكون سكانها من الملونين .. بينما كانت الحركة الصهيونية تحرص على أن تكون إسرائيل دولة بيضاء ، أى قطعة من أوروبا فى آسيا،ثم إن اليهود الملونين كثيرو النسل . وأحس البيض أنه لن يمضى وقت طويل حتى تكون الأغلبية اليهودية من الملونين .. ثم إن الكثير من الشبان بدأوا يهاجرون من إسرائيل بعد حرب ٦٧ وبعد حرب ٧٣ .. وهذا يؤدى إلى نقص فى عدد البيض وزيادة مستمرة فى السود والسمر والصفر واليهود البيض الغربيين الذين هم أقل درجة وقدراً وسلطة من اليهود الشرقيين : أى الروس والبولنديين ..

ومعنى ذلك أن الصهيونية التى هى دين وسياسة يهودية . هى عنصرية أيضاً، أى خاصة باليهود الشرقيين دون الغربيين ودون الملونين .. وطبعاً فوق العرب فى إسرائيل .

وليست هذه هى المرة الأولى التى تجد إسرائيل فيها نفسها منبوذة أو مطرودة، فقبل ذلك طردتها منظمة اليونسكو ، لأن إسرائيل قد هدمت المقدسات .. هدمت المسجد الأقصى،وهدمت جدران مسجد عمر . وقامت بالحفائر تحت قبر إبراهيم الخليل .. ثم إنها نهبت كل اللوحات والنقوش والمخطوطات فى دير سانت كاترين .. ثم إن اليهود أنفسهم قد اتهموا بطلهم موسى ديان بأنه لص آثار وتحف .

ولم تكد الأمم المتحدة تصدر قرارها حتى هاجت الصحف والإذاعة والتليفزيون التى يسيطر عليها اليهود،وطالبوا بهدم الأمم المتحدة .. قال أبا إيبان : إن الامم المتحدة قامت لحماية العالم ضد النازية ، وبعد ثلاثين عاماً قامت لحماية العداء للسامية وهدم إسرائيل !

وقالت جولدا مائير : إن الأمم المتحدة يجب أن يتبرأ منها أعضاؤها . لقد لوثت سمعة الجميع ، ولكن إسرائيل سوف تبقى عضواً فيها،أو عضواً فى هيئة أخرى أكثر احتراماً لنفسها وغيرها .

وقال أنور السادات فى نادى الصحفيين فى واشنطن : لقد عرفنا الكراهية والحقد والمرارة والحرب والضياع والتشرد عندما عرف الشرق الأوسط هذه الصهيونية ..

وسارت المظاهرات اليهودية ضد أنور السادات فى كل المدن الأمريكية التى زارها .. وكانت هذه المظاهرات تحية لشجاعة السادات الذى لم يمنعه هذا الحشد الهائل من الصحفيين اليهود وأصحاب رؤوس الأموال وكل الصحف وأجهزة الإعلام وأعضاء الكونجرس اليهود أو العاطفين على اليهود ، من أن يقول ما يراه وفى قلب نيويورك التى تحكم أمريكا التى تحكم العالم أيضاً .

وقبل أن نصل إلى مدينة « فيينا » الجميلة الهادئة الوقور ، سبقتنا نفس القضية ولكن بصور مختلفة ، فالمستشار « برونو كرايسكى » ، يهودى ولكنه فى نفس الوقت قرر أن يكون نمساوياً .. فاليهودية دين .. ومن الممكن أن يكون يهودياً فى أى بلد .. وليس فى إسرائيل وحدها . ومن المؤكد أنه يشعر بالعطف على إسرائيل،ولكنه يجب أن يظل وطنياً محباً مخلصاً للبلد الذى اختاره وعاش فيه .. وقد اختلف « كرايسكى » مع إسرائيل . وكان له موقف معروف من اللاجئين اليهود القادمين من روسيا . وقال إن اليهود لهم على حكومة النمسا حق الإيواء . هذا طبيعى . ولكن لا بقاء لهم فى النمسا . لأن النمسا دولة محايدة ويجب أن تتوازن فى سياستها مع كل الأطراف فى العالم شرقاً وغرباً وبين العرب جميعاً وإسرائيل . وعندما ذهبت جولدا مائير لزيارته أغضبها ، وشكت من أنه لم يقدم لها فنجاناً من القهوة ..

وقد أعلن المستشار « كرايسكى » أنه لا سلام فى الشرق الأوسط دون أن تجلو القوات اليهودية عن الأراضى المحتلة كلها،ودون أن يسترد أهل فلسطين أرضهم وحقهم فى الحياة،وغضب اليهود .. وآخر ما أعلنه كرايسكى : أن اليهود جماعة وليسوا شعباً !

وهذا قد أغضب اليهود جميعاً،لأنهم يريدون أن يكون اليهود فى كل الدنيا شعباً واحداً وأن ولاءهم الأول لإسرائيل وليس للبلاد الأخرى التى يعيشون فيها ..

وعلى الرغم من أن اليهود قد عانوا كثيراً من الولاء لليهودية وعدم الولاء لكل البلاد التى يعيشون فيها ، فهم حريصون على ذلك الآن،لقد اتهمت الشعوب هؤلاء اليهود بأنهم جواسيس عليها وأنهم خونة . وأن لا ولاء عندهم لأى أحد غير أنفسهم،ولا دين لهم إلا جمع المال . والإخلاص للأقوى . وقضية الضابط الفرنسى اليهودى « دريفوس » كان مصدرها أن الشعب الفرنسى يرى أن كل يهودى خائن . وأنه جاسوس عليه ، ولذلك قد حرموا على اليهود أن يكونوا جنوداً فى أى جيش ، وقد اختارت الشعوب كلها أن يموت أبناؤها ويظل اليهود أحياء يبيعون ويشترون ويكسبون . فالشعوب تموت من أجلهم . ولذلك يجب طردهم من أى مكان .

وهذا هو الخلاف بين كرايسكى وإسرائيل . هو يرى أن إسرائيل يجب أن تكف عن إفساد حياة اليهود فى أى بلد . وتركهم يعيشون فى سلام . وهم يرون أن اليهود يجب أن يكونوا مواطنين إسرائيليين دائماً !

وعندما كنت أجلس مع بعض رجال السفارة المصرية بفيينا،جاءتنى فتاة نمساوية تقول :

- أنت هو منصور

- نعم .

- أريد أن أعرف رأيك فى الذى قاله المستشار كرايسكى ضد اليهود .

وضحكت وقلت لها : أنت تريدين أن تعرفى رأيى فى الذى قاله كرايسكى ضد اليهود ؟ لم أقرأ ما قاله ولكن سمعت به .. ولكنه على كل حال يعرف اليهود أكثر منى؛فهو يهودى كما تعرفين ولا بد أنه كرجل قد صاغ عبارته بدقة .. فما الذى قاله بالضبط ؟!

قالت : إننا جماعة ولسنا شعباً .

قلت : وأنت يهودية ؟

- نعم .

- أنا من رأى كرايسكى .. لأنه لا يوجد شعب يهودى . وإنما توجد ديانة يهودية . ثم إن اليهود لهم عشرات الجنسيات . فنحن لا نستطيع أن نقول إنه يوجد شعب مسلم .. وإنما توجد شعوب تؤمن بالإسلام .. فهناك مسلم مصرى ومسلم يابانى وهندى وصينى ومسلم إسرائيلى،أى مسلم يعيش فى إسرائيل وعنده الجنسية الإسرائيلية .. وفى وفد الأدباء الإسرائيلى واحد اسمه محمود العباسى رئيس تحرير مجلة الشرق . فهو مسلم إسرائيلى .. وكذلك لا يوجد شعب مسيحى وإنما شعوب مسيحية .. فهناك المسيحى الأمريكى والروسى والمصرى واللبنانى والإسرائيلى .. ولكن المشكلة فى إسرائيل : إنها تطالب كل يهودى بأن يكون إسرائيلياً . ولذلك يثيرون المتاعب لليهود فى كل مكان فى الدنيا !

ولم تسترح لهذه الإجابة . فاقترحت عليها أن تسأل أخاً لكرايسكى يعيش فى إسرائيل ..

وضاقت بهذه الإجابة مرة أخرى وعدت أقول لها : إن هذه المشكلة عائلية بين يهود إسرائيل ويهود النمسا .. أما نحن فلنا مشاكل أخرى مع اليهود،مشاكل لم تنته بعد .

وسألتنى إن كان هناك مانع فى نشر هذا الحديث : فقلت لا أظن أن هذا ممكن !

وعرفت فيما بعد أنها مراسلة الصحيفة الإسرائيلية « هاآرتس » فى مدينة « فيينا ».

واقتربت منها لأقول : إذا لم يكن فى استطاعتك نشر هذا الحديث ، فأقترح عليك أن تكتفى بنشر عنوان له .. وأقترح أن يكون العنوان « اليهود ينتحرون فى العالم ، والفئران فى بحر الشمال » !

ولا داعى لأن أرى وجهها،فقد امتقع تماماً وتوارت ، ومضيت أقول لنفسى إنهم فى أستراليا يصيدون الوحوش بأنواع من السهام اسمها « بويمرانج » أى السهام المرتدة التى إذا أطلقوها على الوحوش عادت إليهم مرة أخرى .. وهذه بالضبط هى السهام السامة التى يطلقها اليهود على العالم فترتد إليهم .

وتمنيت لو كان معى ذلك البحث الممتاز الذى ألقاه د . محمد عوض محمد فى المؤتمر الدولى لاتحاد الكتاب فى طوكيو،وقد كان موضوعه : التفرقة العنصرية فى العالم . ولم يكتف بذلك بل إنه تحدث عن تجارة الرقيق أيضاً .. أى كيف أن جنساً يبيع جنساً آخر .. أى تصدير الزنوج إلى أوروبا ليقوموا بأحقر الأعمال فى المستعمرات،وليكونوا جنوداً فى جيشها يدافعون عن اليهود البيض !

أما جدول أعمال المؤتمر نفسه فلا يتضمن شيئاً هاماً . وإنما جاءت الكلمات فى موضوعات تقريرية أو كأنهم كانوا يقرأون محاضر جلسات لمؤتمرات أخرى ..

ربما كان أحد علماء النفس الأمريكان ألطف وأعذب المتحدثين – من العذوبة ومن العذاب .

فالموضوع ممتع ولكن الرجل كان صارخ الصوت وكان ثرثاراً . فهو وجد المبرر المعقول لهذا الموضوع الخاص بالدراسات النفسية . فقال : إن الأدباء جميعاً يتكلمون عن المشاكل النفسية والغرائز والدوافع والعواطف والعقد . وهذه الآراء رغم أنها دقيقة،فإنها واسعة الإنتشار لأن الأدباء أقدر على اجتذاب الناس بعباراتهم الجميلة وحيلهم النفسية .. أما علماء النفس فليس لهم هذا الحظ السعيد،وما دام الأدباء يتصدون لقضايا علم النفس ، فلماذا لا يتصدى العلماء لقضايا الأدب والكتابة ويضعون الأدباء أنفسهم على مقاعد علماء النفس والعلاج النفسى ويشخصون أمراضهم .. لماذا لا يكون الأدباء أنفسهم مرضى ينشرون عيوبهم وانحرافاتهم بين الناس ؟ لماذا لا نقوم بحماية الناس من أمراض أحب الناس إليهم .. إن هذه الأمراض النفسية والعصبية والعقلية موجودة فى كل الأعمال الأدبية والنفسية . فى القصة وفى الفيلم وفى الأغنية وفى اللوحات والتماثيل واللوحات المصورة !

وتحدث الأديب السويسرى« فريدريش ديرنمات »وهو من أصدقائى الذين أعجبت بهم قبل أن أقرأ لهم،ثم بعد أن قرأت له وترجمت له خمس مسرحيات – ثم زرته فى بيته فى سويسرا مرتين ودارت بيننا مناقشة . سألته فيها عن الأعمال الأدبية العربية التى قرأها .. وسألته إن كان يعرف أى كاتب عربى،فأجاب إنه لا يعرف أحداً ، ولم يقرأ إلا ألف ليلة وليلة .. أما المسرحيات التى ترجمتها له وظهرت على المسرح المصرى فهى : رومولوس العظيم، والشهاب،وزواج السيد مسسبى،وهبط الملاك فى بابل،وفرانك الخامس .

وأذكر أنني وجهت دعوة رسمية لديرنمات ليزور مصر وكذلك وجهت نفس الدعوة لصديقي الكاتب السويسري أيضاً ماكس فريش . وقد زرته في بيته مع سفيرنا في سويسرا في ذلك الوقت : توفيق عبد الفتاح وقام السفير بدور المصور فألتقط له عدداً من الصور الجميلة .. ولكن فجأة تغير كل شيء . لا أعرف كيف . فديرنمات قد أعلن تأييده لإسرائيل ... وماكس فريش قد سافر إلى إسرائيل وشارك بكتبه في المعرض الذي أقيم هناك ثم أهدوه جائزة الكتاب .. ولابد أن اليهود قد أعجبوا بمسرحيته الشهيرة « أندورا » وأندورا هذه إحدى الإمارت على حدود أسبانيا والنمسا . وهذه المسرحية تتحدث عن النازي والتفرقة العنصرية وتدين الاثنين معاً . وفي هذا المؤتمر تبرأ ديرنمات من أن يكون عضواً في أي جمعية أو في أي حزب .. وقال إن هذه الأحزاب والمذاهب هي التي عذبت البشرية كلها .

ولم يصفق له أحد لأنه شتم المؤتمر الدولي الذي دعاه لإلقاء هذه الكلمة التي تعتبر بلغة كرة القدم « نوعاً من التسلل » .

وفي اليوم التالي قال في كلمة أخرى : الصهيونية ككل الأديان كالإسلام والمسيحية ..فإذا أدان أحد الصهيونية فيجب أن يدين هذه الأديان .. والصهيونية مذهب سياسي،فإذا أدانها أحد وجب عليه أن يدين الشيوعية والاشتراكية أيضاً .. ثم إن الصهيونية خاصة باليهود أنفسهم . ولذلك إدانتها قضاء على عضو في الأمم المتحدة هو إسرائيل .

وصفق له اليهود واتجهت العيون ناحيتي وظللت واضعاً ساقاً على ساق ، وربما كان ديرنمات هذا هو الأديب الوحيد الذي له شهرة عالمية .

ولم يظهر أحد من طراز آرثر ميلر الذي رأس هذا المؤتمر منذ سنوات .. وهو يهودي !

ولا ألبرتو مورافيا الذي استضافه المؤتمر منذ سنوات أيضاً وهو يهودي !

وقد ناشدنا أحد المتحدثين اليهود أن نعود إلى بلادنا ونطلب إليها أن تراجع نفسها فى هذا القرار الذى شاركت فيه ..

وهو ككثير من الأوروبيين لا يعرفون الحقيقة التى نعانيها ونتعذب بها فى الشرق الأوسط ..

إن هذا الرجل يتذكر الذى فعله هتلر باليهود وهو معذور، ولكنه لا يعرف من الذى انتقم منه اليهود. إنهم لم ينتقموا من الألمان .. ولكنهم انتقموا من العرب .. ووجودهم لا يزال انتقاماً مستمراً لجريمة لم يرتكبها أحد منا ..

واحترم مؤتمر الأدباء العالمى نفسه وميثاقه الأساسى، فلم يتخذ قراراً لأنه ليس منظمة سياسية ، وانصرف الأعضاء إلى حفلات الوداع الفخمة .. التى أقامها المستشار كرايسكي والتى أقامها فرع المؤتمر فى مدينة فيينا .. وكانت موسيقى الفالس وكانت زجاجات الشمبانيا .. والملابس السوداء للرجال والعارية للنساء .. وتغيرت معالم الجميع .. إنها أكثر شباباً وحيوية وجمالاً ودلالاً وفناً ..

وكنت قد أقفلت حقائبى على بدلتى السوداء الوحيدة التى تكرمشت طبعاً والتى لا بد أن أخنق رقبتى فوقها أو تحتها بكرافتة محتشمة .. ولذلك فضلت أن أجلس وأن أتحدث عن شيء آخر وعن الذى سوف أكتبه بعد ذلك .

وإلى اللقاء فى لندن مع ثلثمائة آخرين من الذين يأكلون الورق ، ويشربون الخمر ويموتون فى النور ، ويدفنون فى النسيان ، وتوضع على أجفانهم التيجان .. ومشاكل أخرى ..





الشعب المختار فى زجاجة نبيذ فارغة

الدين وسيلة مواصلات فقط . ولذلك يجب أن نبقى فيها بعض الوقت ، لا كل الوقت ، ولو فعل اليهود ذلك ما قامت لهم إسرائيل – هذه العبارات لمؤسس إسرائيل بن«جوريون». وهو يعتقد أن حياة اليهود لو تركت لحاخامات اليهود لظلوا حتى الآن كلاباً ضالة فى كل مكان .. يضربهم الناس بالأقدام ، ويحتمى اليهود من أقدام الأغلبية الساحقة لهم فى كل مكان بأحلام العودة إلى أرض المعاد والأجداد ، وانتظار المسيح الذى يهبط عليهم من السماء،لينقذهم ويقوم لهم بكل العمل،بينما هم يصلون الفجر والعشاء ويبكون ليلا ونهارا . وهم يفعلون ذلك من ألوف السنين – وهذا أيضاً رأى بن جوريون ..

وقد صدر له كتاب بعنوان « بن جوريون ينظر وراءه » .. والكتاب على شكل حوار مع دافيد بن جوريون . أجرى الحوار كاتب يهودى اسمه موشى برلمان .

وبن جوريون يؤكد أن كبرى مشكلاته السياسية والاجتماعية فى إسرائيل ، أن حكومته ائتلافية دائماً . وهى كذلك من ربع قرن ، وتضم هذه الحكومة كل العناصر اليهودية المتطرفة : الملحدين والمتهوسين من رجال الدين . واليهود بتكوينهم النفسى والتاريخى متطرفون . ولم يفلح الزمن فى أن يذيب هذه الفوارق بين الشيوعيين الروس الذين أنشأوا إسرائيل وأصحاب الملايين الأمريكان الذين ينفقون عليها . ففكر إسرائيل من صنع الشيوعيين الروس ،

وتسليح إسرائيل من جهود أصحاب الملايين الأمريكان .. ويعترف بن جوريون بأنه حريص على أن تكون حكومته ممثلة لكل الألوان . ولكنه فى نفس الوقت لا يطيق أن يكون الدين هو الباعث الوحيد لكل شيء .

صحيح أن الدين والأحلام المجنونة هى التى جمعت الشعب اليهودى، المتفرق فى كل أرض . ورغم اختلاف الأرض واللغة والطبقة من كل اليهود، فإن الدين قد جمعهم وأشعل النار فيهم ، وألهمهم الصبر على الهوان فى كل زمان .

ولذلك كان من أول همومه السياسية والاجتماعية،أن يأتى باليهود إلى إسرائيل ، تحت أى ستار ، وتحت أى شعار . وبعد ذلك يقطع ما بينهم وبين البلاد التى جاءوا منها . ثم يعزلهم تماما فى المستعمرات . ويشغل أيديهم بالأعمال اليدوية . لم يكونوا فلاحين فى أى عصر ، ولذلك يجب أن يزرعوا ويقلعوا ويحصدوا .. لم يعيشوا فى الصحراء ، ولذلك يجب نشرهم وعصرهم وتجفيفهم فى الرمل وتحت الشمس . كان اليهود يتكلمون عشرات اللغات ، فمن الواجب أن يتحدثوا لغة واحدة ، هى العبرية ، وهى لغة ماتت على كل لسان من ألوف السنين . فإذا تكلموا العبرية أقاموا فى إسرائيل . وانعزلوا عن كل دولة أخرى . وأصبحوا فى نفس الوقت عاجزين عن الهجرة من إسرائيل إلى أى بلد آخر . فاللغة ارتباط ورباط .

وهو يعلم أن الكثير من مبادىء الدولة الحديثة لا يقرها الدين اليهودى . فالخدمة العسكرية حرام . والطعام الذى يأكله الناس حرام .. ولذلك يجب أن تكون هناك أطعمة خاصة . يسمونها الأطعمة الكوشير – أى الحلال – وهذه الأطعمة لها شروط خاصة . فاللحم يجب أن يذبح ويطبخ بطريقة معروفة . ويجب أن يكون شخص واحد هو الذى يذبح الحيوانات والطيور . وهذا الشخص يجب أن يحصل على ترخيص من أعلى الهيئات الدينية .

مثلا : يجب أن يذبح الحيوان بضربة سكين واحدة . أى أن السكين يجب أن تكون حادة .. وأن تمشى على عنق الدجاجة أو الخروف فى اتجاه واحد

ومرة واحدة وإلا كان حراما . ووجد بن جوريون أنه من الصعب أن يرضى كل المذاهب الدينية .. ولذلك قرر أول الأمر أن يكون هناك طهاة من رجال الدين .. وأخيرا أن يكون كل الطعام فى الجيش دينيا ..

وهو فى نفس الوقت لا يعرف ما الذى يمكن أن تفعله الحكومة أمام رجال الدين الذين يضربون كل من يركب سيارة يوم السبت أو يفتح دكانا أو مطعما . فمن المشاهد المألوفة جدا أن تجد أناسا قد طالت لحاهم يحملون أكياسا من الظلط يرمون بها المشاة وأصحاب المطاعم وأصحاب الفنادق فى يوم السبت .. أو أن تجد واحدا من رجال الدين قد حمل حاجزا من الأسلاك الشائكة ووضعه فى الطريق العام،وجلس أمامه أو خلفه ليمنع حركة المرور . لأن هذا – بنص التوراة والتلمود – حرام ..

ورجال الدين كانوا ولا يزالون يرون أن الشعب اليهودى يجب أن يظل يصلى ويبكى حتى يجىء المسيح .. فإذا جاء تولى هو عن كل الشعب اليهودى العودة والخلاص من العذاب .. ويقول بن جوريون : إن الكثير من اليهود قد أحرقوا وأغرقوا .. ولكن هذه بطولات سلبية . وأن الدين يجب أن ينتهى . فدوره قد تجاوزته المجتمعات الحديثة ، هذا رأيه ، ولكنه لا يستطيع أن يفرضه بالقانون . لأن المجتمع اليهودى ممزق .. ففيه الملحدون وفيه الذين يصلون على قطعة حجر يضعونها بين عيونهم . ويحملون معهم هذا الحجر فى كل مكان . لأن التلمود يقول : « ضعوا التوراة والمعبد بين عيونكم » .. وعلى الرغم من أن المعنى هو أن يحرصوا على التلمود وعلى التوراة وعلى المعبد ، فإن رجال الدين اليهود يرون أن المعنى يجب أن يكون حرفيا ، ولذلك يلفون رؤوسهم بأشرطة أو أحزمة وقد تعلق منها نموذج خشبى أو حجرى من التوراة فإذا صلوا وضعوا رؤوسهم فوق الحجر !

وفى المجتمع الإسرائيلى الحديث مشاكل الزواج والطلاق . وأين ينعقد هذا الزواج . الاتجاه إلى عقده مدنيا ، ولكن الأحزاب الدينية ترى فى ذلك نوعا من الزنا ، ولذلك لا بد من توثيق العقود دينياً أو عقدها مدنيا وتوثيقها دينيا .

وتواجه الحكومات الائتلافية فى إسرائيل حملات عنيفة فى المعابد ولعنات من رجال الدين،لأنها حكومات ملحدة فاسقة .

ويتجه بن جوريون فى محاوراته إلى قضايا هامة وهو يتحدث فيها بإطالة وإسراف ؛ لأنه يريد أن يدفع عن اليهود كل التهم ، التى وجهت إليهم فى كل العصور . من بين هذه التهم أن اليهود شعب يحتقر كل الشعوب الأخرى ، ويرى أن كل الناس لصوص لثرواته ، لأن التوراة قالت لهم:إن الأرض لكم ومن عليها من الناس عبيد لكم ، وما عليها من الحيوانات والنباتات طعام لكم ، هذا وعد وعهد بين إبراهيم والرب ، وبين موسى والرب وبين سليمان والرب ..

ويقول بن جوريون : أبدا ليس صحيحا إننا قلنا عن أنفسنا إننا شعب الله المختار . ليس صحيحاً أن الله قد اختارنا ، ولكن الصحيح هو إننا الذين اخترنا الله . فالله قد عرض « الوصايا العشر » على كل الشعوب ، ورفضتها كل الشعوب لأنها صعبة عسيرة . فهو قد عرض على الشعوب ألا تسرق وألا تقتل ، فقالوا : لا نقتل نعم . ولكن لا نسرق هذا صعب . وعرض على شعوب أخرى : ألا تعبد غيره وألا تزنى ..

فقالوا : لا نعبد غيرك نعم . وألا نزنى فهذا غير مستطاع .. ولكن اليهود وحدهم هم الذين اختاروا الوصايا العشر .. فهم هكذا اختاروا الله ، ولكنه ليس هو الذى اختارهم . فهم الشعب المختار .. أى الذى اختار الله .. وليسوا الشعب الذى اختاره الله ..

ويشير بن جوريون إلى ما جاء فى سفر يشوع الإصحاح ٢٤ والآيات ١٤ و ١٦ و ٢١ و ٢٢ :

« الآن اخشوا الرب واعبدوه بكمال وأمانة وانزعوا الآلهة الذين عبدهم آباؤكم فى عبر النهر وفى مصر واعبدوا الرب .. فأجاب الشعب وقالوا حاشا لنا أن نترك الرب لنعبد آلهة أخرى .. فقال الشعب ليشوع لا ، بل الرب نعبد . فقال يشوع للشعب أنتم شهود على أنفسكم إنكم قد اخترتم لأنفسكم الرب لتعبدوه . فقالوا نحن شهود »

ويناقش بن جوريون ما قيل عن اليهود : إن الرب طلب منهم أن يتسلطوا على العالم كله . ويقول : بل الرب طلب من إسرائيل أن تسمو روحيا على كل الشعوب . وذلك بأن تحارب الرذيلة وتدعو إلى الفضيلة وإلى السلام . وأن الشعوب كلها سوف تتعلم من إسرائيل . أى مطلوب من إسرائيل أن تكون « نموذجا أخلاقيا » لكل شعوب العالم .

ويقول بن جوريون إن التوراة لم تتحدث عن « دولة » نموذجية ، وإنما عن « مجتمع » نموذجي .. فاللغة العبرية لا توجد بها كلمة دولة .. وإنما الدولة بالعبرية تقابلها كلمة « مدينة » . مدينة إسرائيل ، أى دولة إسرائيل ..

ولذلك يتحدث النبى أشعياء فى أيامه الأخيرة عن خلاص اليهود والشعوب كلها فيقول (الإصحاح ٢) والآيات ٢ حتى ٤ :

« ويكون فى آخر الأيام أن جبل بيت الرب يكون ثابتا فى رأس الجبال .. ويرتفع فوق التلال وتجرى إليه كل الأمم . وتسر شعوب كثيرة ويقولون هلم نصعد إلى جبل الرب إلى بيت الرب يعقوب فيعلمنا من طرقه ونسلك فى سبله لأنه من صهيون تخرج الشريعة .. ومن أورشليم كلمة الرب . فيقضى بين الأمم وينصف لشعوب كثيرة فيطبعون سيوفهم سككا ورماحهم مناجل . لا ترفع أمة على أمة سيفا ولا يتكلمون الحرب فيما بعد .. »

وفى أشعياء أيضا (الإصحاح ١٤) : لأن الرب سيرحم يعقوب ويختار إسرائيل ويريحهم فى أرضهم فيقترن بهم الغرباء وينضمون إلى بيت يعقوب ..

ويستنتج بن جوريون من ذلك أن الشعب اليهودى قد اختار لنفسه أن يكون هادياً لكل الشعوب بما عنده من مثل عليا وأخلاقيات نبيلة جداً .. ولا بد أن رجال الدين يرون حال المجتمع اليهودى بكل ما فيه من أعمال وحشية دموية ، وكذب وسرقة ونهب وتآمر ، ويرون أن بن جوريون هذا ملحد . فهو كافر بدينه نفسه ، وبواقع مجتمعه الذى يقوم على احتقار كل الوصايا العشر التى تركها موسى لليهود ..

وبن جوريون – ككل اليهود – يغالط ويراوغ . لأن التوراة صريحة والتلمود أكثر صراحة فى اعتبار اليهود سادة الشعوب . ويجب أن يكونوا كذلك ولكن بن جوريون يقول : كيف نكون سادة العالم ونحن أقلية تعتمد على الأغلبية فى كل مكان .. كيف يكون اليهود سادة العالم وأيديهم ممتدة وراء البحار يطلبون المال والسلاح والأمان والثقة والعطف من كل الناس .. يقول : لسنا الآن فى حالة تسمح لنا بأن نقول ذلك .

أى أن الحالة الآن لا تسمح .. ولكن سوف يجىء اليوم الذى يجب أن تسمح فيه كل الظروف بأن يخربوا الدنيا ويجلسوا على تلالها كما تقول التوراة .. أو عندما يسود الرخاء كل مكان وتتعالى المقاعد الذهبية التى يتربع عليها اليهود ليتسلموا « العهدة » تنفيذا للعهد .. أى ليحكموا العالم كله .. وكل الشعوب التى تقاومهم مدعية أن اليهود يعتدون عليهم أو يسلبونهم أرضهم أو أرزاقهم ، هذه الشعوب كافرة ملحدة لأنها تعطل مشيئة الرب الذى اختار اليهود ، واختار لهم كل الأرض ومن عليها وما عليها ؟ !

ويعود بن جوريون فى أكثر من موضوع من هذا الكتاب، وينفى عن الشعب اليهودى أنه قال أنه سيد الشعوب . وينفى أيضاً عن أنبيائه أنهم طالبوا اليهود بأن يعملوا على السيطرة على كل الناس . ولكن بن جوريون يعلم أن الذى يقوله كذب ومغالطة . وأن التلمود فى متناول كل الناس . وأن التلمود يحتقر كل الأديان وكل الشعوب . ويدعو اليهود فى كل أرض وفى كل زمن إلى السيطرة على الدنيا ..

ويندهش جدا كيف أن إحدى السفارات المصرية فى أفريقيا قد نشرت صورة كاريكاتورية تضم عدداً من اليهود الأمريكان قد التفوا حول الوزارة الأمريكية . وقالت الصحيفة المصرية إن هذه هى الوزارة الأمريكية .. ومن ورائها الحكومة السرية لليهود .. أى « القهالة » . أما هذه القهالة فكانت تضم : السناتور لحمان والبروفسور أوبنهايمر أحد مخترعى القنبلة الهيدروجينية ، والمستر فرنكفورتر رئيس المحكمة العليا ثم الأميرال ريكوفر . ويتضايق جداً بن جوريون لأن الصحيفة

المصرية قالت عنهم : هؤلاء هم حكماء صهيون الذين وضعوا البروتوكولات المشهورة فى سويسرا سنة ١٨٩٧ . وقالت الصحيفة المصرية أن « بروتوكولات حكماء صهيون » هى الخطة السرية التى تتولى هذه الحكومة السرية تطبيقها فى أمريكا وفى أوروبا للسيطرة على العالم ، وتخريبه قبل السيطرة عليه !

ويتوقف بن جوريون طويلاً وكثيراً دفاعاً عن اليهود وعن إسرائيل ، ويقول : إنها مشكلة زجاجة نبيذ .. فالوضع الآن هو ما يأتى : كانت هناك زجاجة نبيذ .. أفرغت هذه الزجاجة ثم ملأنا الزجاجة بالماء ، ولكن بقيت فوقها ورقة مكتوب عليها أنها زجاجة نبيذ . والخلاف بيننا وبين العالم كله : أن العالم يقول إنها زجاجة نبيذ .

ونحن نقول : كانت زجاجة نبيذ .. العالم كله يقول إن اليهود يعيشون على أنهم سادة البشر وأنهم يجب أن يتمكنوا من رقاب العالم كله .. ونحن نقول : كان هذا رأى اليهود من ألوف السنين .. ولكن ليس هذا رأيهم الآن !

ولكن بن جوريون يغالط طبعا .. فلا تزال الأحزاب الدينية والكتب الحديثة التى تصدر عن إسرائيل تؤكد ما يريد أن ينفيه . فالزجاجة كان بها هذا النبيذ المعتق ، شعب الله المختار وأفرغت الزجاجة . هذا صحيح . ولكن عادت إسرائيل وملأتها بنبيذ آخر معتق .. أو أن الذى حدث هو أنه كانت هناك زجاجة نبيذ صغيرة .. ثم أتت إسرائيل بزجاجة أكبر وأطول وأعرض . وتدعى اليوم أن إسرائيل يجب أن تكون أكبر .. وأن تمتد من النيل إلى الفرات ، وفى الكنيست الإسرائيلى خريطة إسرائيل الكبرى .. فليس صحيحاً ما يدعيه بن جوريون ، وليس صحيحا ما يتظاهر به من كراهية للدين ، وإظهار نفسه رجلا متحرراً ، والحقيقة أنه شديد التعصب للدين والشعب ، والتمسك بالأرض التى سرقها ، والأرض التى يريد أن يسرقها ولم يعد أحد يعبأ كثيراً بالورقة المكتوبة على الزجاجة !

ويدرك بن جوريون أن العالم لن يصدقه بسهولة ، ولذلك يقول : إن هناك

نكتة للأديب المعروف باسم (سلام عليكم) يقول فيها : إن الفقير يأكل الفرخة إذا كان مريضا أو إذا كانت الفرخة مريضة ..

ويتساءل بن جوريون : ولكن لماذا لا يأكلها لأنه فى صحة جيدة ؟ لماذا ؟ لأن العالم لم يعد يصدق ما تقولون !





غرف الطعام هى المثل الأعلى

أى نوع من البشر هؤلاء الشبان الذين يحاربون فى الجيش الإسرائيلى .. أى نوع من الناس هؤلاء الذين سوف يحكمون إسرائيل فى الأجيال القادمة . من أين جاءوا ؟ ما ألوانهم ما مذهبهم ؟ ما هى لغتهم .. إنهم طراز مختلف تماما عن كل أنواع اليهود الذين عرفهم العالم . لأن إسرائيل قد قامت « بتخليق » هذا الجيل . جاءت بهم من بلاد مختلفة . وضعتهم فى قوالب من حديد . جردتهم من الأب والأم واللغة والدين أحيانا . وربطتهم بهذه الأرض المسروقة .

عشرات من الكتب والدراسات قد صدرت فى إسرائيل وفى أمريكا عن حياة المستعمرات اليهودية ، ولكن أفضل هذه الدراسات وأشملها،ما كتبه العالم الأمريكى اليهودى برونو بتلهايم بعنوان : « أولاد الحلم – التنشئة الجماعية للطفل ودلالاتها للمجتمع » .

وهذا المؤلف له دراسات رائدة فى تربية الطفل ، لذلك فحكمه على بنى قومه له أهمية بالغة ..

فالحياة فى المستعمرات اليهودية جماعية .. الكل يعمل ..والكل ينام فى مكان واحد . ويأكلون فى مكان واحد . الأطفال بعيدون عن الأمهات . ولا أحد يملك أى شىء . ولا بد أن يكون سبب هذه الحياة معا فى « القبوتس » أن اليهود قد ضاقوا بالحياة فى حارات اليهود فى أوروبا . ففى قلب كل مدينة يوجد حى ضيق مظلم قذر كله أبواب عالية .. هذا الحى هو حارة اليهود . البيوت متجاورة والأبواب مغلقة والنوافذ ، ووراء هذه الأبواب تعيش الأسرة

اليهودية متراصة متماسكة متمسكة بتعاليم التلمود . ويتربع الأب على هذا العرش الذليل لكل أسرة . ففى داخل الأسرة نفسها توجد قيود عنيفة،فإذا ذهب الطفل إلى المدرسة الدينية واجهته قيود أعنف ..

وقد بدأت حركة التحرر من حارات اليهود فى ألمانيا . وكان لهذه الحركة اسم هو « الطائر الحائر » — أو فوندر فوجل .. وكانت هذه الحركة تدعو إلى ضرورة الهرب من أرض إلى أرض .. وترك الحارت إلى أى مكان آخر أفضل ..

وقد تشجعت هذه الحركة اليهودية عندما سادت أوروبا حركة تنوير واستنارة . وعندما انتشرت الاشتراكية والماركسية ونادت بالانفتاح بين الطبقات وبين الشعوب واستبعدت كلمات الأقلية والأغلبية والطبقية والدينية . وفى ذلك الوقت كان اليهود يتكلمون لغة غريبة هى خليط من العبرية والأرامية وأكثرها ألمانية واسمها : ييديش . وهى لغة خاصة بهم وحدهم . ولم يفلح أحد فى أن يجعل لهذه اللغة أية قواعد .. فطائفة اليهود إلى جانب القيود التى ضربوها على أنفسهم وحولها ضيقوها أكثر عندما توارثوا هذه اللغة الخاصة .

وكل ما كان يتمناه اليهود هو أن تكون لهم ظروف اجتماعية أفضل وأوسع ليختاروا شكل الحياة التى يريدون،وليربوا أطفالهم بصورة أحسن ، ولذلك عندما هاجروا إلى فلسطين كانت أحلامهم أن يبنوا القبوتس ، هم الذين يبنونه ، أى لا حارات لليهود .. لاعزلة .. لا انطواء .. وكل ما يريدونه هو أن يكونوا قادرين باختيارهم على التوافق مع المجتمع الجديد ..

ولكن من المشاكل التى واجهتهم،أن معظم المهاجرين إلى إسرائيل كانوا من أبناء الطبقة الوسطى فى أوروبا ، أى لم يكونوا من سكان حوارى اليهود ، فلم تكن بهم حاجة كبيرة إلى أن يعيشوا فى القبوتس ، فقد كانت حياتهم واسعة الشوارع ، وبيوتهم مفتوحة النوافذ .

ولكن لم تكن لهم تجربة بالحياة فى الحقول أو فى الصحراء .. فليسوا مثل الأمريكان الذين انتقلوا من شرق أمريكا إلى غربها ، فلم يشعروا بشىء من الغرابة . وإنما كانوا حرفيين .

ولم تكن لهم أية تجربة في الزراعة ، ولذلك كان أول ما يجب أن يعمله أبناء المستعمرات هو زراعة الأرض وإصلاحها،ولم تكن لهم تجربة الحياة معا .

لقد كان من عاداتهم أن يعيشوا على شكل أسرة : أخ وأخت وأب وأم . ولكن فى المستعمرة : لا أخ ولا أخت ولا أب ولا عم .. وإنما أطفال من كل لون ومن كل لغة معاً .

صحيح أن الصحراء واسعة وأفراد الأسرة الواحدة كثيرون ، أو أبناء المستعمرة الواحدة كثيرون ، ولكن هذه الكثرة لم تحقق الغرض الأول : وهو الأمان ، فما تزال الحياة فى إسرائيل صعبة ، فالخوف هو أهم معالم الجو الاجتماعى والسياسى ، ولذلك فهذا الخوف قد تسرب إلى المستعمرات . فإلى جانب الخوف ، هناك عدم الألفة والتآلف بين الجميع .

والذين يشرفون على المستعمرات من كبار السن . وهم يدركون بوضوح أن حياة حارة اليهود كان يسودها أن الجميع من دين واحد ، أو من مذهب دينى واحد ، ولكن فى المستعمرة لا ضرورة للدين أو للتمسك به .. فهناك إحساس جديد بأن الدين كان سبباً فى عذاب اليهود مئات السنين . وإذا كان الدين قيد حياتهم حتى اليوم ، فانتهت رسالته ، ويجب أن يعدلوا عنه .. ولكن عندما جرد هؤلاء الشبان من الدين ، لم يعطهم أحد شيئا جديدا يربطهم بالقيم الأخلاقية ، أو يربط الأرض بالسماء ، أو هذه الحياة بما بعدها ..

والديانة اليهودية تعطى للرجل الكثير ، وتحرم المرأة من الكثير ، ففى صلاة الفجر وفى الدعوات ليلا ونهاراً يقول الرجل وعلى مسمع من زوجته وابنته : حمداً لك يارب إنك لم تخلقنى امرأة !

ولذلك كان لابد من إلغاء التفرقة بين الرجل والمرأة ، كما ألغيت الفوارق بين المذاهب الدينية ، وبين العائلات الغنية والفقيرة ، وبين اليهودى الشرقى واليهودى الغربى .. وكان على المرأة أن تتحمل إلغاء هذه التفرقة .. فلم تعد المرأة كما كانت فى حارة اليهود هى التى تطبخ وتغسل وتكنس فى انتظار الزوج والأولاد ، وإنما المرأة عليها أن تعمل شيئاً آخر – أى شىء آخر – .. وإذا كانت الولادة والحمل هى التى عوقت تطور المرأة ، فلا داعى لأن تحمل

أو تلد .. ولا داعى حتى أن تتزوج ، وهى حرة أن تكون لها ما تشاء من العلاقات .. ثم ما هذه العلاقات الجنسية بينها وبين الشبان الآخرين .. إنها فى كثير من الأحيان لا تجد هذه الرغبة .. فالشبان والشابات يعملون معا وينامون معا .. ويرون أنفسهم عراة فى أى وقت .. فلا شىء هناك يغرى أو يلهب الإحساس .. وما هو هذا الحب ؟ ولماذا حب واحدة ؟ ثم ما هو الغرض من الحب ؟ هل هو الزواج ؟ وإذا كانت المرأة لا تريد الزواج حتى لا تحمل أو تلد ، فلماذا الزواج .. ولماذا الأولاد ؟

وفى بداية بناء هذه المستعمرات كانت هناك مواقف مضحكة ، فالمرأة التى قررت المساواة بالرجل ، أو قرروا لها المساواة بالرجل ، كانت تدرك أن الفوارق الحسية هى المسئولة عن كل ما تعانيه المرأة ، فالمرأة لا تريد أن تكون لها أى ملامح بارزة ، ولذلك ارتدت ملابس الرجال وراحت تمارس الأعمال العنيفة .. ولم يكن فى استطاعتها أن تستمر طويلا فى ذلك كله دون خلل نفسى أو عضوى أو دون ارتباك فى المستعمرات كلها .

وأدركت المرأة أيضا أن سبب تأخرها هو أن البيت والأطفال فقد استغرقوها حتى أغرقوها . فلا وقت عندها للقراءة أو الكتابة أو تنمية أية موهبة . ولكن إذا تخلت عن الواجبات التقليدية أصبحت شيئا . وتخلت عن كثير من هذه الواجبات التقليدية ولم تصبح شيئا بعد .. وأدرك الذين أقاموا المستعمرات ، أن عندهم مشكلة أخطر من ذلك . فالعمال فى العالم كله عندما ثاروا على الظلم ،كان ذلك من أجل أوضاع عادلة .. وهذه الأوضاع تعيد لهم التوازن الاجتماعى والاقتصادى . أمااليهودى،فله مشكلة قديمة وهى أنه « يهودى » .. كل شىء حوله يؤكد ذلك .. والمرأة اليهودية مشكلتها أعقد،فإلى جانب أنها يهودية هى امرأة أيضا،ولذلك ، فقد كان اليهود يحلمون بمجتمع ينسون فيه أنهم يهود ، فهم جميعا يهود ، ولكن لا أحد يشعر بأنه أقلية أو أنه منبوذ .. ولكن كان على الرجل اليهودى أن يتحرر من رأيه القديم فى المرأة أيضا .. فدينه يقول إن المرأة لعنة ، وأن هذه اللعنة أصابت الرجل وتسلطت عليه ، حتى شعر المرأة يراه الدين اليهودى لعنة من اللعنات ، ولذلك كان العريس يرى أن الطهارة هى أن تحلق المرأة شعرها قبل الزواج ..

وكان من الممكن أن تمضى الحياة فى المستعمرات على النحو الذى أراده هؤلاء الحالمون ، لولا أن أبناء القبوتس عندما يذهبون إلى المدن يجدون اليهود الآخرين يعيشون حياة عادية .. الرجل له زى والمرأة لها زى . والمرأة حرة في أن تأكل وتشرب وتحب وتتزوج ويكون لها أى عدد من الأولاد .. بينما المرأة في القبوتس لا تستطيع أن تحمل أو تلد . ثم إن حياتها من نوع آخر . فلماذا ؟ أليسوا جميعا من اليهود ؟ ولماذا هؤلاء اليهود فى الصحراء يزرعون ويغرسون وينامون معا ويأكلون معا .. بينما غيرهم يعيش على هواه وفى شقق خاصة .. ثم إنهم لا يزرعون الأرض ولا يرتدون ملابس الرجال .. وحياتهم أكثر بهجة وأقل تعاسة .. أكثر من ذلك : هؤلاء اليهود في أمريكا وبريطانيا وألمانيا إنهم ليسوا تعساء هكذا .. فلماذا هم وحدهم الذين يطبقون هذا الطراز من الحياة .. لماذا هم وحدهم المطالبون بصيانة إسرائيل والبكاء على ما كان في تاريخهم .. وغيرهم من اليهود لا يبكون ولا يموتون فى الدفاع عن الأرض ؟ !

إن أساس الحياة في المستعمرة : أن لا فرق بين الرجل والمرأة ، فإذا أحس كل واحد منهما بضرورة أن يكون هناك فرق ، انهدمت المستعمرة .. وأساس الحياة هنا ألا يعرف الطفل أبويه بعد اليوم الرابع من ولادته . وإنما ترعى جميع الأطفال سيدة أو فتاة لم يكن لها أطفال أو تريد أن يكون لها أطفال .. ويتجاور الذكور والإناث .. لهم نفس الملابس .. ونفس الأشياء التى يلعبون بها .. لا تفرقة فى الملابس ولا فى حجم أو لون اللعب .. ولا يحق لأى أب أو أم أن يأتى لابنه بهدية أو ملابس أو تطول جلسته مع الطفل أكثر من غيره من الأطفال .. وإذا تعلق الطفل بوالديه ، كان هذا إخلالا بأساس التربية الجماعية .. وإذا ارتكبت إحدى الأمهات حماقة . أن تحتضن طفلها وتبكى على فراقه منعوها من زيارته .. لأن هذه الدموع سوف تذيب الحديد الذى قامت عليه الحياة الجماعية فى المستعمرة !

الشيء الجديد الرائع — كما يقول العالم الكبير برونو بتلهايم — فى هذه المستعمرة هو غرفة الطعام . هنا كل القيم الأخلاقية والسياسية والدينية . هنا كل شيء ، ولكى تدرك أهمية غرفة الطعام يجب أن تعيد إلى الذاكرة كيف كان اليهود فى حاراتهم يأكلون ، إنهم يصلون قبل الأكل وأثناء الأكل وبعد

الأكل . ولا بد لكل واحد أن يغسل يديه وأسنانه وأن يتطهر . ويجلس الأب على المائدة يصلى ، وأحيانا يبكى أما الأم فقد انهد حيلها طول النهار فى إعداد الطعام . والأم ترى أن أهم واجباتها هو أن يأكل أطفالها . وكلما أكل الأطفال أكثر كان ذلك أفضل . فالطعام نوع من الحماية لهم ، واليهودى بطبعه خائف من كل شيء : من المرض . من الموت . من الانقراض . ولذلك فأول واجبات الأم هو أن تجعل طعامها هو الدرع الواقية لأطفالها . والطعام فى الحارة يجب أن يكون « كوشير » أى حلالا .. أى مطبوخا بطريقة خاصة نص عليها التلمود ومن قبله نصت التوراة ..

أما فى غرفة الطعام الجماعية فى المستعمرة : فلا أب ولا أم . ولا صلاة ولا ضرورة للدعاء أو البكاء . ولا ضرورة لغسل اليدين أو الفم . ولا أب يجلس على رأس المائدة ولا أم تتلفت إلى من الذى أكل ومن الذى لم يأكل . ولا أخ ولا أخت .. الكل يجلس فى مكان عام . وليس أمامه إلا هذا الطعام . وليس لديه أى اختيار . وليس من حق أى أحد ان يشترى طعاما خاصا ويأكله فى غرفته .. هذه كبرى الخطايا !

وهناك مشكلة هامة عند اليهود فى هذه المستعمرات . فهناك مستعمرات تملكها الأحزاب السياسية الملحدة .. وهناك مستعمرات تملكها وتديرها الأحزاب الدينية .. فنحن أمام شباب ملحد وشباب متهوس دينياً . والنوعان يعيشان فى مجتمع واحد ليس فيه أمان لأحد . وفيه تساؤلات كثيرة : لماذا نحن دون كل يهود العالم نتعذب هنا ونموت هنا ؟

ثم هناك يهود كثيرون لا يعيشون فى المستعمرات وإنما فى المدن .. ثم هناك يهود لا يعيشون فى إسرائيل .

إن إسرائيل أرادت أن تقضى على « حارات اليهود » فى أوروبا .. فأقامت من جديد حارات أخرى لليهود فى إسرائيل . ففى إسرائيل تفرقات دينية وسياسية .. وتفرقات شديدة بين اليهودى الألمانى واليهودى الأسبانى — أى اليهودى الغربى واليهودى الشرقى ..وبين اليهودى الأمريكى واليهودى اليمنى .

إن المجتمع الإسرائيلى يغلى أو إناء يغلى : هم النار والإناء والماء والدخان والخوف والموت لهم على كل الحدود .



فعلا أغرب شعب فى العالم

وقف أحد النقاد يتفرج على معرض للوحات الحديثة فى مدينة برلين . نظر إلى اليمين فقال : هذه المجموعة من الفنانين لها أسلوب غريب .. ثم اتجه إلى اليسار وقال : وهؤلاء أغرب ، ونظر وراءه وقال : ولكن هؤلاء أعجب من الجميع ..

وخرج من المعرض يضحك بصوت مرتفع وهو يقول : وأنا أعجب من كل هؤلاء !

أما الذى أضحكه فهو أنه يهودى وكل أصحاب هذه اللوحات من اليهود أيضا !

بهذا المعنى يبدأ الكاتب اليهودى بارنيت لتفينوف دراسة طويلة مفيدة لليهود فى العالم كله . ماذا جرى لهم وما الذى فعلوه بالبلاد التى هاجروا إليها . كتابه عنوانه « شعب غريب - داخل العالم اليهودى اليوم » فهو يرى أن اليهودى فى أى مكان ، لا ينسى أنه يهودى . لا هو ينسى ولا أحد يجعله ينسى . ولكن الكثيرين جداً من اليهود لا يعرفون دينهم . رغم أنهم يهود ، بل إنهم ميالون إلى التخلى عن هذا الدين . فقد تعبوا من أنهم يهود .

ومن الممكن أن يقوم اليهودى بطهارة أولاده وهم صغار ، لأسباب صحية ، دون أن يربط هذا الإجراء بذلك العهد الذى تم بين الرب وبين إبراهيم عليه السلام ، منذ أربعة آلاف سنة - الفراعنة قد سبقوا إبراهيم إلى ذلك بأكثر من ألف سنة !

وعلى الرغم من أن اليهود يحرصون أو يضيقون بأنهم يهود ، فإن اليهود أنفسهم لم يتفقوا على من هو اليهودى .. أسهل تعريف لليهودى : أن كل من كانت أمه يهودية فهو يهودى . الأب لا يهم سواء كان يهودياً أو من أى دين آخر .. وفى إسرائيل خلافات كثيرة جداً حول ذلك . ولكن نفرض أن يهودية أنجبت طفلا غير شرعى هل هو يهودى ؟ نفرض أنها تزوجت يهودياً زواجاً مدنياً فهل هى وزوجها يهوديان ، وهل أولادهما يهود ؟ إن هذه المشكلة قد أدت إلى طرد طفلة من مدرسة إنجليزية فى الهند ، وأدت إلى طرد أحد الحاخامات من المعبد . فقد أثبت بعض الأحزاب أنه ليس يهودياً بدرجة كافية . وطردت سيدة يهودية من مجلس بلدية الناصرة لأنهم أثبتوا أنها يهودية إلا قليلا !

واستعان مجلس الوزراء الإسرائيلى بعدد كبير من رجال الدين والعلماء والفلاسفة،لكى يضعوا تعريفاً كاملاً عَمَّن هو اليهودى ، ووضعت التعريفات ، ولكن الأحزاب السياسية والدينية فى إسرائيل لم تتفق على رأى .

ولا تزال إسرائيل تعانى من التفرقة العنصرية اليهودية ، التى راح ضحيتها ملايين فى أيام هتلر !

ومن المعروف أن عدد اليهود فى العالم كله ثلاثة عشر مليوناً ومن الصعب أن تعرف ما هو لون اليهودى ، ومن الصعب أن تعرف ما هو دين هؤلاء أو ما هو مذهبهم الدينى ، أو من أى الأجناس قد انحدروا ، فهم ليسوا من جنس واحد . لاشك فى ذلك ، فهم زنوج تحولوا إلى الديانة اليهودية . وهناك يهود تحولوا إلى المسيحية فى الظاهر ويهود فى الباطن ، ومن بين اليهود الذين تحولوا إلى المسيحية مثلا :« المنسنيور أستر ايشر »وهو من الشخصيات الهامة فى سكرتارية الفاتيكان .

ومع بداية القرن التاسع عشر،ظهر نوع جديد من اليهود : اليهودى الصهيونى . والآن كم من اليهود صهاينة ، وكم من الصهاينة يهود ؟ . وهل إذا لم يكن اليهودى صهيونياً أى مطالباً بوطن لليهود ، فهل يعتبر يهودياً أو خارجاً عن اليهودية أو معادياً لها ؟

أكثر من ذلك : هل يستطيع يهودى واحد أن يذكر لنا شجرة أنسابه .. إن أكثر اليهود حظاً يستطيع أن يقتفى أثر أجداده إلى مائتى عام فقط . وتلك حالات نادرة،ولكن اليهود كمجموعة يمكن أن يقال إنهم أبناء إبراهيم عليه السلام ، وإنهم جاءوا من العصر البرونزى !

والتوراة ترجع باليهود إلى سنة ١٩٠٠ ق . م ، أى إلى أيام الإمبراطورية الرومانية ، وليس هذا مؤكداً من الناحية العلمية ، ولذلك يمكن أن يدخل هذا المعنى ضمن الخرافات الشعبية اليهودية ، فمن المؤكد أن إبراهيم قد هاجر من العراق إلى فلسطين ، وأنه فى طريقه استعار الكثير من القصص والخرافات الشعبية السائدة فى ذلك الوقت ، وكان ذلك العهد المعروف بينه وبين ربه ، وكان ذلك الوعد من الرب بأن يجعل أولاد إبراهيم يتكاثرون من الشعوب ..

واليهود قد تكاثروا لأنهم تزوجوا من شعوب أخرى ، ومن جيرانهم ، ثم إن حياتهم كانت فى التنقل والترحال لأنهم كانوا رعاة ، ولذلك أطلق عليهم اسم عابيرو ... وحابيروا ... وهابيرو ... وعابورا ... وأطلق عليهم اسم : العيرانيون والعبريون .. (فى الريف بمصر ما تزال كلمة عابورا تطلق على النعجة ، لعل لهذه الكلمة علاقة بالرعى أو الترحال . وفى كل اللغات كلمات من اللغات المجاورة أو اللغات الأقدم) ومن فلسطين اتجهوا إلى مصر . ومن مصر إلى سيناء إلى فلسطين ..

وكان اليهود يعتقدون أن قوتهم فى صفائهم – أى فى أنهم من سلالة واحدة وأنهم أسرة واحدة – ولكن عندما نزلوا إلى مصر واختلطوا بالمصريين .. وأقاموا فى مصر أكثر من مائتى سنة ، سقطت هذه الحجة . تماما كما تروى التوراة أن شمشون قد انهارت قوته عندما قصت له دليلة شعره ، فكذلك اليهود سقطت حجتهم عندما اختلطوا وامتزجوا وذابوا فى الشعوب الأخرى .

ثم جاء أنبياء اليهود وراحوا يؤكدون لهم أنهم باقون ، وأن الله خلقهم لكى يبقوا ضد طغيان الفرس والرومان . وهؤلاء الأنبياء هم الذين نفخوا فى اليهود وجعلوهم يؤمنون بأن رسالتهم لكل الشعوب .

وفى أيام الرومان هرب اليهود إلى روما يمشون فى مواكب القوة الجديدة ، وكذلك مع قوات الإغريق ، ثم تسللوا إلى كثير من الدول الأوروبية الأخرى ، وانعزلوا عن الناس .

ولما ظهرت المسيحية عاداها اليهود أول الأمر ، ولما قويت تسللوا إليها . وفى نفس الوقت كانوا يتمسكون بدينهم هم ، خوفا على « ناموس موسى » أى قانون موسى ووصاياه ، ثم اختلف اليهود مع المسحيين ، وتولدت الكراهية ، وجاء الرومان يعدمون المسيحيين واليهود معاً .. ففى سنة ١٣٢ ميلادية أصدر الرومان قانوناً يحرمون فيه الطهارة التى أحلتها الديانة اليهودية ، وكان من نتيجة ذلك إعدام مئات الألوف من اليهود . وتحول هيكل سليمان فى القدس إلى معبد للإله الرومانى جوبتر .

وفى مواجهة « العهد الجديد » فى الديانة المسيحية ألف اليهود « التلمود » ، وقد اشترك فى كتابة التلمود ألوف من رجال الدين ، وعرضوا فيه الديانة اليهودية وتاريخها وأحكامها مستعينين بالقصص والأمثال والنوادر والخرافات ، و « العهد الجديد » فيه إشارات إلى اليهودية ، وفى التلمود إشارات وهجوم عنيف على المسيحية .. ولكن الكتابين يرفض كل منهما الآخر تماماً . واليهود يرون أن من يقرأ « العهد الجديد » كافر ... والمسيحيون يرون أن « التلمود » دعوة إلى الكفر بالمسيحية .

ولا أحد يستطيع اليوم أن يحدثنا عن الشعب اليهودى فى أى مكان من العالم فى العصور الأولى للمسيحية .. ولا أحد يعرف كم عدده . وفى العهود الإسلامية نعرف الكثير عنهم . نعرف أنهم عاشوا فى أمان وازدهرت أفكارهم وبرزت أفكارهم وبرزت أدوارهم فى الحياة الاقتصادية والفكرية ، وعندما أقام الملك شارلمان إمبراطوريته المسيحية ، قامت جماعات يهودية تركية بين البحرين الأسود وقزوين لمدة قرنين ، وكان لهم نشاط واضح ، ثم برز اليهود فيما بين القرنين العاشر والثانى عشر فى الأندلس ، وظهر من بينهم الفيلسوف اليهودى موسى بن ميمون ، طبيب صلاح الدين .

ولما جاءت الحروب الصليبية ، وارتفع المد المسيحى عرف اليهود أشد أنواع الخوف ، وظهرت فى حياتهم « حارات اليهود » وكان على كل يهودى أن يضع علامة فى ملابسه ، تمييزاً له عن المسيحية ، ومع الأعمال العنيفة ، وحرب الثلاثين عاماً فى أوروبا ، انكمش اليهود واختفوا فى عزلتهم واحتقار الناس لهم . وأصبح على كل يهودى أن يعد نفسه للهرب فى أى وقت . ولذلك كان اليهود يحملون ثرواتهم على شكل ذهب أو على شكل سفن ، ليسهل الهرب ليلاً أو نهاراً ، وأدرك أبناء اليهود أنه لا حياة لهم إلا فى ظل ملك أو أمير ، ولذلك التف اليهود حول الأمراء والنبلاء فى أوروبا ، ولقى اليهود فى القرن الثامن عشر ، ما لقيته كل الأقليات الأخرى : البروتستانت فى بولندا ، والكاثوليك فى إنجلترا والسويد .

وأدى هذا الانزواء والخوف إلى تخلف اليهود ثقافياً ، ولم ينطلق اليهود فكرياً وأدبياً إلا عندما عاشوا مع الأغلبية واتصلوا بها وذابوا فيها — أى عندما أفلتوا تماماً من سجن التلمود والتوراة !

وبعض المذاهب اليهودية ترفض التطور ، ولذلك بقى كثير من اليهود الذين عاشوا فى أمريكا وفى روسيا متخلفين تماماً . ويهود آخرون تعبوا من أنهم يهود فانفتحوا على الشعوب التى أقاموا بينها ، وأدى ذلك إلى تطورهم ، ووضح جداً أن المسيحية انتشرت لأنها ديانة متفتحة ، والإسلام انتشر لأنه دين متفتح . وفى نفس الوقت ظهرت مذاهب يهودية تطلب من الشعب اليهودى أن يتماسك ويتمسك بدينه أكثر وأكثر ، وأن يحكم إغلاق الأبواب والنوافذ والحارات فى وجه الرياح الكافرة به !

وهذه الدعوات المحافظة تعيد إلى اليهود مناقشات كثيرة تستغرقهم وتفسد حياتهم : ومن هو اليهودى وما هو الزواج الشرعى ، وعند اليهود هذا شىء مهم جداً : تماماً كما يتساءل الناس هل فلان إنجليزى أو هل هو فرنسى ..

هذا الموقف الغريب من اليهود هو الذى جعل الشعوب الأخرى والديانات الأخرى تقف من اليهود موقفاً غريباً أو معادياً ، فاليهود هم الذين خلقوا العداء لهم فى كل مكان ، لأنهم الأقلية التى ترفض الأغلبية ، ولأنهم المضطهدون الذين يتعالون على الذين عذبوهم .

وقد ظن اليهود أن سبب كراهية الشعوب كلها لهم : أنهم هم الذين صلبوا المسيح .. وأن هذا هو السبب الوحيد لكراهيتهم . ونسى اليهود أن هناك أسباباً أخرى كثيرة !

ولولا ذلك لساهموا فى تطوير كثير من البلاد التى طردوا منها ..

لقد طردتهم إنجلترا سنة ١٢٩٠ .
وطردتهم فرنسا سنة ١٣٩٤ .
وطردتهم النمسا سنة ١٤٢٠ .
وأسبانيا طردتهم سنة ١٤٩٢ .
وألمانيا طردتهم سنة ١٥١٩ .
والإمبراطورة الروسية كاترين الأولى قد طردتهم سنة ١٧٢٧ .
وجاء هتلر بعد ذلك ..

وكان العناد وضيق الأفق هو الذى أتعس الشعب اليهودى ، فقد اختار اليهود الطاعة العمياء لكل ما جاء فى التلمود . فالتلمود هو الذى أغناهم ثم هو الذى أفناهم بعد ذلك ، وكان اليهود يرفضون أية محاولة لتحرير الفكر اليهودى ، واليهود اليوم ينظرون بكثير من الخجل إلى أنهم اتهموا موسى بن ميمون بالإلحاد ... وهو الذى ألف باللغة العربية كتاب « دلالة الحائرين » لإنقاذهم .. وهم الذين اتهموا فيلسوفهم الهولندى(أسبينوزا)بالكفر وطردوه من دينهم سنة ١٦٥٦ .

واليهود ينظرون إلى أوروبا ويجدون أن تخلفهم الشديد هو الذى لم يجعل لهم رساماً واحداً ممتازاً ولا موسيقياً ولا عالماً ولا فيلسوفاً يقف إلى جانب عمالقة الفكر والفن الأوروبى . وبينما كانت أوروبا تباهى العالم بعلمائها الكبار كان اليهود يتحدثون عن سليمان وداود ويوشع وابن كوكب والمكابين (الشواكيش) وخرافات أخرى كثيرة فى دينهم .

إلى جانب ذلك فاليهود نوعان : غربيون أشكنازيم .. وشرقيون : سفرديم .. أو أشكنازيم : ألمان .. وسفرديم : أسبان .. ولا تزال هذه التفرقة سائدة فى

العالم كله ، وفى إسرائيل حتى اليوم . فلكل فئة معابدها . ومن المؤكد أن الغربيين هم أبناء أوروبا الوسطى والشرقية : البيض .. والشرقيين هم أبناء البحر الأبيض وبقية الدول الملونة . ومن الغريب أن أصحاب الملايين اليهود فى إنجلترا شرقيون ، ويسخر منهم الغربيون ويقولون عنهم : هؤلاء « السادة » العظام !

واليهود الشرقيون هم ربع الشعب اليهودى فى العالم ، وفى إسرائيل : الحكومات كلها غربية وأصحاب الامتيازات جميعاً من الألمان والروس والبولنديين والأمريكان ..

وعلى الرغم من أن اليهود يعرفون أن الممتازين منهم أصلهم يهودى ولكنهم مسيحيون ، فإن هذا لا يدفعهم إلى الذوبان فى الشعوب الأخرى ، مثلا : الفيلسوف (كارل ماركس) والشاعر (جيته) والموسيقار (مندلسون) و(دزرائيلى) رئيس وزراء بريطانيا — تحولوا إلى المسيحية !

وقد كان عدد اليهود فى أمريكا سنة ١٨٤٠ حوالى خمسة آلاف . إنهم الآن ستة ملايين !





حتى لا ينسى اليهود ما حدث قبل هذا

أخطر الأحداث في تاريخ اليهود ،يوم انهدم الهيكل أو المعبد فى القدس ، وتناثرت أحجاره ، وأحرقت أخشابه ونهبت القوات البابلية كل ما فيه من ذهب . بعد هذا الحادث تشتت اليهود في الشرق الأوسط كله .. وأخذت القوات البابلية ألوف اليهود أسرى ورقيقاً يباع فى الأسواق .

ثم انهدم المعبد بعد ذلك بخمسة قرون أى سنة ٧٠ ميلادية فى عهد الرومان . ونقلت القوات الرومانية أسرى اليهود إلى روما وسحبتهم فى الشوارع .. وتفرق اليهود فى كل أرض . وسمت كل الدنيا بالنسبة لهم « أرض الشتات » أو « الشتات » ..

وهذا هو عنوان الكتاب الذى أصدره فرتز كيلر : « الشتات – تاريخ اليهود بعد التوراة » . والمؤلف يستعرض التاريخ اليهودى ، ويتوقف عند الأحداث التى حولت تيارهم وجمعتهم فى أماكن بعيدة ، وتركتهم عاكفين على قراءة التلمود وعدم الاجتهاد أو التجديد في تفسيره ، وظل اليهود هكذا أسرى هذا الكتاب المليء بالأحقاد على كل الشعوب ، وبكثير من الخرافات أيضاً .

ويختار المؤلف أحداثاً كثيرة ذات دلالات عميقة وبعيدة .. مثلاً ما حدث فى دمشق سنة ١٨٤٠ . حتى ذلك الوقت كانت فى دمشق أربعمائة أسرة يهودية وكلهم من اليهود الشرقيين وهم جميعاً يعملون فى التجارة وبعض الحرف .. ولا أحد يسمح بهم أو يدرى عنهم شيئاً .

وفجأة فى يوم ٦ فبراير سنة ١٨٤٠ اختفى أحد الرهبان الكاثوليك . غاب ولم يعرف عنه أحد شيئاً واختفى خادمه أيضاً . الراهب الإيطالى اسمه الأب توما .

وأعلن الرهبان الكاثوليك أن اليهود قد ذبحوا أخاهم الأب توما ، وشربوا دمه . أو صنعوا من هذا الدم خبزا يأكلونه فى أحد الأعياد كما هى عادتهم .. ولكن لسوء حظ الأب توما وخادمه أن وقع الاختيار عليهما هذه المرة . وقد عثر الرهبان على جثة الأب توما وقد قطعت بطريقة خاصة . وكل شىء يدل فى الجثة على أنها ليست قتلاً ، وإنما هى محاولة غريبة غير مفهومة لإخراج الدم من جسمه بطريقة غير مألوفة .

وكان شريف باشا حاكما على دمشق فقام بتفتيش حارات اليهود ، وألقى القبض على سبعة منهم : داود هرارى وموسى أبو لا فيه وموسى سالونيكى ويوسف لانيادو وابن داود هرارى واثنان آخران من اليهود الذين جاءوا إلى دمشق أخيراً . واعترف حلاق حارة اليهود بما حدث ، وأقر بأن كل الذى جرى إنما هو يتمشى مع ما جاء فى التلمود بضرورة أن تكون فطيرة أحد الأعياد قد عجنت بدم واحد مسيحى أو مسلم .

واعترف الحلاق بأنه هو الذى ذبح الراهب ، واعترف واحد آخر بأنه هو الذى ذبح الخادم ، وطلب إليه شريف باشا أن يشرح للمسلمين والمسيحيين فى دمشق كيف تمت عملية استخلاص الدم من جسد الراهب وخادمه ، وقام الحلاق اليهودى وشرح لهم ذلك ..

وبعدها بيوم عثر اليونانيون فى جزيرة رودس على واحد منهم مشنوقاً ويظهر أن الوقت كان فى غير صالح اليهود ، فقد كان من المفروض أن يكتفوا بما حدث فى دمشق ، ولكن لم يبلغ يهود رودس أن واحداً قد اغتيل فى دمشق .. ولو عرفوا لا كتفوا بهذه الكمية الكبيرة من الدم .

وكان ذلك سبباً معقولاً لأن يهاجم الناس اليهود فى حاراتهم وفى معابدهم، وأن يحرقوا البيت،وأن يهدموا المعابد فى دمشق وبيروت وفى أزمير بتركيا . أما فى روما فقد أقيمت الصلوات على روح الأخ توما ، واحتج اليهود فى بلاد أوروبية كثيرة على ما أصاب شعبهم فاتصل المحامى اليهودى أدولف كريميه (اسمه السابق)

إسحق موسى) برئيس الوزارة الفرنسية فى ذلك الوقت،وطلب إليه أن يحتج لدى السلطات العثمانية ، وثار اليهود فى لندن ، واحتج وزير خارجية النمسا مترنيخ . وكذلك تظاهر اليهود فى أمريكا .

وتزعم اليهودى الإنجليزى المشهور موسى مونتفيورى وفداً من اليهود الفرنسيين والإنجليز وسافروا جميعاً إلى القاهرة . وفى القاهرة قابل مونتفيورى محمد على باشا والى مصر وسوريا يوم ٤ أغسطس سنة ١٨٤٠،ولحق به المحامى الفرنسى كريميه والمستشرق المعروف سلومون مونك . وأصدر محمد على قراراً بإطلاق سراح اليهود المعتقلين فى دمشق . وفى يوم ٦ ديسمبر أفرج عنهم شريف باشا .

واحتج اليهود على اعتقال عدد آخر فى تركيا ، وقابل اليهود السلطان عبد الحميد الأول ،فأفرج السلطان عن اليهود المعتقلين فى جزيرة رودس ، وأصدر السلطان عفواً عن يهود دمشق وحاول اليهود أن يجعلوا قرار العفو قراراً بالبراءة ، ولكن السلطان لم يفعل ذلك . ثم صدر بعد ذلك قرار ببراءتهم يوم ٦ نوفمبر سنة ١٨٤٠ . وأصدر السلطان فرماناً بحرية اليهود فى العبادة .

وعاد الوفد اليهودى من الشرق لتحتفى به كل الهيئات الدينية فى أوروبا،وكان هذا الحادث بداية تماسك أوروبى يهودى . وبدأ اليهود الأوروبيون يتجهون إلى اليهود الشرقيين ويحرصون على حياتهم وعلى مستقبلهم . وعلى الرغم من أن حادثة شرب دم المسيحيين أو المسلمين هذه لم تختف من ذاكرة الأديان الأخرى ، وعلى الرغم من أن اليهود يحاولون التنصل منها بحذفها من كتبهم ، فإن هذا الحادث كان له أثره الأكبر فى التقارب بين اليهود وكراهية المسيحيين والمسلمين للوحشية اليهودية .

حادث آخر : تطوعت فتاة كاثوليكية بالحضانة لطفل يهودى مريض . الطفل اسمه إدجار مورتارا ..

وفى يونيو ١٨٥٨ أخذت الطفل وعمدته ليكون مسيحياً ، وكان الطفل فى السادسة من عمره . وأخفت الطفل لأنها أرادت أن تجعله مسيحياً . وعلم أبواه ، ولم يفلح الاثنان فى استرداد الطفل ..

وثارت الصحف الأوروبية بتحريض من اليهود على هذا الذى حدث ، وتقدم حاخامات اليهود للبابا بيو التاسع . وقامت مظاهرات فى لندن وحاول نابليون الثالث وكذلك الإمبراطور فرنتس يوسف أن يتوسطا عند البابا؛ولكن هذه الوساطة والاحتجاجات وثورة الصحف،لم تثن البابا عن موقفه،وفى فبراير ١٨٥٩ ذهب وفد يهودى على أعلى المستويات لمقابلة البابا ، استمع إليهم طويلاً ثم قال لهم أنتم الذين أثرتم الدنيا ضد الفاتيكان على هذه الحادثة ، استمروا .. وافعلوا ما شئتم .

ثم استدار وتركهم .. وذهب للقائه السير موسى مونتفيورى ، وأطال البابا الاستماع إليه،ورد عليه باللاتينية قائلا : نون برسوم – أى لا أستطيع !

وبعد ذلك أصبح إدجار هذا قسيساً وأصبح من كبار المبشرين بالمسيحية !

وعلى أثر هذا كله تألف « الاتحاد الإسرائيلى العالمى » فى باريس فى سنة ١٨٦٠ . وأصبح المحامى كريميه رئيساً لوزراء فرنسا مرتين ، ورئيساً لهذا الاتحاد أيضاً فى سنة ١٨٧٠ . وكان هدف الاتحاد إنقاذ اليهود من البلاد التى يعانون فيها الهوان والاحتقار ، كما أن الاتحاد هذا قد أنشأ المدارس فى أوروبا . وأنشىء « الاتحاد الإنجليزى اليهودى » سنة ١٨٧١ « والتحالف الإسرائيلى » فى النمسا سنة ١٨٧٣ و « العون اليهودى الألمانى » سنة ١٩٠١ .

وبدأت هذه الاتحادات تنشىء المدارس للبنين والبنات والمدارس الداخلية والورش ، وكان الحاخامات يعترضون على هذا التجديد الذى لم يرد عنه نص فى التوراة أو التلمود . وبدأت الدعاية الشاملة من يهود الغرب ليهود الشرق ..

ومن الحوادث الهامة أيضاً أنه فى سبتمبر سنة ١٦٥٤،حملت سفينة هولندية عدداً من اليهود المهاجرين من البرازيل إلى أمريكا .. إلى ميناء أمستردام الجديد ، الذى اسماه الإنجليز يورك الجديدة أو نيويورك . وكان هؤلاء اليهود قد قرروا الحياة فى الدنيا الجديدة . ووقفت هذه السفينة خارج الميناء ، وكان المحيط هائجاً ، وبدأ اليهود ينزلون فى قوارب صغيرة ، وقد حملوا معهم كل ثرواتهم فى أشكال غريبة . وكانت التعاسة على وجوههم .

وعندما سيطر الإنجليز على هذه الأرض الجديدة،عاملوا اليهود معاملة طيبة ، ورأوا أن أمريكا هي أيضاً كل سكانها من المهاجرين .. وأنها أرض الشتات .. أو المنفى العالمى .. فاليهود قد طردوا من مصر . ورأى الإنجليز أن بنى إسرائيل لهم حق الحياة كغيرهم من الشعوب الأخرى . وعندما أنشئت جامعة هارفارد سنة ١٦٣٦ كانت اللغة العبرية لغة أساسية مثل اللاتينية واليونانية ، بل إن بعض اليهود تقدم بمشروع أن تكون اللغة العبرية هى لغة الولاية التى تجمع فيها اليهود ، وبعض اليهود طالب بضرورة تطبيق قانون موسى على اليهود وغيرهم تصور أن هؤلاء المهاجرين اليهود لم يمض عليهم سوى سنوات قليلة !

وكانت أول مستعمرة يهودية قد أنشئت سنة ١٦٢١ . وبدأ اليهود يتسللون إلى الولايات الأخرى ..حتى كانوا يسيطرون على القارة فى أكثر من ثلاث عشرة ولاية أمريكية .

أما تجارة اليهود فى ذلك الوقت فهى : الدخان والسجائر والغلال،وأهم من ذلك كانوا يعملون فى تجارة الرقيق من أفريقيا إلى أمريكا ، فقد كانت حاجة أمريكا إلى الأيدى العاملة ملحة فالأرض واسعة والناس قليلون واليهود لا يعملون فى الأرض أو فى الزراعة . واليهود أدخلوا صناعة الشموع وصناعة الشمع عموما إلى أمريكا .

ولما اشتعلت حرب التحرير وقف اليهود على جانبى القتال ، مع هذا الفريق ومع الفريق الآخر ، يبيعون هنا وهناك ويكسبون فى الحالتين .. وكان من المناظر المألوفة أن تجد اليهودى راكباً حصانه يبيع السجائر والشاى والسكر بين القوات المتحاربة فإذا أمسكه أحد الفريقين قال : أنا يهودى غلبان أبيع لمن يشترى !

وكان أغلبية اليهود فى أمريكا فى القرن السابع عشر من أسبانيا والبرتغال،ولكن بعد سنة ١٧٠٠ أخذ اليهود الغربيون يتكاثرون على أمريكا ، كلهم من ألمانيا ووسط أوروبا . وفى سنة ١٨٢٠ كان فى أمريكا كلها عشرة آلاف يهودى . وفى سنة ١٨٨٠ كان عدد اليهود فى أمريكا ربع مليون . الآن فى أمريكا وحدها ستة ملايين نصفهم فى نيويورك وحدها .

ولم يتوقف اليهود عن محاولة شراء أرض لتكون لهم دولة أو ولاية مستقلة تماماً عن كل الولايات ، لا يسكنها إلا اليهود ولا يصلى بها إلا اليهود . وفى سنة ١٨٢٥ جاء صحفى يهودى اسمه موردخاى نوح واشترى جزيرة فى نهر نياجرا .

وأطلق على هذه الجزيرة اسم أرارات لتكون مستعمرة يهودية مائة فى المائة . وأرارات هو اسم الجبل الذى يقال إن سفينة نوح قد رست عليه عندما انحسر الطوفان ، وهذا الجبل يقع الآن على حدود أرمينيا وتركيا ، ولكن هذا المشروع لم ينجح . فقد خاف اليهود أن يعيشوا وحدهم وأدركوا أن الحياة وحدهم لا تعود عليهم بالمكسب أو الانتشار لأنه لا بد من الأغلبية التى تشترى منهم أو التى تقترض منهم .

واتجه اليهود بعد ذلك إلى جزيرة مانهاتن التى تقام عليها نيويورك .. وبعد ذلك اتجهوا إلى غرب أمريكا جرياً وراء مناجم الذهب فى كاليفورنيا .

وفى سنة ١٨٧١ توقفت الهجرة من ألمانيا إلى أمريكا ، فقد صدرت هناك قوانين تساوى بين اليهود وغيرهم . وبعد ذلك فى سنة ١٨٨١ جاءت السفن تحمل اليهود من روسيا وبولندا ، هرباً من التعذيب والإعدام لهم فى كل مكان .

ومن الغريب أن هؤلاء اليهود الذين هاجروا إلى أمريكا ذات الثراء الهائل وحيث ينعمون بالمساواة والحرية المطلقة فى البيع والشراء ، فإن بعض اليهود لا يطيق أن ينتشر بين الناس وإنما يريد أن يكون فى مجتمع يهودى خالص .. وأن تكون له دولة فى داخل هذه البلاد .. ولم يكن اليهود فى حاجة إلى حماية من أحد . فلا خوف عليهم من أمريكا ، ولكنهم لا يطيقون الديانات الأخرى ، والشعوب الأخرى مهما كسبوا من هذه الشعوب .. فهم يؤمنون بأنهم أفضل – ولا يزال هذا رأى الكثيرين من اليهود حتى بعد أن كانت لهم إسرائيل ، فهم يريدونها يهودية مائة فى المائة !

ونيويورك هى المدينة التى يسيطر عليها اليهود . وفى نيويورك صحف عبرية ومجلات بلغة اليديش – أى اللغة الخليط من العبرية والآرامية والألمانية – تلى مدينة نيويورك مدينة شيكاغو ففيها أكبر تجمع يهودى فى العالم ..

وعندما طرد اليهود من أسبانيا سنة ١٤٩٢ - السنة التى اكتشف فيها كولمبوس أمريكا - هاجر اليهود إلى أمريكا وظلوا وراء القوة التى طردت الأسبان من أمريكا !

وفى ٣١ يناير سنة ١٩٣٣ أصبح هتلر مستشاراً لألمانيا . واتجه إلى الشباب يشعل فيه نار العداء لكل من ليس جرمانياً آرياً . اليهود ليسوا آريين . فأصدر هتلر قراراً بمقاطعة اليهود فى أول أبريل سنة ١٩٣٣ باعتبارهم لصوصاً وجواسيس على ألمانيا . وأحط درجة من الجنس الجرمانى . ويوم ٧ أبريل صدر قرار يقضى بفصل كل من ليس آرياً من عمله - أياً كان هذا العمل - فخرج أساتذة ومهندسون وأطباء وغيرهم بمئات الألوف .

وفى ١٥ سبتمبر سنة ١٩٣٥ صدر القانون الذى يقضى بضرورة الاحتفاظ بنقاء الدم الآرى . وكانت هذه القرارات قد صدرت فى مدينة نورمبرج التى اشتهرت بعدائها لليهود . ولذلك عندما انهزمت ألمانيا أقيمت محاكم النازيين فى نفس المدينة !

وأصبح اليهود مواطنين من الدرجة الثانية . أو ليس من المرغوب أن يكونوا مواطنين فهاجروا من ألمانيا إلى أمريكا وحوالى خمسون ألفا ذهبوا إلى فلسطين سنة ١٩٣٧ .

وفى إيطاليا صدرت قرارات تؤيد هتلر . وخرج اليهود من إيطاليا أيضاً .

وتحمس طفل يهودى وثار على هذا الإرهاب والتعذيب،فأطلق الرصاص على السفير الألمانى فى فرنسا فأصابه . واشتدت الحملات الألمانية على اليهود .. وكان على كل يهودى أن يضع علامة صفراء فى ملابسه وأن يضع نجمة داود . وكان من المناظر الواضحة فى ألمانيا سنة١٩٤١أن تجد أناساً قد أحنوا رؤوسهم ويمشون إلى جوار الحائط . إنهم اليهود الألمان . .

وفى مارس ١٩٤١ صدر قرار بالقضاء البيولوجى على اليهود ، وكان هذا القرار له اسم آخر هو « الحل الأخير » .. وانتقل اليهود إلى غرف الغاز بمئات الألوف - ولكنهم يقولون بالملايين .

وتوالت الأحداث الحاسمة فى التاريخ اليهودى : قامت دولة إسرائيل وانهزم العرب سنة ١٩٦٧ - وظهرت ألوف الكتب تتحدث عن مجد إسرائيل وعبقرية كل من يمسك حجراً في الأرض المقدسة ويلقى به عربياً مسلحاً أو غير مسلح .

ثم كان يوم ٦ أكتوبر .. ولم تجف دموع اليهود بسبب هذا اليوم .. ولن تجف دموعهم إلا لكى تسيل دماؤهم من جديد - آمين !





تغيير النظرة لا تغيير العين نعم

من أشياء عادية ، تولد كل الأشياء غير العادية .. من يضربك بالكرة على رأسك ، فهى فرصة لكى يكون صديقك فى الدين ..

الرياضة حفلة علنية لتعيش مع الناس ، فإذا عدت إلى البيت فأنت يهودى ، أو يجب ألا تنسى ذلك !

مع المسيحيين العب واعمل واكسب ، ولكن مع أبناء دينك اجلس وفكر على مهلك ولا تنسى ما فعله آباؤك وأجدادك من قبل .

هذه العبارات تجىء مثل لافتات مضيئة على جدران ملعب لكرة القدم فى إحدى الولايات الأمريكية . اللاعبون يهود ومؤلف هذه الرواية يهودى اسمه « حاييم يوتوك » وقد بيع من روايته هذه أكثر من مليون نسخة . اسم الرواية « الشعب المختار » والرواية بصورة غير تقليدية . فإحدى المدارس تلعب كرة القدم مع مدرسة أخرى . المدربون كلهم من الأمريكان . واللاعبون والجمهور أمريكان أيضاً . ولكن من طراز مختلف . إنهم يهود ملامحهم تدل على ذلك . بل إن من بينهم عدداً من اللاعبين قد تدلت خصلات من الشعر على جانبى الوجه . تماماً كما يفعل المتعصبون اليهود . ثم إنهم يضعون الطاقية السوداء على الرأس أثناء اللعب . ويعلقون محفظة من الجلد . هذه المحفظة بها قطع من الورق مكتوب عليها الوصايا العشر . وملابسهم لها كرمشة غريبة عند أطرافها . وقبل بداية اللعب بلحظات وقف كل واحد منهم يقرأ فى سره بعض المزامير ..

ولكن لماذا يهتم هؤلاء الأطفال والشبان بالرياضة . إنهم لا يعرفون بالضبط . لأن الرياضة قد اختارتها لهم المدرسة أو الحاخامات فى المدرسة ، ولكن لماذا كرة القدم بالذات ؟ لأن جمهورها أكبر ، ولأن الذى يتفوق فيها يكسب الملايين من الناس ومن الدولارات ويرتفع بنو دينه .

يقول المؤلف إن المهاجرين اليهود يحرصون على كرة القدم،لأنهم يريدون أن يذوبوا فى الدنيا الجديدة . وفى الشعب الجديد . وأن يرتدوا ملابسهم . ويستخدموا عباراتهم وعاداتهم أى أنهم يريدون أن يحتموا فى الأغلبية . إن المجتمع الأمريكى لا يخيف اليهود . ولكن اليهود يريدون أن يخفوا خوفهم وفزعهم .. إحساسهم بأنهم يهود .. إنهم أناس من نوع آخر ، أو من نوع خاص !

وشيء آخر – يقول المؤلف – هو الذى يجعل اليهود يهربون من شعورهم بالأقلية : إنهم لا يريدون أن يفشلوا . فالإنسان عندما يشعر بأنه أقلية .. بأنه وحده .. بأنه غريب .. بأنه مطرود منبوذ ، هذه الإحساسات كلها تعطيه عذراً قوياً لكى يفشل . فإذا فشل قال لنفسه : ألست وحدى ؟ أليس الناس لا يريدوننى ؟ كيف أنجح دون مساعدة من أحد .. ولذلك يهرب اليهود من هذا الشعور بأنهم بعيدون مبعدون . فالنجاح هو سلاح الأقلية . إما أن تنجح أو تموت .

وفى أمريكا لابد أن ينجح أى إنسان وهناك كتالوجات للنجاح والفشل . ولا يوجد عمل من الأعمال فى أمريكا ليست له مواصفات النجاح والفشل . وإذا كان الأمريكى المسيحى لابد أن ينجح فإن الأمريكى اليهودى لابد أن ينجح جداً !

وأول ما يفعله اليهودى المهاجر إلى أمريكا هو تغيير اسمه .. فإذا كان بولندياً جعله إنجليزياً . وإذا كان عبرياً جعله أمريكياً .. وبعد ذلك يغير من عاداته فى الأكل والشرب واللعب والتجارة .. ثم يذوب بين الناس اسماً وجسماً . وقد يذهب إلى الزواج من أمريكية يهودية .. أو من أمريكية مسيحية ..

ويحدث أيضا أن يجد اليهودى الأمريكى نفسه أمام خطر يومى وخوف مستمر ، ولذلك فهو يؤكد نفسه ووجوده بصورة عنيفة،ولذلك ارتكب اليهود فى أمريكا جرائم كثيرة . هذه الجرائم لها عدة معان : أولا أن المجرم يحاول أن يقول أنا هنا ولا يهمنى أحد .. وثانياً يحاول أن يعتدى على الأغلبية .. أو ينتقم منها .. لا لأن الأغلبية الأمريكية فعلت به شيئاً ، ولكن لأن الأغلبية الأوروبية هى التى عذبته وطردته .. فهو ضد الأغلبية وخائف منها فى كل مكان وفى كل وقت ..

وقد تعلم اليهودى الأمريكى أن الشعب الأمريكى لا يحترم إلا الصوت العالى .. إلا الدوى والانفجار والفضيحة . واتجه اليهود إلى امتلاك كل وسائل الإعلام : الإذاعة والتليفزيون والصحف والسينما والمسارح ..

وعندما ينسحب اليهود الصغار والكبار من الحياة العامة ، فهم يهود . التلمود فى أيديهم . والتلمود ممل . وفيه تكرار . وفيه عذاب وتعذيب . ويتساءل الصغار : كيف نبحث عن الراحة فى كتاب ملىء بالعذاب . من أين يأتى الأمان فى كتاب كل قصصه ونوادره عن أناس لم يجدوا الأمان من أحد أو مع أحد ؟

يرى المؤلف أن هذه تساؤلات ضرورية . ومن واجب الآباء أن يجدوا لها شرحاً مقنعاً .

وفى هذه الرواية نجد أحد الآباء مهموماً بابنه الصغير . ولكنه فى نفس الوقت مفتون به . ينصحه بألا يختلف مع أبناء دينه لأسباب تافهة . وإن كانت هذه الأسباب التافهة هى الأم الحقيقية لكل الأمور الهامة فى هذه الدنيا .. فهذا الشاب الذى ضربه أثناء اللعب ، ليس هزيلا كما تصوره ، إنه ثمرة على شجرة دينية عريقة . وأنه من الواجب أن يكون صديقه حتى الموت . وأن هذه الإصابة أثناء اللعب ليست إلا إشارة إلى ضرورة أن يكون شقيقه الروحى .. فاليهود جميعاً إخوة فى العذاب .

ويطلب إلى ابنه أن يعد له قدحا من الشاى وأن يجلس إليه ليروى له قصة العذاب والهوان فى بولندا — وكلهم من البولنديين المهاجرين .. يقول له إن بولندا فى القرن الثالث عشر كانت تشجع اليهود على الحياة فيها . بينما كانت

أوروبا كلها تطرد اليهود وتصادر أملاكهم وتجردهم من ملابسهم أثناء الليل ، وتستبقي أطفالهم وتوزعهم على بيوت الأغنياء . ولكن لماذا كانت بولندا حريصة على اليهود ؟ كانت بولندا مفلسة . وكانت الأرستقراطية تتضور جوعاً . وتعيش على ما تمتصه من الفقراء والفلاحين وهذه الأرستقراطية كانت فى حاجة إلى من يجمع لها المال ويدير لها الأعمال . فاستدعت اليهود بالألوف أول الأمر .. وجاءوا بمئات الألوف بعد ذلك .. وقاموا بتحصيل الضرائب . وأحس اليهود أن بولندا هى جنة اليهود وأنها أرض الميعاد . وأن يهود العالم كلهم يجب أن يفدوا إليها . وأن يعيشوا بها حتى يوم القيامة . وانتشر شعار يقول : بولندا حتى الموت !

ويلتفت الأب لابنه ويتساءل . فما الذى كسبه اليهود بعد ذلك لا شيء سوى كراهية الشعب البولندى صحيح أنهم أفلحوا فى إقامة جمعيات دينية .. وجمعيات أخرى لدراسة التلمود . وساهموا فى بناء الجامعات والمعاهد العليا .. ولكن الشعب نفسه كان يكره الأيدى التى تمتد إلى جيبه تسرق أمواله وتعطيها للنبلاء ..

وهذه الكراهية تجمعت حتى أصبحت إعصاراً عنيفاً أطاح بمئات الألوف من اليهود فقد كانت هناك جماعة من القوزاق الأرثوذكس على حدود أوكرانيا .. هذه الجماعة اضطهدها النبلاء الكاثوليك . ففرضوا عليها ضرائب ثقيلة وأقفلوا أبواب الكنائس وأعطوا مفاتيحها لليهود . فلا يدخل واحد من الأرثوذكس كنيسة لفرح أو لمأتم إلا إذا دفع الإتاوة لليهود ، لكى يسلموها للسادة الكاثوليك ..

وفى سنة ١٦٤٨ جاء رجل من القوزاق اسمه شملينكي وثار على بولندا . وظلت هذه الثورة مشتعلة أكثر من عشر سنوات . كان وقودها كل الجمعيات والهيئات والجاليات اليهودية .. فمات مئات الألوف ..! وتبعثرت الأغنام فى كل أرض .. وأحس اليهود أنهم ألوف الكرات تضربها أقدام شيطانية لا ترحم ! ..

ويطلب الأب من ابنه أن يعد له كوباً من الشاى لأن ريقه قد جف .. ويسأل ابنه إن كان قد تململ من هذا الكلام غير الرياضى . ويقول الابن : يا أبى أريد أن أسمع المزيد .

ويباركه الأب ، ويدعو له ، ويكمل الأب حديثه قائلا : فما الذى يقوله اليهود فى صلواتهم ؟ هل يشكرون الله على ما أصابهم ؟ لا يشكرونه طبعاً ولكن فى نفس الوقت لا ينكرون وجوده . ويحاول رجال الدين أن ينقذوا الشعب اليهودى من اليأس ، ويؤكدون لهم أن هذه محنة سوف تزول . ويذهب الناس إلى المعابد ليسمعوا أن المسيح المنتظر سوف يظهر ، وأن من علامات ظهوره أن تقع بالشعب اليهودى كارثة دامية . وهذه هى الكارثة . إذن لابد أن يظهر المسيح . ويتطلع اليهود إلى المعجزة .. وينادون بها . ويتواصون إذا هى ظهرت ..

وفى هذه الأثناء ظهر رجل يهودى يقول إنه المسيح المنتظر : اسمه شباتاى زفى وتبعه نصف يهود العالم . وراحوا يصلون له ومعه ووراءه ويبكون ويقيمون حفلات الندم على كل ما كان والأمل فى كل ما سيكون . وبعد سنوات اكتشف اليهود أن هذا الرجل نصاب . وإذا كانت مذبحة بولندا كارثة بشرية ، فإن هذا النصاب كارثة روحية .

يقول الأب : والذى حدث فى ذلك الوقت تكرر كثيراً بعد ذلك وبأشكال مختلفة وفى أماكن متعددة وازداد عذاب اليهود . وشعورهم بالهوان – أى شعورهم بأنهم مغفلون وأنه يمكن الاستخفاف بهم وإسالة دموعهم على أنفسهم فى أى وقت وبأية كمية !

ويشير الأب إلى أنه حدث فى القرن الثامن عشر أن غرق اليهود فى مناقشات غريبة عجيبة عقيمة . فقد أحس اليهود أن الدنيا امتلأت بالعفاريت والشياطين . وأن هذه الكائنات العجيبة قد تسلطت عليهم تعذبهم . وتطردهم من النوم إلى اليقظة وتشردهم من اليقظة إلى الأرق إلى الجنون . وظهر بين اليهود أناس يعلنون أنهم قادرون على طرد هذه الشياطين وتسخيرها مستخدمين « الكلمة » . وأطلقوا

على أنفسهم سادة الكلمة « بعل شم » .. وظهر السحر الأسود،وظهرت حفلات الموسيقى المدوية .. وظهرت الشموع .. واتجه اليهود إلى العالم الآخر هرباً من هذا العالم ويأساً منه .. وبعبارة واحدة يمكن أن يقال إن الشعب اليهودى قد أنحدر تماماً فى القرن الثامن عشر .

وفى نفس الوقت الذى ينحدر فيه الشعب اليهودى .. وتظهر فيه الخرافات .. ظهر فى سنة ١٧٠٠ رجل اسمه إسرائيل . هذا الرجل لم يدرس فى مدرسة . لم يقرأ كتاباً . وإنما اتجه إلى الغابات والحقول والأشجار والأزهار، ورأى فيها المعبد الحقيقى،ورأى فيها الصحة والجمال وبدأ يسخر من الدين اليهودى ، وأعلن أنه هو الرجل « المؤمن » وأن هكذا يكون الإيمان ، ويكون الخلاص لا بالكتاب ولا بالمعبد ، ولا بالتوراة ولا بالتلمود .. ولكن بالنظر إلى الناس والأشياء .. وتبعه أناس كثيرون .. وهم جميعاً يقرأون فى كتب « القبالة » – أى الكتب الصوفية اليهودية القديمة .. وتزوج هذا الرجل سراً ومات سراً .

هذا الرجل هو الذى دعا إلى مذهب « الحاسدية » ومن أتباع هذا المذهب ذلك الشاب الذى أمسك كرة القدم وأصاب زميلا له فى رأسه .. ففتح رأسه .. وفتح هذه المناقشات الضرورية لكل يهودى حتى لا ينسى من هو أبوه وما هى كارثة أجداده فى أوروبا . ولماذا كل يهودى أمريكى هو أهم من أى يهودى فى أى مكان آخر .. وأنه لولا يهود أمريكا ما كان اليهود فى أى مكان فى العالم ، ولا كانت إسرائيل !

ويقول لابنه : هل تذكر ما حدث فى سنة ١٩٤٢ .. لقد وقف إيدن يوم ١٧ ديسمبر وأعلن للعالم كله خطة هتلر فى القضاء على اليهود . فهل حرك إيدن أكثر من شفتيه وحاجبيه ؟ لم يفعل أكثر من ذلك . حتى أمريكا أقفلت بابها فى وجه اليهود . وأحرق هتلر الملايين . وما الذى أريد أن أقوله لك وأنت تلعب ؟

قال له فى هذه الرواية من أولها لآخرها : إذا لم يظهر لليهود مسيح ، يجب أن يعمل اليهود على أن يظهر . على أن يظهروه .. وإذا انتظر اليهود طويلاً ، فلن يدركهم . إذن لابد أن يظهر المسيح أو أكثر فى أمريكا . فيهود أمريكا هم المسيح لكل يهود العالم ..

ولا يكفى لإنقاذ اليهود من العالم كله أن يلتفت اليهود الأمريكان إلى غيرهم من اليهود .. اللفتة وحدها لا تكفى .. النظرة الفاحصة لا تكفى ولا تشبع ولا تنقذ .. ولكن يجب أن يغير يهود أمريكا عيونهم . وأن تكون عيونهم مصنوعة من نسيج تاريخهم وكتبهم المقدسة .. فالدين وحده هو الذى سوف ينقذ اليهود وأنقذهم ، وأكبر خطر على اليهود ، أن الجيل الجديد لا دين له أو يهدد بذلك !





وقفة موضوعية مع العدو

أحد مزامير التوراة يقول : طوفوا بصهيون ودوروا حولها .. عددوا أبراجها .. ضعوا قلوبكم على متاريسها .. تأملوا قصورها .. وتحدثوا عن أمجادها لأجيال أخرى بعدكم .. والله يهدينا إلى الأبد .. !

ومزمور آخر يقول : ليس لي جناح كالحمامة فأطير وأستريح .. وأبعد هارباً وأبيت آمناً فى الصحراء ..

وفى كتاب التلمود : سأل أحد اليهود رجلا من كبار رجال الدين : ما هى الراحة يا أيها المعلم ؟ فأجابه : أن يهدأ كل شيء حولى وتحتى وفوقى وفى نفسى .. وألا أجدنى مضطرا إلى أن أسأل أحداً هذا السؤال . فإذا أجابنى عليه نسيت هذه الإجابة ، لأن الآمن لا يسأل ، والآمن لا ينتظر جواباً من أحد . فالذى يجده فى نفسه يغنيه عن كل سؤال !

ولكن اليهود فى كل تاريخهم لم يعرفوا الهدوء ولا الأمن ولا الأمان ..إنهم ضائعون يريدون أن يهتدوا ، مطرودون يريدون أن يستقروا فى أى أرض .. فلما خطفوا الأرض لم يهدأوا بعد ، بل إنهم فى داخل إسرائيل يحاربون بعضهم البعض وكأنهم ما زالوا أقلية منبوذة مسحوقة تحت أقدام شعوب أخرى مسيحية ، ولذلك يفكر الكثيرون فى ترك إسرائيل والفرار منها إلى أى أرض أخرى لأنها أحسن وأرحم ، ولكن فئة أخرى من اليهود يقاومون الهرب من إسرائيل .. وفئة ثالثة ترى أن قيام إسرائيل كفر ، وأن التوراة لم تطلب إلى أحد

أن يكون له وطن ، وإنما طالبتهم بأن ينتظروا حيث هم حتى تنفتح عليهم السماء ويهبط من يخلصهم ، وليس من حق اليهود أن يكرهوا السماء على أن تنفتح ، ولا أن يفتعلوا الخلاص من الظلم الواقع عليهم فى كل دولة وفى كل عصر .

وفى إسرائيل أحزاب وأحزان من كل لون وكل نوع وكل حجم ، وما من رأى يجاهر به إنسان فى إسرائيل إلا يجد من يصدقه ويلتف حوله ويدعو له ولذلك تعددت الأحزاب فى إسرائيل وتعددت مخاوفهم هناك من يقول : لا، حرب كفى وهناك من يقول : بل لابد من أن تحارب العرب حتى لو هلك العالم كله من أجلنا .

إن يهود إسرائيل لا يعرفون التفاهم معاً ولذلك فهم يتفاهمون فى صمت فى إكراه .. إن القيادة العسكرية أرهبتهم بالعرب ومن العرب وحشدتهم لكى يدافعوا عن حياتهم .. ففى إسرائيل نوعيات يهودية من سبعين شعباً . ولهؤلاء صحف ومجلات بكل هذه اللغات .. وتحاول الحكومة بالعنف والتهديد أن تصبهم فى قالب لغوى واحد . بعد أن أشعلت عليهم جميعاً نار التعصب الدينى . فهم جميعاً متعصبون . ومتمسكون بكل خرافات التوراة . وجنون العظمة اليهودية .

•••

إن عقدة اليهود الكبرى أنهم عاشوا فى « حوارى » المدن ، والحوارى طرقات مظلمة مغلقة لا يدخلها ولا يعيش فيها غيرهم . وتحت هذه الحوارى أقاموا مصانعهم وبنوكهم ومعابدهم .. وهذه الحوارى هى مخابىء لوقايتهم من أعين الأغلبية وقوة الأغلبية . ولذلك فاليهود لا يريدون أن يعيشوا فى الحوارى . ولا أن يعودوا إليها . ولكنهم عندما اغتصبوا أرضاً فلسطينية كانت إسرائيل حارة ضخمة فى الأرض العربية .. فأحاط العرب بها من كل مكان يسدون فى وجوههم الطريق إلى البحر والبر والأسواق .. بل إن معظم المهندسين الذين أقاموا البيوت فى إسرائيل كانوا يجعلونها مليئة بالفتحات .. النوافذ كبيرة والأبواب كبيرة .. مع أن هذه المنطقة من العالم مليئة بالضوء ، وليست مثل بيوت شمال أوروبا فى حاجة

إلى فتحات كبيرة يدخل منها الضوء . إن بيوت الشرق فى حاجة إلى نوافذ تحجب الضوء والشمس .. ولكن ذلك الإحساس القديم بالظلام فى حارات اليهود ، عميق فى نفوسهم ..

بل إن إسرائيل نفسها ليست لها خريطة رسمية .. إن حدودها مفتوحة ، لم تحدد بعد .. بل هم لا يريدونها محدودة . لأن أطماعهم لم تقف عند أية حدود بعد .. إنهم يريدون أن يحتالوا وأن يساوموا وأن يسرقوا ، وليس صحيحاً أنهم يريدون سلاماً أو تعايشاً .. إنهم لم يعرفوا السلام ولم يعايشوا أحداً فى أى عصر من العصور ..

وعلى الرغم من أن اليهود قد تعذبوا ألوف السنين من كل الأديان الشرقية والمذاهب الغربية ، فإنهم لم يعرفوا التسامح الدينى فى إسرائيل .. فهناك رجال دين فى غاية التعصب .. إن فى إسرائيل يهوداً يضربون الناس بالطوب يوم السبت .. لأنهم يتمسكون بضرورة الامتناع عن العمل يوم السبت .. ويطالبون كل الشركات الملاحية وشركات الطيران أن تتوقف عن العمل فى هذا اليوم .. ويطالبون بتحريم تربية الخنزير وبيعه وأكله .. يطالبون الجيش بأن يأكل « الطعام الحلال » – الكوشير – الذى تم طهيه وإعداده كما جاء فى التلمود ، وإلا كان الخراب نهاية إسرائيل ..

وعلى الرغم من أن اليهود قد شربوا المر أحجاماً وألواناً من كل البلاد بسبب أشكالهم ولون شعرهم وطول أنوفهم وتقوس ظهورهم ، فإنهم فى إسرائيل يصبحون وحوشاً ضارية مع اليهود الملونين .. فالطبقة الحاكمة فى إسرائيل من الروس والبولنديين والألمان ، والأغلبية المحكومة من أبناء غرب أوروبا والبحر الأبيض . وأحط أنواع اليهود : الصفر والسمر والهنود واليمنيون .

بل إن كتباً قد صدرت فى إسرائيل تسخر من يهود اليمن .. فقد أصدرت الأمم المتحدة كتاباً – بموافقة إسرائيل طبعاً – يتحدث عن الجهود التى أرهقت إسرائيل من أجل تعليم يهود اليمن . فالكتاب يقول : إن أبناء اليمن عندما نقلوهم إلى إسرائيل وأسكنوهم بيوتاً ، كانوا ينامون تحت السرير ، وليس فوقه .. وأنهم عندما وزعوا عليهم الشوك والسكاكين ، وضعوها فى أحزمتهم و لم يستخدموها

فى تناول الطعام .. وعندما وزعوا عليهم بعض الأغنام والأبقار للعناية بها ذبحوها وأكلوها ..

بل إن الكاتب اليهودى يورى مؤلف رواية « الخروج » قد وصف ترحيل يهود اليمن إلى إسرائيل بأنه استحال عليهم إقناع اليهود بركوب الطائرة .. فقد خرج اليمنيون وناموا تحت الطائرة،ورفض حاخامات اليمن ركوب الطائرة ، لأن الطائرة لم يرد ذكرها لا فى التوراة ولا فى التلمود ، ولكن استطاع يهودى روسى أن يجد لهم آية فى التوراة تحتم ضرورة ركوب الطائرة .. وكانت الآية : وجاءوا على أجنحة النسور ..

واقتنع يهود اليمن بأن الطائرة،هى النسر الذى يجب أن يركبوه . ثم عدلوا عن ركوب الطائرة،فقد تصادف ذلك أحد أيام السبت ، والسبت إجازة مقدسة ..وظلواتحت الطائرةحتىيومالأحدثمركبوها .وفوجئتالمضيفةبأناليهود اليمنيين حملوا معهم وقوداً للتدفئة ، وأنهم أشعلوا الوقود فى قلب الطائرة ، وبسرعة تم إطفاء الأخشاب التى أوقدوها ، وعندما هبطت الطائرة فى مطار اللد ، نزل اليهود يقبلون الأرض ، ثم يقفزون إلى الطائرة يريدون العودة إلى اليمن !

وعلى الرغم من أن يهود اليمن أقرب حالاً إلى يهود التوراة على أيام سليمان وداود ، فإن الحكومة ترى أن هؤلاء اليهود أقل قيمة ، وأتفه قدراً ، وأنهم لا يرقون إلى مستوى يهود روسيا وبولندا ورومانيا .. ولذلك فكل الأعمال المنحطة يجب أن تكون من نصيب يهود اليمن والعراق .

بل إن هناك فئة يهودية معذبة إلى أقصى درجة وهم يهود الهند .. فهؤلاء اليهود طراز خاص عجيب من اليهود ، ولكن الدولة لا ترى أنهم جديرون بهذا اللقب أو بهذه التسمية .. ولذلك جردتهم من كثير من حقوق المواطن اليهودى ..

أما اليهود الزنوج فهم فى حالة ثورة مستمرة ، ويرون أن أكبر خدعة فى القرن العشرين هى إسرائيل ، وأن العالم كله يجب أن يعرف هذه الأكذوبة ، أو هذا الجنون الدينى .. ويحاول هؤلاء الزنوج أن يؤكدوا للعالم أنه ليس صحيحاً أن اليهود شعب الله المختار . وفى منشور لزنوج إسرائيل يقولون : أين هو الشعب المختار ؟

ما هي ملامحه ؟ ما هو لونه ؟ ما هي لغته ؟ ما هو مذهبه الديني ؟. إنه كل الألوان ، وكل المذاهب وكل أنواع الخروج على كل دين وكل اجتهاد ديني .. فلا اليهود شعب .. ولا أحد قد اختارهم !

ولا هم دعاة سلام ولا هم دعاة تسامح .. إن فيهم كل عيوب الشعوب الأخرى : فهم متعصبون دينياً ، وهم أشد الناس تمييزاً لعناصر الناس . وأكثرهم تعطشاً لدماء الشعوب الأخرى ولدمائهم ، وربما كان الشيء الصحيح في التوراة أن الرب قد لعنهم في كل مناسبة !

***

وفي قصة لكاتب زنجي يهودي اسمه إيلي جنزبرج أن زوجته ولدت توأمين أسماهما : محمد وعيسى ، ورفض موظف السجلات أن يكتب اسم الولدين . واحتج الأب بأنه حر يطلق على أولاده ما يشاء من الأسماء . ولما سأل الأب عن سر هذا الإصرار وسر اختيار هذين الاسمين قال : إنما أردت أن أبعث قصة قديمة .. وهي اضطهاد اليهود للمسيحيين والمسلمين معاً .. ولما قيل له : ولكن اليهود لم يفعلوا ذلك . أجاب بأنهم لم يفعلوا ذلك لأن التاريخ لم يعطهم هذه الفرصة . وأنا أعطي لإسرائيل كلها هذه الفرصة النادرة .

ورفض موظف السجلات أن يكتب هذين الاسمين ، وقال الأب : بالضبط هذا ما أريد . وانتهت القصة بأن اختار الأب لولديه هذين الاسمين : الابن رقم واحد .. والابن رقم اثنين !

***

وإذا كان اليهود قد سرقوا أرض فلسطين ، فإن هذه الأرض هي أكبر من كل أطماع اليهود ، بل إن اليهود لم يكن من أحلامهم ، أول الأمر ، أن تكون لهم فلسطين ، فقد كانوا يحلمون بأي أرض وفي أي موقع .. وكان بكاؤهم عند حائط المبكى ليس فقط على أن المعبد قد انهدم عليهم أكثر من مرة .. وأنهم يتطلعون إلى اليوم الذي يعيدون فيه بناءه .. ولكن على أنهم بغير وطن في أي أرض .. فلما سرقوا فلسطين راحوا يبكون أيضاً لأنهم لا يملكون الأرض العربية من النيل إلى الفرات .. وسوف يجدون من العلماء من يقول لهم إن

الفرات معناه كل نهر به ماء عذب .. ومعنى ذلك أن يملكوا كل أرض بها نهر .. بل إن بعض المذاهب الدينية اليهودية تبكى على قيام الدولة نفسها .. لأن قيام الدولة هو تدخل فى مشيئة الله واستعجال ليوم الخلاص .. وكان من الواجب على اليهود أن ينتظروا فى حواريهم وفى ظلماتها ، حتى تنشق السماء ويطلع لهم نور الخلاص .. ولكنهم هم الذين اغتصبوا إرادة السماء ، وأكرهوها على الخلاص الدموى .. فاستحقوا العقاب والعذاب ..

ولما انهدم المعبد أكثر من مرة ، أقام اليهود معبداً آخر عاشوا فيه ومن أجله سرا فى كل أرض . هذا المعبد هو التوراة .. وهو التلمود والمشنا والمدراش والجمارة ودلالة الحائرين ، وكتب أخرى كثيرة ، كانت مأواهم وملاذهم وخرافاتهم يجترونها ويبكون عليها .. ويطالبون بالعودة إلى أرض صهيون .. فعندما هربوا إلى بابل جلسوا على نهر الدجلة والفرات يتذكرون قصور صهيون .. ويتغنون بها .. مع أنه لم تكن هناك قصور ولا قلاع .. ولكنها أحلام الذين يقيمون فى الخيام على أطراف المدن التى تكرههم .. ولكنها أحلام الذين أحرقتهم الصحراء أن يحلموا بالأنهار والينابيع والظلال والحدائق والعسل واللبن والخمر .. وأن يذهبوا فى خيالهم إلى أن تنتهى صلواتهم وطعامهم وشرابهم وأعمالهم بهذه العبارة : العام القادم فى أورشليم .

إن هذا الإصرار الجنونى عند اليهود قد أوصلهم إلى كثير مما يريدون .. وهذه عبرة لنا . ويجب أن ننظر إليها بهدوء .. بل يجب أن ننظر إلى كل شىء بالعقل والحساب . بل من الضرورى أن نعيد وزن كل شىء كان منا وكان منهم .

***

ومن المناسب أن أستعير عبارة للرئيس السادات عندما تأزمت العلاقات بيننا وبين السوفيت . فقال : يجب أن تكون لنا وقفة موضوعية مع الصديق .

أى يجب أن ننظر وراءنا فى غضب معقول . وأن نعاود النظر لا أن نغض النظر ، وأن نراجع حساباتنا لا أن نتراجع عنها . وأن نلقى الكثير من الضوء حتى نرى أوضح .. نرى ما كان لنعرف بوضوح ما سوف يكون ..

ونحن يجب أن تكون لنا وقفة موضوعية مع العدو ، وأن نكف عن استخدام عبارات كثيرة لنا أو ضدنا .. فلا هو قوى جداً . ولا نحن ضعاف جداً ..ولا نحن أقوياء جداً بعددنا وسلاحنا وأموالنا ، ولا هو قليل العدد قليل الحيلة ، وإنما يجب أن نعرف بالضبط ما هو وما الذى يستطيعه وكيف؟ : وما هى نقاط ضعفه .؟ وما هو هذا التمزق فى داخل إسرائيل ؟.فمن المؤكد أنه مجتمع متمزق . وأن إسرائيل تعانى من آلام لا تجد علاجاً . ففى قلب إسرائيل أوجاع كثيرة ، وفى بطن إسرائيل تقلصات عنيفة . هذه حقيقة – كما سنرى فيما بعد – ويكفى الآن أن أؤكد هذه الحقيقة : أن إسرائيل بكل أحزابها السياسية والدينية وعلماء الدراسات الإنسانية لم تتفق على معنى هذا السؤال : من هو اليهودى ! ولم تجد حتى الآن إجابة تقنع الجميع ، ولذلك ليس فى إسرائيل دستور مكتوب .. بل هناك أنواع من « التيسيرات » على المواطنين ..





خطوط فى طريق طويل مرير

إذا كانت لكم أولاد كثيرة وعشتم طويلا على هذه الأرض ، وتعاظمت خطاياكم وحاولتم إغاظة الرب،فإننى أشهد عليكم هذه السماء ، وأشهد هذه الأرض التى تعبرون إليها نهر الأردن لعلكم تملكونها .. إنكم لن تعيشوا طويلاً ، بل سوف تهلكون لا محالة . وسوف يبددكم الرب بين الشعوب ويصبح عددكم قليلاً بين هذه الشعوب التى يسوقكم إليها – هذا المعنى جاء فى سفر « التثنية » (الإصحاح ٤ الآية ٢٧) .

وفى سفر عاموس (الإصحاح ٥ الآية ٢٦) : ويجلب عليكم الرب وعلى شعبك وعلى بيت أبيك أياماً لم تأت من قبل .. وفى ذلك اليوم يصفر الرب للذباب فى أقصى ترع مصر .. وللنحل فى أرض آشور وتحل جميعاً فى الأودية الخربة وفى شقق الصخور وفى كل غاب الشوك وفى كل المراعى .. وكل الأرض سوف تكون شوكاً .

ولم تصدق نبوءة واحدة من كل نبوءات التوراة كهذه النبوءة ، فتفرق اليهود فى كل أرض ، وطردوا من كل مدينة ، والتف اليهود حول التوراة التى أخافتهم وأفزعتهم .. تماماً كما ينام الإنسان بالقرب من النار . فهى مصدر الدفء وهى مصدر الموت أيضاً – كما قال الكاتب اليهودى الشهير الذى اسمه « سلام عليكم » أو « شالوم عليخم » . وفى التوراة جاءت آيات كثيرة تقول لليهود : إن تبتم .. إن عرفتم الرب .. إن صليتم .. إن ضحيتم .. إن كانت إجازتكم يوم السبت ، فإن الرب سوف يعطيكم كما أعطاكم من قبل .

ولذلك كان الحلم الكبير عند اليهود أن تكون لهم أرض .. فى أى مكان .. وعلى هذه الأرض سوف يقيمون « دولة التوراة » يطبقون فيها كل تعاليم السماء . وسوف يجعلون فى هذه الدولة كل شىء كرهوه : لن يكون فيها إلا دين واحد .. وغير يهود .. لن يتسامحوا مع أحد من الناس . لن يجد اليهود أنفسهم مضطرين إلى الزواج من الشعوب الأخرى ، ولن يتواروا فى الديانات الأخرى ، خوفاً منها ، أو توسلاً إلى إفسادها على أصحابها وتخريبها من الداخل ، سيكون الوطن يهودياً من أوله لآخره .

وبإنشاء هذا الوطن اليهودى،يبدأون المرحلة الثانية وهى أن يطبقوا تعاليم التوراة على الشعوب الأخرى ، لأن الرب قد اختار اليهود ليقودوا العالم كله ، لأنهم شعبه المختار . وكل محاولة من الشعوب الأخرى لاعتراض اليهود ، هى محاولة لتعطيل إرادة الله .. وليس بعد ذلك ذنب . وهذا الذنب لا عقاب له سوى الموت ، ولذلك فاليهود يرون الحرب والقتل والسفك أسلوباً شرعه الله لليهود ضد كل الشعوب الأخرى التى تدين لهم ، أو يجب أن تدين لهم بالطاعة ..

وقد سئل حاخام كبير فى التلمود : قل لى يا معلم ماذا يحدث لنا إذا تحول العالم كله إلى يهود ؟ !

قال المعلم : هذا لن يكون ؟

– ولماذا يا معلم ؟

– لأن اليهود شعب اختاره الله .. فإذا كانت كل الشعوب يهوداً ، فلا شعب مختار .. وإذا كان الناس ملوكاً فمن هم الرعية .. وإذا كانت كل المعادن ذهباً ، فلا قيمة لكلمة معادن .. ولا قيمة للذهب .. إن للذهب قيمة لأن هناك معادن أخرى لا قيمة لها .. فيجب أن تكون شعوب كثيرة حقيرة ، ليكون اليهود خير الشعوب وساداتها .

***

ولكن اليهود فى إسرائيل لم يتفقوا على شىء من هذا كله . فهم فى إسرائيل متفرقون تماماً .. وعلى الرغم من أنهم أغلبية ، فإنهم يتصرفون كما لو كانوا أقلية مضطهدة .. أو أقلية محتقرة .. والحقيقة أن الطبقة الحاكمة فى إسرائيل من البيض وهى أقلية إذا ما قورنت بالطبقة المحكومة من اليهود الملونين .. فالطبقة الحاكمة يهود من الدرجة الأولى ، والمحكومون يهود من الدرجة الثانية لأنهم شرقيون ولأنهم ملونون ..

وفى إسرائيل ثلاثة أنواع من اليهود :

اليهود الغربيون « الاشكنازيم » وهم أبناء روسيا وبولندا ورومانيا وألمانيا ..

واليهود الشرقيون « السفرديم » وهم أبناء أسبانيا والبرتغال وبعض أبناء البحر الأبيض المتوسط والعراقيين واليمنيين ..

واليهود الهنود « بنو إسرائيل » وهم طراز خاص من اليهود . يقولون إنهم هاجروا إلى الهند عندما تحطم المعبد فى القدس فى المرة الثانية .. ولذلك فهم أقرب الناس إلى اليهود القدامى ، والديانة اليهودية التى يمارسونها هى الصحيحة ، ولذلك فهم أحق الناس بحكم إسرائيل .. ولكن حكام إسرائيل لهم رأى آخر : إن هؤلاء الناس ليسوا يهوداً فى الدرجة الأولى ، لأن معتقداتهم قد امتلأت بالخرافات . ودخلتها بعض التعاليم البوذية . ثم إنهم ملونون !

والأحزاب الدينية فى إسرائيل متنازعة متعارضة . ولكنها يجب أن تتفق ضد الأحزاب الملحدة . وترى الأحزاب الدينية أن الدين هو الذى حفظ الشعب اليهودى ألوف السنين ، وأن الدولة اليهودية هى ثمرة سامة على شجرة الدين .. والأحزاب السياسية تقول إن الدين أبقى على الناس،ولكنه لم يعط الناس شيئاً سوى البكاء والمزيد من البكاء .. فأقصى ما كان يقوله رجال الدين هو أن يرددوا المزمور الذى يقول : على مياه بابل جلسنا نبكى،وسوف نبكى كلما تذكرنا جبل صهيون – فلا شىء إلا البكاء ولكن السياسة هى التى حققت أحلام رجال الدين .

والأحزاب السياسية تستخدم المعتقدات الدينية فى تحقيق أهدافها .. والأحزاب الدينية تستخدم الأساليب السياسية فى تحقيق أوهامها .. كلاهما يعتمد على الدين فى الدرجة الأولى .

بل إن المذاهب الدينية كانت ترغم اليهود فى كل مكان على اتباع حرفية التعاليم ، ولا تزال .. فمثلاً يجب أن يصلى اليهود لنزول المطر ، حتى لو كانوا يعيشون فى بلاد لا تتوقف فيها الأمطار . ولا بد أن تقام الصلوات ثلاث مرات كل يوم . وفى نهاية كل صلاة يتصافح الناس قائلين : فى العام القادم فى أورشليم .. وكذلك الصلوات فى عيد الغفران يجب أن يسرف المصلون فى الدعوة إلى العودة إلى أورشليم .. ولا بد أن يصلى كل يهودى من أجل الحصاد ، حتى لو كان يعيش فى صحراء ليس فيها عود واحد أخضر .

يجب أن يظل اليهود يحلمون بذلك اليوم حتى لو لم يكن هناك أمل فى تحقيقه .. وقد أطلق اليهود على أنفسهم : أبناء الأحلام .. وكان يوسف عليه السلام أول من فسر الأحلام .. وكان فرويد اليهودى أعمق من قام بتحليل الأحلام فى العصر الحديث .. إن رصيد اليهود من الأحلام التاريخية كثير جداً .. إنهم يحلمون وعيونهم مفتوحة . وفى التوراة أنبياء يحلمون ويرون المستقبل ويضعونه كأنه فى أيديهم ، أو كأنهم يضعونه بأيديهم .. ثم يلقون به فى المستقبل ليتحقق بعد ذلك بعشرات القرون ..

ومثل هذه الأحلام وانتظار يوم الخلاص قد أوقع اليهود فى مصائب كثيرة .. فقد ظهر عدد كبير من النصابين يزعمون أنهم أنبياء وأن السماء قد ألقت بهم فى طريق شعبهم لينقذوه من الظلم والاضطهاد فى كل أرض وكل شعب .. من أمثال : شلومون مولوخ والنصاب الأكبر شتباى تزيفى .. وقد تعلق اليهود بهؤلاء الأدعياء وأنفقوا عليهم .. وساروا معهم ووراءهم إلى الهاوية ..

ولكن فى القرن التاسع عشر يظهر نوع آخر من الخلاص . إنه « الخلاص الذاتى » . أى أن يقوم اليهود بتخليص أنفسهم مما هم فيه – ولا داعى لأن

ينتظروا معجزة السماء .. « فلا معجزة هناك ولا سماء » – كما يقول الزعيم اليوغسلافى يهودا البكلاى (١٧٩٨ – ١٨٧٨) وإنما على اليهود أن يلمسوا الأرض بأيديهم وأرجلهم وأن يؤمنوا أن خلاصهم من تراب ودم . وهذا الزعيم البكلاى هو أول من طالب بإقامة وطن قومي لليهود عن طريق شراء الأرض فى فلسطين .. تماماً كما فعل إبراهيم عليه السلام حين اشترى أرضاً من الملك عفرون .

أما الزعيم البولندى كاليشير (١٧٩٥ – ١٨٧٤) فهو أول من طلب إلى عميد أسرة روتشيلد فى فرنسا أن تعاونه على شراء أرض بالقرب من مدينة يافا، وقدساهم الاتحاد الفرنسى الإسرائيلى فى شراء قطعة أرض جعلوها مدرسة زراعية .

وفى ذلك الوقت كان اليهود فى أوروبا الشرقية يلقون جميع أنواع الهوان والعذاب . فروسيا حددت لهم مناطق لا يخرجون عنها . ثم إنها حتمت عليهم أن يشتغلوا فى الخدمة العسكرية خمسة وعشرين عاماً . وبذلك لا يكون اليهود فى عزلة ولا يتفرجون على المجتمع الروسى ، وليس لهم إلا هدف واحد هو أن يكسبوا دون أن يشاركوا بالخسارة أو بالتضحية من أجل أحد ..

وقد وصف الكاتب اليهودى « شلومو عليخم » حالة اليهود فى روسيا بقوله : نحن بفضل الله متسولون !

***

وقد عزف كثير من اليهود على أوتار « الوطن القومى » . ولكن فى نفس الوقت لم يكن من أمل أحد أن يكون هذا الوطن فى فلسطين أو هو فلسطين نفسها . فقد ارتضى عدد من اليهود أرضاً فى أفريقيا وفى أمريكا .. بل إن بعض اليهود أعلن أنه لا داعى « لأن يكون هناك وطن لنا .. فالعالم كله وطننا .. بل أمريكا وحدها تكفى : فأمريكا هى أورشليم وواشنطن هى صهيون ! »

وفى نفس الوقت توالت الهجرات على فلسطين . وكانت الهجرة الأولى يسمونها « العالية » الأولى أو العلو الأول أو « الطلعة الأولى » فيما بين ١٨٨٢ – ١٩٠٣ وبلغ عدد المهاجرين خمسة وعشرين ألفاً . اتجهوا جميعاً إلى مدينة القدس والخليل وصفد وطبرية .

وانعقد فى بازل بسويسرا أول مؤتمر صهيونى عالمى سنة ١٨٩٧ وكان أبرز أعضائه الصحفى الرومانى هرتسل (١٨٦٠ - ١٩٠٤) . وهرتسل قد عاش معظم سني حياته فى النمسا .. وفى هذا المؤتمر الصهيونى اتفق « حكماء صهيون » على وضع « البروتوكولات » المشهورة . وفيها وضعوا خطة للسيطرة على العالم .. أو على الأجهزة الحساسة فى العالم . وفى هذا المؤتمر أيضاً وضعوا النشيد الوطنى لإسرائيل واسمه « الأمل » - هاتكفاه - وصمم أحد تجار مدينة كولونيا بألمانيا العلم الإسرائيلى من الأبيض والأزرق .. وفى هذا المؤتمر انسحب حاييم وايزمان وهو صهيونى روسى ولد منذ مائة عام تماماً وكان أول رئيس لإسرائيل - عندما لاحظ أن المناقشات تدور حول أن يكون لليهود أى مكان آخر فى العالم غير فلسطين . وكان تشمبرلين الوزير البريطانى قد وعد هرتسل بأن يعطيه أرضاً من كينيا لتكون وطناً لليهود ..

وبدأت الهجرة الثانية أو « الطلعة الثانية » إلى إسرائيل (١٩٠٤ - ١٩١٤) وتضمنت أربعين ألفاً من يهود أوروبا الشرقية . وفى نفس الوقت هرب مليونان إلى أمريكا .. ومن بين هؤلاء « الطالعين » إلى فلسطين بن جوريون واعتنق اليهود فلسفة عملية فى فلسطين : أنه لابد لهم أن يعملوا بأيديهم . وأن يملكوا الأرض وعلى هذه الأرض يقيمون ويعملون على انتزاع مزيد من الأرض بأى ثمن ..

وفى الحرب العالمية الأولى شارك اليهود بعدد من الجنود أطلقوا على أنفسهم اسم « بغل صهيون » .. أو « حمارتك العرجاء » وكانت هذه القوة الصغرى هى نواة « الفيلق اليهودى » الذى شارك مع الإنجليز فى إخراج الأتراك من فلسطين .. ثم حان موعد « الطلعة الثالثة » (١٩١٥ - ١٩٢٣) .. ومن الذين هاجروا إلى إسرائيل فى هذه المرة : جولدا مائير الروسية الأصل ..

وكانت « الطلعة الرابعة » بعد ذلك (١٩٢٤ - ١٩٢٦) . وقد احتوت على عدد من يهود أوروبا الشرقية ، وأكثرهم هاربون من بولندا .

وبقية القصة الرهيبة توالت فصولها ، مع إنهاء الانتداب البريطانى على فلسطين ، وعلى وعد من بريطانيا بأن يكون لليهود وطن . ومع الحرب ضد العرب ومع الموقف الهزيل للأمم المتحدة .. ومع الصراعات الدموية على الأرض العربية وعلى التمزق الشديد من الدول العربية ، بتشجيع من الدول الاستعمارية ..

وكل هذه المراحل فى حاجة إلى أن نتناولها بالحساب . بلا غضب . بلا سخط ..فإن الغضب وحده قد جربناه . وكان عقوبة لنا . لأننا لم نفعل أكثر من الغضب ومن لعن الأيام . ومن إلقاء كل اللوم على كل الناس إلا أنفسنا . وكان ما كان مما نعرفه بعد وقبل ٦٧ .. ثم كانت سنوات المرارة وامتصاص الشوك ووخز الضمير .. ولم يتغير ميزان القوى ، وميزان التاريخ فى أيدينا إلا بعد أن عبرنا تمهيداً لتحرير الأرض المصرية والعربية . ولم يكن هذا العبور ابن غضب ، ولا حفيد الغرور والتعالى ولكنه ابن شرعى لحسن الإدراك والتواضع والفهم الصحيح لما فى أيدينا وما فى أيديهم ..

يقول الكاتب اليهودى الساخر شلومو عليخم عندما سئل إن كان يسعده أن يكون يهودياً وأن يكون هذا هو حالهم فى كل أرض وكل وقت أجاب : إلى أن نجد شعباً أفضل يرتضى أن يحمل همومنا وخطايانا ، فأنا راض بهذا الأنف الطويل والشعر المجعد ، وهذا الغضب من كل الناس ! ..

ولكننا وجدنا أنفسنا أفضل مما كنا نتصور .. فلا نحن وحدنا الذين حاولنا وانكسرنا ، ولا نحن الذين رحنا ضحية أنفسنا وغيرنا .. وإنما نستطيع إذا وقعنا أن نقف ، وإذا تعثرنا أن ننهض ، وإذا انتكسنا أن نعبر — حتى هذه المعانى يجب أن نقولها لأنفسنا ولغيرنا بحساب لأن طريق الخلاص طويل مرير !





لمن يذبحون الخنازير فى دولة التوراة

سئل حاخام اليمن ناثان بن الفيومى إن كانت هذه الحياة بكل ما فيها من تناقضات عنيفة ، شيئاً ممكناً ؟ فأجاب فى كتابه المعروف باسم « بستان العقول » بقوله : لا أستطيع أن أجيب قبل أن أروى لك هذه القصة ، ثم قال : إن رجلاً فقيراً كان يعيش فى مدينة صنعاء ، ومر عليه الملك ، ولم يشأ الرجل أن يقف تحية له ، واندهش الملك وسأله : كيف لا تقف ؟ قال : لا أقف إلا لسيدى .

فقيل له : ولكن الملك سيد الكون .. وكان تعليق الرجل على ذلك : ولكن الملك يعمل خادماً لخادمتى . فأنا رفضت هذه الدنيا كلها . وهى لا تتحكم فى عقلى ولا قلبى ولامعدتى .. فأنا سيدها ولكن الملك خادم لها وعبد ذليل .

وأمر له الملك بذهب وفضة وملابس فخمة . ورفضها الرجل وهو يقول : أنت تريد أن تجعلنى خادماً لها ولك . ولكنى لا أخدمها ولن أخدمك فابحث عن غيرى !

وقال له الملك : إذن نحن لا نتفق !

– بل اتفقنا تماماً .

– على أى شىء ؟

– على أنك خادم لها . وعلى أنني لست خادما لأحد – ومفروض علينا أن نعيش معاً . وأن تكون حياتنا معاً . أنت النار وأنا المطر .. أنت تحاول أن تشعلنى ، وأنا أحاول أن أخمدك .. فلا أنا جففت ولا أنت انطفأت .. ولن أسكت ولن تسكت .. وسوف يبقى عذابنا أبدياً !

***

وكان حاخام اليمن رجلا بعيد النظر . وأكثر دراية بقومه من اليهود . فكل ماتوقعه هذا الرجل الذى عاش فى القرن الثانى عشر ، مايزال مستعراً فى إسرائيل . فأحزانها السياسية هى أحزانها الدينية .. فرجال الدين يستخدمون السياسة من أجل الحكم بالتوراة ، ورجال السياسة يركبون الدين من أجل تعبئة الشعب ضد العرب وضد العالم كله ..

ويوم أعلن بن جوريون استقلال إسرائيل وقف الحاخام « يهودى بن ميمون » يبارك الكيان الجديد . ويشكر الرب الذى أعطاه العمر ليعيش هذه اللحظة الباهرة : فقد أصبحت لأغنام إسرائيل الممزقة حظيرة منيعة » فهذه هى المرة الأولى التى يجد فيها الشعب الضال مكاناً واحداً . وحكومة واحدة ، بعد أن كانت لهم حكومة سرية هى حكومة « القهالة » . وأصبح لهم خيط واحد يضم حبات من كل لون وحجم ووزن ..

ويوم أعلنت إسرائيل استقلالها فى ١٤ مايو سنة ١٩٤٨ كان عدد يهود إسرائيل ستمائة وخمسين ألفا ، أى ما يعادل عشرة أمثالهم من عشرين عاماً . وكان أكثرهم يتكلمون اللغة العربية . ولكن اللغة العربية هى لغة التوراة . ولا تكتمل القومية اليهودية إلا بهذه اللغة . ولا تتم الوحدة القومية بين عشرات الجنسيات واللغات إلا بفرض اللغة الواحدة على كل الناس . وعلى الأطفال والأجيال الجديدة . وكانت هذه فلسفة الساسة ورجال الدين الذين ولدوا فى حارات اليهود فى روسيا وبولندا ورومانيا . واهتدى اليهود فى أول عهدهم بإسرائيل إلى أن هناك حقيقتين أساسيتين هما : التفوق العلمى والدين .. أو الدين والعلم . الدين يجمع الناس والعلم يدفعهم . الدين يشدهم إلى الأرض المقدسة والعلم يفتح لهم كل العواصم العالمية ..

ومنذ اللحظة الأولى اتفق الجميع على أن الدولة الجديدة يجب أن تقوم على أساسين من الدين والدنيا .

أما رجال الدين فيرون أن التوراة هي التي جمعت الشعب اليهودى . وأن المعبد عندما انهدم عليهم وعلى أجدادهم ، أقام الحكماء معبداً آخر هو « التوراة » و « التلمود » و « المشنا » و « الجمارة » وغيرها من الكتب المقدسة . فالدين هو الذى أمسك الناس حتى لا يذوبوا فى الشعوب الأخرى ..

أما رجال السياسة فيرون أن « التوراة » لم تنقذ اليهود من العذاب .. وإنما كانت سبباً فى أنهم ظلوا منبوذين فى كل مكان ، فالتوراة هى التى جعلتهم يرتدون ملابس خاصة ، وجعلتهم حريصين على الصلاة والذبائح .. وتمسك اليهود بالتوراة هو الذى جعل الأديان الأخرى تطاردهم وتطردهم وتحرقهم وتفرقهم .. ولو خفف اليهود من تهوسهم الدينى لعاشوا أفضل وأكرم . ولم يعرف اليهود الحياة الكريمة الشريفة إلا عندما تخففوا من التزمت الدينى فى أوروبا وأمريكا .. فالدين إذن كان مصدر عذاب لهم ..

ولذلك كان من العقل والحكمة وبعد النظر والمرونة أن يخلع الناس دينهم ليكونوا أناسا عاديين !

ومن السهل على أى إنسان فى إسرائيل أن يكون له حزب دينى أو سياسى .. تماماً كما كان لليهود من ألوف السنين أنبياء وقضاة ومصلحون .. إنهم حائرون تائهون فإذا رفع إنسان صوته بالغضب التف حوله الناس .. وإذا وعدهم بالخلاص صدقوه وركعوا عند قدميه .. فإذا طالت المسافة بين ما يقول وما يعمل انفضوا من حوله أو قتلوه ..

***

وبدأ البرلمان الإسرائيلى – الكنيست – سنة ١٩٤٩ بستة أحزاب سياسية تغيرت وتبدلت وتفرعت وتنكرت لكثير من شعاراتها بعد ذلك ..

(١) **الحزب الشيوعى (ماكى)** .. كان من أهدافه البعيدة أن يجمع بين العرب واليهود فى تنظيم واحد ، وكان من رأيه أن الصهيونية أو القومية اليهودية هى فلسفة برجوازية عميلة لبريطانيا . ولكن الحزب الشيوعى قبل إلغاء الانتداب البريطانى كان يدعو لاستقلال إسرائيل بعيداً عن العرب .

وفى انتخابات سنة ١٩٦٥ انقسم الحزب الشيوعى إلى عربى ويهودى ولم يدخل الحزب الشيوعى الوزارة منذ قيام إسرائيل .

(٢) **حزب اتحاد العمال (مابام)** .. وهو يدعو إلى اقتصاد اشتراكى مخطط وإلى تحالف كل العمال ، وهو حزب لا دينى ، وهو يسوى بين العرب واليهود - كلاماً فقط ! وهو يطالب بتحييد الشرق الأوسط عن مناطق النفوذ - كلاماً أيضاً !

(٣) **حزب عمال إسرائيل (ماباى)** .. أنشىء هذا الحزب سنة ١٩٢٩ عندما تحولت الصهيونية إلى حركة عالمية شاملة . وهو يدعو لتحالف العمال والفلاحين ، من أجل خلق الدولة العبرية ، ولكنه أبعد ما يكون عن الدعوة إلى المساواة والحرية والعمل للجميع ، فهو أيضاً حزب يهودى شديد التعصب . ويكفى أن نذكر أهم قياداته المعروفة : موسى شاريت وأبا إيبان وليفى أشكول وبنحاس لافون وجولدا مائير وبن جوريون . هذا الحزب أصبح هو والدولة شيئاً واحداً . ورغم التقلبات التى غيرت معالم الحزب من الداخل ، فإنه بقى الحزب الذى يحكم ويسيطر منذ قيام إسرائيل . وهذا الحزب رغم أنه لا دينى ، لكنه لا يستطيع أن يعارض كل الأحزاب الدينية . وإنما يعتمد عليها فى تحقيق التوازن الائتلافى من حين إلى حين .

وقد أثارت الأحزاب الدينية مشاكل كثيرة بسبب تربية الخنازير التى يحرم الدين أكلها وذبح الأبقار بطريقة خاصة وضرورة وجود حاخام فى كل تشكيل عسكرى ومشكلة الزواج المدنى . وعارض هذا الحزب ، ولكنه استسلم فى النهاية . وهذا الاستسلام تكتيكى فقط - أى من أجل تسيير الأمور دون اقتناع .

(٤) **وهناك جماعة التقدميين** .. وهم أحرار متعصبون (؟ !) ويدعون للاشتراكية . ولكن . لا علاقة لهم بأى فلسفة تعبر عن آمال العمال أو الفلاحين ..

(٥) **الجماعة الصهيونية** .. وهذا الاسم لا يغرك ويجب ألا يخدعك ، فهم رأسماليون عاديون جداً ، وأهدافهم معروفة ، فلهم فنادق وشركات سياحية . وهم متعصبون إلى أقصى درجة .

(٦) **جماعة الحرية (حيروت)** .. وهم أكثر التنظيمات السياسية تطرفاً ومغالاة فى الوطنية ، وقسوة فى معاملة العرب أو النظر إليهم ، ومن أهم مبادىء برامجهم السياسية أن تكون حدود إسرائيل السياسية هى حدودها الدينية ، أى الحدود التى وردت فى التوراة ، من النيل إلى الفرات – إن كان هذا قد ورد ! !

***

وفى سنة ١٩٤٩ ظهرت أحزاب دينية شديدة التطرف كلها تهدف إلى شىء واحد : أن يتسلموا التركة الجديدة التى عملوا من أجل تحقيقها ألوف السنين . والتى وعدهم بها الأنبياء ..

ولكن فى نفس الوقت ظهرت أحزاب دينية تطالب بالقضاء على إسرائيل نفسها . ويرون فى قيامها كفراً بالله وتدخلاً فى مشيئته . فما كان يجب على أحد أن يقيم هذه الدولة بالقوة ، وإنما كان عليه أن يتعذب وينتظر ، وأن يحترق ويصبر وأن يشرد ويتأمل ، حتى يجىء ذلك الإنسان الذى سوف يخلص الجميع من شرور الجميع .. ولذلك يجب أن يعود اليهود جميعاً إلى البلاد التى كانوا يعيشون فى حواريها ، حتى يناديهم داعى السماء ويلم شملهم .. ولما كان هذا الداعى لم يظهر بعد ، فعلى اليهود أن ينتظروا فى مواقعهم ، وليس على أرض إسرائيل !

أما المتدينون المعتدلون فهم الذين يقولون : إن الصهيونية وسيلة لبناء وطن قومى لليهود على أساس من الدين اليهودى والروح اليهوديه . وشعار الأحزاب الدينية المعتدلة هو : أرض إسرائيل لشعب إسرائيل تطبيقاً لدين إسرائيل !

بل إن حزب « مزراحى » الذى تأسس سنة ١٩١٨ من الطبقة الوسطى ومن اليهود المحافظين كان ولا يزال يؤمن بأن الدولة يجب أن يحكمها رجال الدين وحدهم ووفقاً لتعاليم الحاخامات ضد الاشتراكية والتعاونية وضد حكم العمال ، مع تشجيع لرأس المال ..

ولكن حزب مزراحي هذا تطور إلى حزب روحانى آخر فلسفته : التعاليم الدينية والعمل . أى تطبيق مبادىء الدين فى العمل فى المصانع والمزارع — ولذلك أقام هذا الحزب « المستعمرات » أو الكيبوتز ..

وهناك حزب دينى اسمه « وحدة إسرائيل » . هذا الحزب عمره ستون عاماً . تأسس فى أوروبا ، وهو يعمل على مساعدة الشعوب اليهودية أينما كانت ، وتشجيعها على التمسك بالدين ، وذلك عن طريق المحاضرات والنشرات والمساعدات المالية .

وفى وارسو سنة ١٩٢٢ تأسس حزب دينى متطرف وإن كان له اسم خادع هو « حزب عمال وحدة إسرائيل » . هذا الحزب كان أساسه أن يعالج النزعات الإلحادية وموجات التشاؤم التى هى جوهر التفكير اليهودى .

وقد انشق هذا الحزب إلى جمعيات صغيرة متضاربة . وفى سنة ١٩٣٤ اتجه هذا الحزب الدينى إلى هيئة عملية تبنى القرى على أساس أن المسيح سوف ينزل من السماء . فإذا وجد الشعب المختار قد طبق الحياة الدينية التى جاءت فى التوراة فإنه سوف يزحف بشعبه إلى الخلاص وأرض الميعاد . ويقال إن المنقذ الذى انتظره اليهود طويلاً ، أطل برأسه كثيراً ، فوجد شعبه أكثر تمزقاً من أى عصر ، فعاد إلى ما وراء الغيب حزيناً على ما أصاب اليهود .. ويقال إن هذا المنقذ قد نزل بالفعل إلى الأرض . وحاول أن يقدم نفسه لليهود . ولكن أنكروه وقتلوه .. وبعض الحاخامات يعرف هذه الحقيقة ويبكون على أنهم قد أضاعوا كل فرصة للنجاة ، ولا يصارحون شعبهم خوفاً على أنفسهم من الموت شنقاً أو حرقاً !

وقد تشكلت جماعات متطرفة جداً فى كثير من العواصم الكبرى وقد اختارت هذه الجماعات لنفسها اسم « حراس المدينة » ، وهى جماعات نشطة فى إسرائيل نفسها ، ومهمة هذه الجماعات أن تحرس الدين من أعداء الدين . ففى إسرائيل لا يرعون حرفية الكتاب المقدس ، فهم يأكلون اللحوم من كل نوع – بما فيها لحم الخنزير وهذا حرام ، وهم يعملون يوم السبت – مع أن الوصايا العشر تنص على تحريم ذلك ، وهم يتزوجون زواجاً مدنياً .. وهم يتزوجون من بنات وأبناء الديانات الأخرى – وهذا حرام .

ولذلك فهم يتدخلون فى ذلك بأنفسهم فيضربون الناس بالطوب والحجارة . وهم يحطمون نوافذ المطاعم التى تفتح أبوابها يوم السبت .. ويعترضون السيارات والطيارات التى تتحرك يوم السبت .. ويعتبرون كل زواج مدنى اعترافاً رسمياً بالزنا .. ويرون أن الدولة بشكلها الحديث كفر إلى أقصى درجة . ولذلك يمنعون الناس من الانتخابات والإدلاء بأصواتهم أو ترشيح أنفسهم .

وعلى الرغم من أن هذه النزعات الدينية المتطرفة تلقى استنكاراً من كثير من اليهود ، فإن الأحزاب الدينية تتمسك بها بصورة أخرى ، وترى أن هذا كله شرط لدخول الحكومات الائتلافية ، ولم تستطع كل الأحزاب أن تجاهر بمخالفتها . فقد اتفقت الأحزاب الدينية ضد بن جوريون أكثر من مرة . ورفضت الدخول فى الحكومة الائتلافية إلا إذا حرم ذبح الخنزير ، وكان ذلك صعباً وفى إسرائيل مسيحيون عرب يأكلون الخنزير ولكن بن جوريون حرم تربية الخنزير فى كل المدن والقرى اليهودية وأباحه فى القرى العربية المسيحية ..

واشترطت الأحزاب الدينية أن يكون الذبح والطهى حلالا أى « كوشير » فاليهود لهم طريقة خاصة فى ذبح الحيوانات ، وهى أن يمسك الإنسان سكيناً ويمر بها علي عنق الحيوان مرة واحدة فى اتجاه واحد وإلا كان أكل هذا الحيوان حراماً . واشترطت الأحزاب الدينية أيضاً أن تراعى الحكومة هذا الطهى الحلال والذبح الحلال فى الجيش أيضاً ، ولا بد من تعيين حاخام صغير مع كل تشكيل عسكرى لمراعاة التعاليم الدينية فى الصلاة والمعاملات والأكل

والشرب ووافقت الحكومة على ذلك . وقد رأينا رجال الدين يرافقون قواتهم المسلحة فى كل مكان .. ووجدنا مع الأسرى نسخاً من التوراة والصلوات وكذلك فى المواقع على القناة وفى سيناء . واليهود لهم تاريخ طويل مع الخنازير ولحمها .. فقد كان الرومان يربطون اليهود فى الحبال ويجرونهم مع الخنازير فى الشوارع .. وكانوا يرغمونهم على أكل لحم الخنزير نيئاً ومتعفناً – إمعاناً فى تعذيبهم واحتقارهم !

ولم تفلح الأحزاب الدينية فى إغلاق المطاعم والشركات فى يوم السبت من كل أسبوع ، تطبيقاً لتعاليم التوراة ، ولكنها لم تيأس بعد ، ولا يمكن لأية حكومة إغفال هذه النزعات الدينية المتزايدة ، وقد دلت الأرقام على أن هناك نسبة متصاعدة من اليهود يبعثون بأولادهم إلى المدارس الدينية ، آخر إحصاء يدل على أن (٣١٪) من اليهود يفضلون المدارس الدينية و(١٠٪) يفضلون المدارس الخاصة ..

***

وهناك مشكلة من نوع خاص جداً هى مشكلة الجيل الجديد فى إسرائيل – أى مشكلة الصابرا .

ولا بد أن ترى صورة لهذا الاضطراب السياسى والدينى فى دستور البلاد . ما الذى يجىء فيه وما الذى يحذفونه منه . ولا بد أن يكون هذا الاضطراب الفكرى والوجدانى واضحاً فى الخلافات العنيفة والتى تزداد عنفاً بين المذاهب السياسية والدينية ، فلم يحدث من قبل أن عاش اليهود معاً فى مكان واحد وعلناً هكذا ، ولم يحدث فى كل التاريخ أن قام شعب بهذه الحدة يأكل نفسه ويحتقر أبناءه ويبكى عليهم ، مثلما يفعل اليهود فى إسرائيل الآن – كما سنرى .

***

وبعد أن قامت إسرائيل سئل فيلسوفها الأكبر (مارتن بوبر) ما رأيك وقد قامت إسرائيل ؟

فأجاب : لا قيام لإسرائيل ولا أمان لها إلا إذا حملت عبئها الفريد فى التاريخ .. وإلا إذا راحت ترزح تحت الهموم الثقيلة لجلال الله !



إما التوراة أو لادستور

موسى بن ميمون (١١٣٥ - ١٢٠٤) طبيب صلاح الدين الأيوبى ، لايزال أكبر فلاسفة اليهود ، وأشدهم تمسكاً بالكتاب المقدس . وهو يرى أن التوراة كتاب الدنيا والدين ، ودستور الشعب اليهودى والمعنى الذى حماه من الانقراض،ولذلك فالذى تحرمه التوراة لابد أن يكون ضاراً صحياً ونفسياً واجتماعياً .

مثلا يقول ابن ميمون فى كتابه « دلالة الحائرين » إن التوراة حرمت لحم الخنزير . فلابد أن يكون لحم الخنزير ضاراً صحياً . ولو حللت التوراة لحم الخنزير لتحولت البيوت والشوارع والمدن إلى زريبة . لأن هذا الحيوان قذر شكلاً وطعاماً بل إن فم الخنزير نفسه له شكل ورائحة الحظائر . والتوراة حرمت أن يأكل الإنسان الحيونات الميتة .. وحرمت أن يقتطع الإنسان جزءا من حيوان حي ثم يأكله . فهذه منتهى القسوة . وحرمت تعذيب الحيوان عند ذبحه . ونصت على أن يكون الذبح رحيماً ، حتى لا يتعلم الإنسان القسوة بالحيوان والإنسان .

ويقول ابن ميمون أيضاً إن التوراة تعلم الناس شئون الحياة معاً ، وتهديهم إلى سواء السبيل . فليرجع إليها كل رجل دين وكل تاجر وكل طبيب وكل سياسى .. إنها هى الدستور !

وماتزال هذه مشكلة إسرائيل حتى هذه اللحظة ، فإسرائيل ليس فيها دستور مكتوب ، لأن الأحزاب الدينية ترى أن الدستور هو التوراة - تماماً كما قال ابن ميمون - فإذا كانت التوراة دستور إسرائيل فهى دولة دينية ،ويجب أن تعيش على تعاليم رجال الدين . وأن تحرم ماحرمته التوراة وأن تحل ما أحلته . ولكن الأحزاب الدينية ، ليست إلا جانباً من بعض الأحزاب . فهناك أحزاب أخرى لادينية . وترى أنه لا داعى للنص على دين الدولة . ولذلك يجب ألا تكون التوراة ديناً أو لا يكون هناك دستور .

وهناك « صراع حضارى » حاد بين كل الفئات والجنسيات والمذاهب الدينية والسياسية ، منذ أعلن قرار الأمم المتحدة فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ .

* * *

وحاولت الوكالة اليهودية أن تقدم مشروع دستور ، وكلفت خبيرها يهودا كوهن أن يقوم بهذه المهمة التاريخية الشاقة ، ولكنه لم يفلح وإنما فقط أشار إلى « أن إسرائيل دولة فريدة فى نوعها » فهى تشبه مجتمع الحجاج الأمريكان الذين هاجروا من أوروبا . لولا أن إسرائيل لها تاريخ قديم . وأن دين إسرائيل يجعل لها رسالة كونية .

وكل مشاريع الدستور التى قدمت للدولة الجديدة تبدأ عادة بشكر الله ولوم اليهود على أنهم لم يتفقوا على شىء . وأنه يجب ان يتفقوا . ففى مقدمة دستور الوكالة اليهودية نقرأ : شكراً لله العلى العظيم الذى حررنا من ربقة الذل والهوان . وأعطانا أرضاً وموطناً ، وجمع المشردين فى كل أرض ووطن . ومنحنا هذه الفرصة لنقيم دولة على التمسك بالمثل العليا والدعوة إلى الخير والسلام والمحبة التى نادى بها أنبياء إسرائيل .

ولكن ليست هذه إلا مقدمة فى مشروع دستور يقول « إن إسرائيل هى الوطن القومى لليهود ، وأن حق الهجرة إليها مكفول للجميع » .

وينص مشروع الدستور هذا على أن يكون السبت إجازة مقدسة . . وعلى أن الزواج يجب أن يتم أمام رجال الدين . . وأن اللغة العبرية هى لغة البلاد .

ولكن أحداً من الأحزاب الدينية لم يوافق على أن يكون هناك أى دستور غير التوراة . وأن مثل هذه العبارات الملفوقة هى كاذبة ومضللة . فالدولة لاتحترم إجازة يوم السبت . والدولة ماتزال تسمح بالزواج المدنى . ولاتراعى وسائل الذبح الشرعى . . كما أن الدولة قد توافق على أن تعمل المرأة وأن تذهب إلى ميدان القتال .

بل إن حزباً دينياً متطرفاً هو « حراس المدينة » يرون أن قيام الدولة باطل ، لأنه ليس من حق أحد أن يقيم دولة . إنه , المسيح المنتظر, هو الذى يقيم الدولة ، فالدولة لاتقوم من الأرض ، وإنما تهبط من السماء .

ثم إنه يجب ألا تكون هناك مساواة بين الرجل والمراة . وابن ميمون نفسه قد أكد على ضرورة عدم المساواة بين رجل وامرأة .

وابن ميمون يقول :المرأة لامكان لها بين الحكام ، مكانها البيت ، ووظيفتها الأمومة والزوجية .

وفى أول اجتماع للكنيست طلب حزب المابام إلغاء المحاكم الشرعية .

وعادت الأحزاب الدينية تقول : إنه يجب ألا تكون هناك أكثر من توراة . . التوراة واحدة وهى التى يجب أن تكون الدستور .

ولم تتفق الأحزاب جميعاً على أن يكون هناك دستور مكتوب للبلاد .

بل إن بن جوريون نفسه قد أجل عرض مشروع الدستور على البرلمان ، حرصاً على ائتلاف الأحزاب فى حكومته

* * *

وظهر من يقول إنه فعلاً لاداعى للدستور ، فهناك دول كثيرة ليس لها دستور مكتوب مثل بريطانيا .

كما أن أمريكا نفسها لم يكن لها دستور مكتوب فى السنوات الأولى من نهضتها . ثم إن الدستور المكتوب ليس دليلاً على الديمقراطية ، فهناك حكومات استبدادية تستند فى كل أعمالها على نص من الدستور وعلى اجتهادات الفقهاء ، وفقاً للدستور .

ومن يقول : لابد لاستكمال الشرعية السياسية والدولية أن يكون هناك دستور ، وأن يكون النظام قدوة للمهاجرين الجدد إلى البلاد . . كما أن التوراة لايمكن أن تفى باحتياجات العصر . حتى التلمود الذى يعتبر أحدث من التوراة قد ظهر فى عصور قديمة . . وظهرت له شروح واجتهادات أيام كان اليهود مبعثرين فى الأرض ولم يكن من أحلامهم وجود دولة لهم على أرض أو فى أى عصر .

وفى ١٣ يونيو سنة ١٩٥٠ ظهر اقتراح أكثر ذكاء ومرونة . وهو أنه لاداعى لأن يكون هناك دستور . . ولكن لامانع من عرض مواد دستورية على البرلمان قد يوافق عليها الأعضاء واحدة واحدة . ورأى الجميع أن هذا هو الحل السعيد . وتوالت المواد على البرلمان . . ووافق عليها الأعضاء . ولكن الأحزاب الدينية رفضت أن تدخل هذ المصيدة التى تؤدى فى النهاية إلى أن تكون هناك فتافيت دستورية . . وبعد ذلك يتم تركيبها على شكل دستور . . فكأن هذه الأحزاب قد رفضت الدستور بالجملة وأقرته بالقطاعى !

وفى فبراير سنة ١٩٥٨ قدمت المادة الأولى من الدستور « القانون الأساسى :البرلمان » ووافق البرلمان على هذه المادة الأساسية . وبعد ذلك لم يتفق أحد على أى شىء وهذا هو التفسير الوحيد لأن تكون كل حكومات إسرائيل ائتلافية . أى حكومات اتفقت على أن تختلف . أو اتفقت على ألا تتفق .

وتوالت بعد ذلك الخلافات الأساسية على أوسع نطاق . مثلا : أين يصلى الناس ؟ والإجابة فى المعابد .

- فإذا لم تكن هناك معابد ؟
- لابد أن نبنى للناس معابد .
- طلبة المدارس مثلا لماذا لايصلون فى الفصول أو فى الحوش ؟
- هذا ضد الدين . مكان الصلاة هو المعبد . وليس أى مكان آخر .

مشكلة أخرى :هل يصلى الرجال مع النساء .

- طبعاً . الرجال فى مكان والنساء فى مكان آخر :

وقد قامت مظاهرات دينية بسبب اجتماع النساء والرجال أمام حائط المبكى . ولذلك وجدنا فاصلاً بين الرجال والنساء أمام حائط المبكى . الدين ينص على ذلك ! ونشرت الصحف الدينية فى سنة ١٩٥٩ : إنها لمهزلة كبرى أن يذهب الرجل وعشيقته مخمورين ويقفان جنباً إلى جنب وقد وضع كل منهما يده على حائط المبكى ويستغفر الرب .. لا هذا دين ولا هذا رب .. وأفضل أن يقام حائط آخر فى مكان آخر : فى فندق أو فى بار !

* * *

قصة هامة جداً : الطلاق والزواج هل هو مدنى أو شرعى ؟

وفى ١٩٥٣ ثارت مناقشات عنيفة عن الزواج أمام رجال الدين وأمام المحاكم الشرعية . رجال الدين يرون أن الزواج المدنى نوع من « الزنا الرسمى » والأبناء الذين يخرجون منه غير شرعيين ، وليست لهم حقوق مدنية . كما أن الزوجة إذا طلقت مدنياً وتزوجت بعد ذلك فأبناؤها غير شرعيين أيضاً. وإذا كان زواجها الأول شرعياً ، وزواجها الثانى مدنياً . . فهناك تفرقة بين أولاد الحلال وأولاد الحرام . . وسوف تظل هذه التفرقة عاراًعالقاً بالأسرة كلها إلى الأبد !

ثم ما هو حكم الدين فى زواج اليهودية من مسيحى ؟ أو زواج اليهودى من مسيحية ؟

الدين يقول :حرام . ولكن مالذى تفعله الدولة إذا تم هذا الزواج خارج إسرائيل ، وقد حدث ذلك كثيراً فى السنوات الأخيرة . وحدث ذلك فى مئات السنين عندما كان اليهود يبحثون عن أية طريقة للبقاء والأمان فى البلاد التى هاجروا إليها .

الأحزاب الدينية ترى أن هذه دعوة إلى تمزيق إسرائيل واختلاط دمائها . . وهدم للتوراة التى أبقت على الشعب اليهودى حتى الآن .

إن هناك عرفاً بين اليهود يحرم على كل من له اسم « كوهين » أن يتزوج إلا بشروط خاصة . فكلمة كوهين معناها الكاهن أو العالم . وهذه الكلمة تتغير حسب اللغات فهى : كوهن وكاهن وكاهان وكيهن وكون وكين وكونكا وكاجان . وكل من يحمل هذا الاسم يجب ألا يتزوج غانية أو مطلقة . . ولا

يتزوج لقيطة ولا ابنة غير شرعية ولا يتزوج مدنياً . وقد حدث كثيراً جداً أن هرب أكثر من « كوهين » إلى الخارج وتزوج على النحو الذى يعجبه . فإذا عاد إلى إسرائيل فليس لأحد أن يعترض على زواجه !

وهناك مشكلة المشاكل : الأرملة . . أى الزوجة التى مات زوجها ، أو هرب ، أواختفى . أو تزوج واحدة أخرى وعاش فى الخارج وليس فى إمكانها أن تعود إليه . أو لاتريد ولايريد . فإذا كان الزوج حياً فلابد من طلاقها . أما إذا كان ميتاً ولم يكن لها أولاد ، فالدين ينص على أن يتزوجها أخو زوجها . لابد أن يفعل ذلك فإذا أنجب ولدا أو بنتا فيجب أن يكون لها اسم والدها إبقاء على المرحوم فإذا رفض الأخ أن يتزوج أرملة أخيه كان على الأرملة وأمام رجال الدين ، أن تخلع حذاء هذا الأخ وأن تبصق فى وجهه وتقول : مثلك يستحق هذا أمام الناس وأمام الرب.والتوراة تقول إن هذا الأخ يجب أن يوصف بالأخ الحافى . فإذا أصبح حافياً وجب عليه أن « يخلصها » أو يطلق سراحها .. فإذا رفض أخو الزوج أن يطلق سراحها ، فالدين يرى ضرورة سجنه . ولكن النائب العام لا يستطيع أن يسجنه،إلا إذا اعتقله البوليس .. وإلا إذا وقف أمام محكمة مدنية . وهذه مشكلة أخرى أكثر تعقيداً .

وهذا يفسر لنا حرص اليهود على انتشال جثث قتلاهم . . أو أى شىء يدل على أنهم ماتوا : أصبعاً . .رجلاً . . خاتماً . . بنطلوناً . . بصمة . . . لأن إعلان وفاة أى جندى يترتب عليه إجراءات كثيرة فى الزواج والطلاق والوراثة والدفن والصلوات والدعوات وتغيير معالم البيت . . وهذه الأرملة لاتتزوج إلا إذا طلقها أو سرحها أخو زوجها !

* * *

ومن مشاكل المجتمع الأسرائيلى المتعدد الألوان والأجناس واللغات والثقافات والقيادات جماعة « بنى إسرائيل » وهى جماعة هندية . ويقال إنها هربت إلى الهند ، وغرقت بها سفينة . وكان ذلك بالقرب من الشاطىء سنة ١٧٥ قبل الميلاد ، واستطاعت هذه الجماعة أن تعيش فى أقصى جنوب الهند ، وقد رأيت أنا معابدها فى مدينة كوتشين فى ولاية كيرالا . وهذه الجماعة بقيت يهودية ولكن ديانتها من نوع خاص ، لأنها انعزلت عن يهود العالم . ومن المؤكد أنها يهودية .

ولكن معتقداتها غريبة ساذجة . وربما كان أول اتصال لبنى إسرائيل هذه بالعالم الخارجي كان بيهود العراق فى القرن التاسع عشر . . وقد حاول هرتسل أن يدعوهم إلى أول مؤتمر صهيونى عالمى عقد فى مدينة بازل بسويسرا سنة ١٨٩٧ ،وطلب إليهم أن يبعثوا مندوبين عنهم ، ولكنهم اعتذروا لأن لهم رأياً خاصاً هو : أن إسرائيل لا يقيمها إنسان . وإنما الله وحده هو الذى يفعل ذلك ! ولذلك يجب على الشعب اليهودى أن ينتظر إشارة السماء !

وفى سنة ١٩٦٠ هاجر منهم إلى إسرائيل حوالى سبعة آلاف . . وبقى من اليهود حوالى العشرين ألفا .

ولما ذهبوا إلى إسرائيل كانت معهم مشاكلهم التقليدية : هل لهم الحق فى الزواج من اليهوديات ؟ هل لهم الحق فى الزواج من غير اليهوديات ؟ إن دينهم غريب . لايكاد يكون يهودياً . فالزواج منهم حرام . . وحتى لو كانوا يهوداً فهل يتزوجون من المسيحيات !

حكمت المحكمة الشرعية العليا بأنهم يهود انعزلوا عن اليهودية العالمية .ولهم كل حقوق اليهود فى إسرائيل . واعترضت هيئات دينية على أنهم يهود . . وتظاهرت جماعة بنى إسرائيل أمام « هيكل سليمان » – أى المحكمة العليا –وأجابتهم إلى مطالبهم فى الزواج من اليهوديات فهذه مشكلة أخرى . . وهذه الجماعة وغيرها لها مشاكل أعقد ، كما سوف نرى .

* * *

إن هناك حكمة يهودية تقول : إن أماً واحدة تستطيع أن تعول عشرة من الأولاد من كل لون ولغة . ولكن عشرة من الأبناء لايستطيعون أن يعولوا أماً واحدة . إن إسرائيل قد أعانتهم ، ولكنهم لايستطيعون أن يعينوا إسرائيل على تمزقها اللونى والطبقى والسياسى والدينى !





هؤلاء الأطفال من الذى يعلمهم الكراهية ؟

كل شعب له لحن يتغنى به . وإسرائيل يجب أن تغنى ألحان الشعوب ، كل ألحان الشعوب ، أو تغنى نيابة عنها . فرسالتها عالمية . ومهمتها سماوية – عبارة قالها مارتن بوبر فيلسوف إسرائيل ! وهذه هى واحدة من مشاكلها الكبرى . فاليهود قد جاءوا إلى إسرائيل من كل بلد . وكل بلد له لحن . فهم يغنون كل ألحان الشعوب ، ولا يغنون لحناً واحداً . وهم مختلفون ممزقون متناحرون . ومستحيل أن يتفقوا على شىء . ولذلك كانت محاولات الأحزاب الدينية والسياسية أن تستولى عليهم .

وقد ظهر ذلك صارخاً فى نظم التعليم فى إسرائيل .. فمن الذى يعلم من ؟ وما الذى يعمله ؟ وما الفائدة التى يجنيها المرء من وراء هذه الحشود الضالة من المهاجرين من كل أرض ومن كل سن ومن كل مذهب دينى أو لا دينى ؟

وكان من الطبيعى أن تنقل معارك الأحزاب إلى المدارس والمعاهد . فكل مذهب يريد مثلاً أعلى للمواطن . واختلفت المثل العليا . فقبل إلغاء الانتداب البريطانى على فلسطين كانت هناك مدارس دينية فى المدن المقدسة : القدس والخليل وصفد وطبرية . وكانت هذه المدارس تتلقى الهبات من يهود العالم ولم تكن هذه المدارس واضحة المعالم . وإنما أهم برامجها هو التاريخ اليهودى . التاريخ السياسى والدينى . ولم يكن أحد يراعى نسبة الدين إلى الدنيا فى تعليم الأطفال أو الشبان . وإنما كل مدرسة تجتهد فى تصورها لما يجب أن يكون عليه المهاجر اليهودى أو المستوطن الجديد .

ولكن حدث فى سنة ١٨٦٥ أن أنشئت مدرسة لادينية فى القدس . فبرامج التعليم لم تكن ترى أن اليهودية هى دين : وإنما اليهودية هى الشعب الضال الممزق فى كل أرض . وترى ضرورة تجميعه بالذوق أو بالقوة فى مكان واحد وإرغامه على البقاء بأى ثمن . وعندما أحست الفئات الدينية بهذه النزعة الإلحادية فى المدارس،ثارت المعابد على المدرسة ، وسار المتدينون فى الشوارع يبكون ويقفون عند حائط المبكى ينفخون فى البوق — الشوفر — ويعلنون : كافر كل من يذهب إلى هذه المدرسة . . هو وأبوه وأمه . . حرام كل من يلمس أحداً ذهب إلى هذه المدرسة . .

ورجال الدين لم يشفع عندهم أن هؤلاء المهاجرين قد جاءوا إلى إسرائيل لأسباب قومية ، لا لأسباب دينية . . فهم أناس بلا وطن .وهم منبوذون . وهم أقلية حقيرة . أما الدين ففى صدورهم .. أو أن الدين هو الذى فرض عليهم الهوان . ولكن « الوطن » أو « العثور على وطن » هو الذى ينقذهم جسماً وروحاً . فلا داعى إذن لتعذيب المهاجرين الجدد من أجل دينهم أو بسبب دينهم .. كأنهم غرباء فى أرض غريبة .

ولكن الإنجليز لم يتدخلوا فى تعليم اليهود ، وإنما تركوا لكل فئة سياسية أو دينية أن تعلم أبناء الطائفة اليهودية على النحو الذى تريد . .

وتنازعت الهيئات الدينية والصهيونية سياسة التعليم فى المدارس والمعاهد . ولم تتفق على شيء وظل الطلبة وأولياء الأمورحيارى لايعرفون لهم رأساً أو رئيساً أو وجهة يستريحون فى السير إليها .

ولكن اليهود وقفوا أمام هذه المدارس ببرامج واضحة الاختلاف . فالوكالة اليهودية الصهيونية ترى أن التربية القومية هى أساس كل علم . وأن اليهودى يجب أن يعرف أنه كذلك . . وأنه يجب أن يبقى يهودياً ليواجه يهود العالم « القومية العربية » والوحدة العربية . . بالوحدة اليهودية والقومية اليهودية — أى

الصهيونية . ولابد من أن يدرس المواطن اليهودى دينه . ولكن الدين يجىء فى المرتبة الثانية بعد القومية والوطنية والتعصب الشديد لها والموت فى سبيلها . .

* * *

أما المذاهب الدينية فترى أن الدين أولاً وأخيراً ومن خلال الكتب المقدسة يستنتج الإنسان ما ينفعه فى دنياه . فلا التوراة كانت عبثا ، ولا موسى عندما خرج وهرب وعاد وصعد ليكلم ربه وعندما هبط بالوصايا العشر ، كل ذلك لم يكن نشاطاً وحماساً من موسى فقط . . وإنما هو « تكليف » سماوى بأن يقود شعبه من الضلال إلى اليقين ، ومن مصر إلى أرض الميعاد . . هذا هو الأساس الواضح لكل حياة يهودية . ولذلك فالتوراة والتلمود والمشنا والجماره كتب مقدسة باقية وفى بقائها بقاء للشعب اليهودى.

أما حزب العمال وغيره من الأحزاب اللادينية فترى أن المواطن اليهودى يجب أن يتسلح بالعلم . وألا يكتفى بالعلم ، النظرى وإنما يجب أن يكتسب براعات يدوية . فاليهود لم تكن لهم أرض ولذلك لم يعرفوا الزراعة . فمن الواجب أن يزرعوا وأن يعملوا بأيديهم . . ليرتبطوا بالأرض ويحرصوا عليها ويضاعفوها ويدافعوا عنها . وأن يتساوى الرجال والنساء فى العلم والعمل .وأن تضيق المسافات بين كل المذاهب عن طريق العمل اليدوى . وأن ينتظم العمال ، فى نقابات لا فى مذاهب دينية . . ولا مانع من أن يهتم الطلبة الصغار بالدين بعض الاهتمام وليس كل الاهتمام . فإن رجال الدين لم يصلوا « بالديانة » إلى إسرائيل وإنما كانوا فى مقدمة المهاجرين وعند مؤخرتهم . . ولكن الزحف المتوالى كان للساسة والعمال . . أو للعمال الساسيين . . ولذلك يجب أن يكون المواطن اليهودى عاملاً سياسياً !

ولابد أن تكون هناك اتجاهات متطرفة . فاليهود متطرفون يعيشون على التوافق بين الأطراف .. فهناك الأحزاب الدينية التى تنصر قيام الدولة من أولها لآخرها – كما أشرت إلى ذلك من قبل – لأن قيام الدولة هو تدخل فى إرادة السماء . وكان من الواجب أن يبقى اليهود مبعثرين فى كل أرض حتى يجىء

المسيح المنتظر وينقذ أغنامه الضالة ويقودها إلى أرض الميعاد – وليس من الضرورى أن تكون هذه الأرض هى فلسطين .

واستمرت المعارك بين الأحزاب من أجل أن يكون هناك لحن واحد يردده كل الطلبة من كل لون وعقيدة . وكان لابد أن تجد الحكومات المتوالية حلاً فى الإشراف ، أو فى شكل من الإشراف على المدارس ، ووجدت الحل ، ووجدت المذاهب حلاً آخر . . فالدولة قد وضعت البرامج العامة للتعليم . والمذاهب الدينية والسياسية قد أضافت من عندها جرعات من السياسة والدين . . وكانت الدولة لها إشراف على كل المدارس فيما عدا الجامعة العبرية بالقدس والكلية الفنية فى حيفا .

وتجددت المشاكل كلها مرة فى داخل المستعمرات – **القبوتس** – فهذه المستعمرات تتبع الأحزاب السياسية والدينية . توجهها وتنفق عليها أو توجهها لأنها تنفق عليها وعادت الفوضى مرة أخرى . ولكن هذه المستعمرات لاتستطيع أن تعول نفسها . . ولذلك كانت تطلب المعونة من الدولة . وكل معونة مشروطة وشروط الدولة هى ألا ينفرد حزب بتوجيه المستعمرات على النحو الذى يريد . ولما كانت كل حكومات إسرائيل ائتلافية من كل الأحزاب ، فلم يستطع حزب أن ينفرد بالتوجيه العام للمستعمرات . وكانت هذه المستعمرات نموذجاً ناجحاً لفشل اللامركزية . فهذه المستعمرات تتبع الأحزاب المختلفة . . فليس لها برنامج واحد . ولا هدف واحد . والذى تحاوله الأحزاب يحاول الجيش أن يحطمه بأن يجذب الناس بالقوة والقسوة . فالمواطن الإسرائيلى ممزق بين الحياة من أجل حزبه وبين حياة الجيش الذى يجب أن يتجاهل كل حزب .

وفى سنة ١٩٤٩ صدر قانون التعليم الإجبارى على كل مواطن . وأصبح من حق وزير التربية والتعليم أن يستثنى بعض الحالات التى لاترى ضرورة التعليم فى مدارس لادينية ، أو أبناء الطائفة التى تنكر قيام الدولة ولاترى أن تشاركها فى أى شىء .

ولكن أعنف صورة من صور الصراع بين الأحزاب كان فى نفس هذه السنة أيضاً . أما المشكلة فهى : **ما الذى يتعلمه اللاجئون الجدد فى المخيمات** –

« عبروت » . . ؟ لقد دخل إسرائيل فى هذا العام ٢٣٩ ألف لاجىء . أكثرهم من أسيا وأفريقيا. وأكثرهم متدينون . ومعهم أطفال فى سن الدراسة . ومن بين هؤلاء المهاجرين خمسون ألفاً من اليمن نقلوهم بالطائرات فى العملية المعروفة باسم « البساط السحرى » - وهى قصة يتندر بها اليهود .

وهناك وجه آخر لهذه المشكلة : فهذا العدد الكبير من اليهود قوة سياسية أو سوف تصبح قوة سياسية . ولذلك لايمكن للأحزاب السياسية أن تتجاهلها أو تتفرج على الأحزاب الدينية وهى تلتهم هؤلاء الناخبين ، دون أن تتقدم بشىء . وتقدمت الأحزاب السياسية بضرورة أن يترك هؤلاء المهاجرون يختارون الأسلوب الذى يتعلمون به . وكان هذا الاقتراح مضحكاً . فإن أكثر هؤلاء المهاجرين لايفهمون معنى لما يقال . إنهم يهود مهاجرون إلى أرض قيل إنها مقدسة . وهذا واضح من أنهم عندما هبطوا إلى مطار اللد ،راحو يقبلون الأرض ويضعون التراب على رؤوسهم ويتمرغون على المطار ويبكون وكان ضحك الناس عليهم أكبر دليل على الفارق الهائل بينهم وبين الذين سبقوهم بالهجرة .

ولم تتفق الأحزاب وهددت الوزارة بالسقوط . وتأزم الموقف واستقال بن جوريون سبقه إلى ذلك ثلاثة من الوزراء متهمين الحكومة بأنها ترغم الناس على دراسة مالا يريدون .

وتركزت كل المعارك فى سنة ١٩٥٠ حول أبناء اليمن وهى « الخامة الأولية لمواطن يمكن تشكيله على النحو الذى تريد . والذى يريد هو . وهو لا يريد إلا أن يكون يهودياً مؤمناً بلا خوف من أحد » - كما تقول الجبهة الدينية المتحدة .

وتشكلت لجنة لتقصى الحقائق . ورأت إقامة « عبروت » - أى مستعمرات مؤقتة ، لتأهيل المهاجر لأن يكون مواطنا جديداً . ولذلك يجب أن تعلمه الدولة كل ما تستطيع حتى يكون يهودياً مؤمناً . وأصر بن جوريون على الاستقالة لأن هذه الخلافات تؤدى إلى تمزيق الدولة فى الوقت الذى يتحد حولها أعداؤها من العرب .

ونشر الأدباء اليهود قصصاً عن اليمنيين مضحكة . ولابد أن يكون هؤلاء الأدباء من الأحزاب الأخرى . بل إن هذه القصص المضحكة قد نشرت فى كتب

يبعث فى أسواق عالمية . من بين هذه القصص أن أحد اليهود اليمنيين طلب عند وصوله إلى مطار اللد ، إن كان الملك سليمان فى قصره . . وطلب آخر إن كان أشعياء قد عاد ليلقى المهاجرين إلى أرضه . . وواحد يمنى فقط هو الذى قرر أن يعود إلى اليمن أو إلى أى مكان لأنه اكتشف فجأة أن يوم رحيله إلى إسرائيل كان يوم سبت وهذا هو منتهى الكفر ، وأنه يفضل أن يشنق كل أيام الأسبوع على أن يبعث حياً يوم سبت !

ولكنها معركة على أصوات الناخبين . . وأكثر هؤلاء اليمنيين قد أعطوا أصواتهم للأحزاب الدينية . . فأكثر الأحزاب السياسية من البيض ، واليمنيون ملونون . . وأكثر الأحزاب السياسية ملحدة . وهؤلاء اليمنيون مؤمنون . . ولذلك كانت موقعة الأصوات اليمنية تساوى ما بذلته الأحزاب الدينية من حبر ودم على أرض البرلمان وأمام حائط المبكى .

وفى سنة ١٩٥٣ صدر قانون يعطى لكل مواطن الحق فى أن يختار لابنه المدرسة التى تعجبه . وكانت النتائج الأولية لهذا الاختيار :

٤٠ ٪ اختاروا المدارس اللادينية .

٢٧ ٪ اختاروا المدارس العامة التى يتلقى فيها الطلبة دينهم ودنياهم بنسب معقولة . . .

٢٠ ٪ ذهبوا إلى المدارس الدينية .

١٣ ٪ اختاروا المدارس الدينية المتطرفة والتى تنكر قيام الدولة بكل هيئاتها ، وترى أن إسرائيل هى أكبر زندقة ابتدعها الملحدون الروس وصدقها رجال الدين الأمريكان والإنجليز .

* * *

وأصبح لوزير التربية والتعليم نائبان أحدهما حاخام وهو الذى يختار المفتشين على الشئون الدينية فى كل المدارس . وحاولت الدولة ولا تزال أن يكون لها سلطان على المستعمرات التى أنشأتها الأحزاب الدينية حتى يكون هناك نصيب من الدراسات القومية بين برامج التعليم . وهذه المحاولات لم تنته إلى نتيجة

واضحة . فمن مشاكل الدولة : أن هناك نوعيتين صارختين من المستعمرات . مستعمرات تديرها الأحزاب الملحدة . وقد خرجت هذه المستعمرات ألوف الشبان الذين يجهلون التاريخ اليهودى . ويرون أن البكاء على الماضى لا معنى له . وأن من الأفضل أن يتجه الشبان إلى المستقبل . وأن من حقهم أن يعيشوا وأن يتزوجوا وأن يتفسحوا كما يفعل الأمريكان والألمان اليهود . وأنه لامعنى للحزن والبكاء على ما أصاب اليهود من مئات السنين وأن الحياة فى المستعمرات هى نوع من العثور على جريمة لم يرتكبوها .

فكأن هذه المستعمرات قد علمتهم كيف يكفرون بها . ويتعاونون على هدمها . ونوع آخر من الشباب المتهوس دينياً . . وهذا الهوس الدينى قد جعله يكره كل شىء ويكره أن يكون يهودياً . ويكره أن ينعم بأى شىء لأنه لم يصف حسابه مع كل الشعوب الأخرى . . . وأنه يجب أن يحمل سلاحه ويطالب بدم كل الذين ماتوا وأحرقوا فى روسيا وبولندا وألمانيا وأسبانيا .. وأن الثأر والاحتقار والغضب هى أشرف مشاعر الإنسان . وأن الإسرائيلى يجب أن يحمل سلاحه وأن ينفخ فى البوق إعلاناً لحرب لاتنتهى . وأن هذا الشباب يجب أن يقاوم كل نزعات الانحلال الموجودة فى إسرائيل نفسها . وألا يجلس مع يهودى لايحمل سلاحاً ولا ينفخ فى بوق لكل صغيرة وكبيرة . وأن الرب قد خلق عينى الإنسان ليبكى ، ووسع صدره ليغضب ، وخلق يديه ليقتل .

وكل ما تحاوله الأحزاب فى إسرائيل وهى كثيرة وتتكاثر هو كيف يمكن أن يكون لحن واحد لكل الناس وأن يكون له مضمون واحد هو : من الذى نقتله ؟ هل نقتل أنفسنا أو نقتل غيرنا . . يجب أن نتفق على من هو القاتل ومن هو القتيل . وهذا هو أساس التربية الإسرائيلية فى كل مدارس الدين والدنيا !





دماء على الباخرة شالوم

لن تنتهى معارك رجال الدين . صحيح لهم إشراف على كثير من الهيئات . ولكنهم يطلبون المزيد من التدخل فى الحياة المدنية العامة لكل الناس . وأقوى معاركهم وأعنفها هى معركة الباخرة « شالوم » . هذه باخرة ركاب ومن مفاخر البحرية والسياحة الإسرائيلية وهى كأرض إسرائيلية يجب أن يجرى عليها مايجرى على أية مدينة أو سفارة لإسرائيل ..

بدأت المعركة بأن أعلنت شركة « زيم » التى تمتلك هذه الباخرة بأنه من الضرورى أن يكون بها مطبخان أو نوعان من الطعام . الطعام الحلال لليهود . والطعام الحرام لغيرهم . فى المطبخ المحرم يقدمون لحم الخنزير للمسيحيين . أما المطبخ الحلال فهو الذى يراعون فيه كل الطقوس اليهودية .

وقبل أن ندخل فى هذه المعركة لابد أن نوضح ما هو بالضبط « الحلال » .

أى الكوشير – وما هو الحرام من الطعام . فاليهود لهم طقوس صعبة جداً وشديدة التعقيد ولابد من اتباعها . أما لماذا فرض اليهود على أنفسهم كل هذه الحدود والقيود فى الطعام والشراب فسبب ذلك أنهم يعتقدون أنهم شعب مقدس . ولذلك يجب أن يمتازوا عن الناس ، مهما كلفهم ذلك أو أن الشعب اليهودى كما وصفتهم التوراة « غلاظالرقاب » أى لايلينون بسهولة . . ولذلك لابد من الضغط عليهم وربطهم بالحديد . أى مواجهة أعناقهم الغليظة بقيود أشد غلظة .

مثلا : لا يمكن أن يأكلوا الفواكه إذا قطفت من الشجرة . لابد لها من قواعد ولا يأكلون من الشجرة التي أثمرت لأول مرة . حتى البذور التى وضعت فى الأرض بغير الطريقة الشرعية مع الصلوات عليها ،فإن فاكهتها حرام .

وكذلك لأطباق والحلل والسكاكين والملاعق لابد من غسلها مع الصلاة عليها . فإذا كانت هذه الأدوات قد اشتريت من يهودى ، واليهودى اشتراها من مسيحى أو مسلم فلابد من غسلها والصلاة عليها .

أما اللحوم فهى مشكلة المشاكل عند اليهود . ولابد من الذبح بطريقة خاصة ولابد من سكين من نوع معين ثم إن ذبح الحيوانات لابد أن تجرى السكين على العنق مرة واحدة وفى اتجاه واحد . ولابد أن يوضع اللحم فى الماء حتى يمتص الدم . وبعد ذلك لابد من غليه فى الماء . ولا يطبخ اللحم واللبن معاً . هذا حرام . ولا يأكلهما أحد معاً ، ولا يأكلون الدهن مطلقاً . **وفى ذلك يقول موسى بن ميمون فى كتاب «دلالة الحائرين» : الدم والدهن لله – فلا يأكلهما الإنسان . .**

والدم بكل صوره ممنوع فيما عدا دم السمك . ولا يأكلون عروق فخذ الحيوانات . وسبب ذلك أن يعقوب فى صراعه قد أصبح أعرج !

وكل لحم يلمسه إنسان كافر ، حتى لو كان يهودياً فهو حرام . فقط رجال الدين هم وحدهم الذين يلمسون اللحم . وهم الذين يذبحون . وهم الذين يطبخون اللحم .

وإذا اشترى اليهودى خبزاً من شخص غير يهودى فهو حرام إلا إذا كان الذى خبزه فى الفرن رجل يهودى !

ومن الممكن أن يكون فى البيت طباخ ليس يهودياً ، ممكن ، ولكن يجب على صاحبة البيت أن تدخل المطبخ من حين لآخر . . وتذوق الطعام . وتنقل الملعقة من فمها إلى كل إناء . . وأن تقرأ بعض الآيات .

واللبن والجبن وأى طعام إذا اشتراه اليهودى من رجل ليس يهودياً حرام ، لأن هذا الرجل لم يراع الطقوس اليهودية فى إعداد اللبن أو الجبن .

واللحم والسمك حرام أن يأكلهما اليهودى معاً . فعند اليهود اعتقاد أن السمك واللحم يؤديان إلى البرص .

وتقول التوراة إن الإنسان قد خلق ليأكل النباتات والفواكه فقط . «سفر التكوين : الإصحاح الأول : الآية ١٩ » . . ولكن حدث بعد الطوفان أن توافرت الحيوانات وسمح لهم الرب بأكل اللحوم بشرط أن يمتنعوا عن الدم . « سفر التكوين : الإصحاح التاسع : الآية ٣ » .

* * *

وهناك شروط أخرى كثيرة لكى يكون الطعام حلالاً . وعلى الباخرة شالوم وغيرها من الممتلكات الحكومية يجب أن تراعى ذلك .

وقد أصرت شركة الملاحة الإسرائيلية على تزويد الباخرة بمطعمين أحدهما دولى والآخر يهودى . وبذلك تستطيع الشركة أن تنافس الشركات الأخرى العالمية . وحتى لايهرب منها السياح والمسافرون المسيحيون . ووعدت الشركة بأن تراعى كل الشروط الدينية فى المطبخ اليهودى . وطلبت إلى الهيئات الدينية أن تشرف على المطبخ اليهودى .

ولكن الهيئات الدينية فى إسرائيل اعترضت . وأعلنت أنه لابد من تطبيق القوانين الشرعية على الباخرة لأنها من ممتلكات الدولة . وأنه ممنوع منعاً باتاً تقديم أى طعام حرام . وأن الشركة الملاحية يجب أن تنصاع لهذه الأوامر تماماً كما فعلت كل طائرات شركة العال التى تقدم الطعام اليهودى فقط . وقال الحاخام الأكبر : إن شركة زيم لن تخسر شيئاً إذا راعت دينها . فهى أرض إسرائيلية ونافذة ومجتمع وصورة حية متحركة للشعب الذى شرب المر ألوف السنين ، ويجب أن يبدو أكثر الشعوب احتراماً لنفسه وتاريخه ودينه . . .

وهددت الهيئات الدينية بأن تسحب من الباخرة رخصة فتح مطعم يهودى وأن تسحب هذه الرخصة من كل المطاعم الموجودة فى سفن هذه الشركة .

ولجأت شركة الملاحة إلى حيلة ، فقد طلبت ترخيصاً من أكبر الهيئات الدينية فى أمريكا . ونشرت فى الصحف أن الحاخام الأكبر فى أمريكا وافق على أن يسمح للباخرة بمطبخين . ولكن الحاخام الأكبر فى إسرائيل هدد بقطع كل صلة بيهود أمريكا . ونشرت الصحف اعتذاراً « كاملا » تقول فيه إنه لم يحدث أن وافق الحاخام على شيء من ذلك .

ولجأت الشركة إلى إعلان تطلب فيه : مطلوب رجل دين يشرف على المطبخ اليهودى فى الباخرة شالوم .

وأعلن الحاخام الأكبر أن أى إنسان يقبل هذه الوظيفة سوف يجرده من دينه فوراً وهدد الحاخام أمريكا بأن يحرم ركوب هذه السفينة وأية سفينة تابعة لها . . ويحرم ركوب طائرات العال إذا سارت وراء الشركة الملاحية . .

وطلبت الشركة أن تلتقى بالحاخام الأكبر .

ولم يقتنع طبعاً . وهدد الشركة بأنها إذا لم تعلن فى مدة أسبوعين عن موقفها بوضوح فسوف يسحب ترخيصه لكل المطابخ الموجودة فى سفنها .

ولجأت الشركة إلى وزير المواصلات لعله يتوسط بينها وبين الحاخام الأكبر . . ثم عادت فطلبت إلى وزير الشئون الدينية أن يعينها على رجال الدين ولجأت الشركة إلى المحكمة العليا معتمدة على حرية الاعتقاد التى وردت فى إعلان الاستقلال . وقالت الشركة : **إن الناس فى إسرائيل قد ضاقوا بهذه القيود . وإن رجال الدين قد أسرفوا على أنفسهم وعلى الناس . . وأنه ليس من المعقول أن تتحول باخرة غالية الثمن وجميلة إلى « حارة يهود » عائمة !**

وأخيرا انتهوا إلى حل معقول وهو أن الباخرة إذا كانت متجهة إلى إسرائيل فالمطبخ اليهودى هو الذى يقدم طعامه . وإذا كانت فى رحلات دولية فالمطبخ العادى هو الذى يقدم طعامه . ولكن رجال الدين لم يوافقوا على ذلك . وهدد الحاخام بسحب تراخيص الطعام الحلال فى كل سفن شركة زيم .

وفى سنة ١٩٦٧ حلت شركة زيم مشكلة هذه السفينة بأن باعتها إلى شركة ألمانية غربية . فقد كانت سفينة فادحة التكاليف !

وفى سنة ١٩٦٨ ضاعفت الهيئات الدينية تشددها . وهددت أصحاب المطاعم بتحطيم النوافذ والأبواب إن فتحت أبوابها أو قدمت طعاماً يوم السبت من كل أسبوع . وصرخ أصحاب الفنادق والمطاعم . ولكن خفف رجال الدين قبضتهم على الفنادق والمطاعم لأسباب سياحية . . وأصرت الهيئات الدينية على أن يتوارى الناس أثناء الطعام ابتداء من غروب الشمس يوم الجمعة حتى غروب الشمس يوم السبت . .

ومن المؤكد أن رجال الدين يتلاعبون فى المطاعم والفنادق ، ويحاولون أن يتسللوا باسم الدين إلى حياة الناس . . وذلك بأن يكون لهم رجال يعملون . . وآخرون يشاركون . وغيرهم يفتشون .

* * *

وأما المعركة الثانية لرجال الدين فكانت موقعة « سلخانة المربك »

وقد بدأت هذه المشكلة سنة ١٩٦٤ . . ففى هذا العام اكتمل هذا المذبح الآلى . وقد اشتركت عدة مستعمرات فى بنائه واستثماره . ومن بينها مستعمرات دينية متطرفة . ولكن وزارة الشئون الدينية لم تصرح لهذه السلخانة بأن تعمل إلا إذا أشرفت تماماً على بيعها أيضاً .

غير أن السلخانة أعلنت أنه يكفى جداً أن تراعى الطقوس الدينية أثناء الذبح ، لأنه من الممكن أن تصبح هذه اللحوم حراماً بمجرد خروجها من السلخانة كأن يمسها مسيحى أو مسلم . وقال مجلس إدارة السلخانة إن هذا التشدد من وزارة الشئون الدينية لم يعد له ما يبرره الآن . فقد كان شرط الإشراف على البيع والطبخ ضرورياً أيام كان اليهود فى الضياع .. أما الآن فاليهود معاً .. يذبحون معاً . . ويبيعون لبعضهم البعض فلا خوف من تسلل مسيحى أو مسلم بينهم .

ثم قالت السلخانة: إن وزارة الشئون الدينية تعارض فى أن يكون للسلخانة الجديدة أى نشاط لأن الوزارة لها سلخانة أخرى تنافسها . وإن هذه السلخانة تتبع بلدية تل أبيب . فوزارة الشئون الدينية لها مصلحة مباشرة فى تعطيل سلخانة المربك هذه ، فسبب الاعتراض اقتصادى بحت وليس دينياً وردت الوزارة بأن عندها أسباباً دينية واضحة وهى أنه يتحتم الإشراف التام على اللحوم أثناء الذبح وأثناء التوزيع وعند البيع وأعلنت السلخانة أنها لاتريد أن يتدخل أحد فى شئونها . لأنها قد اتفقت مع هيئات دينية أن تشرف على كل شىء وأن تراعى تعاليم الدين بمنتهى الدقة .

وانتهى الخلاف عندما أعلن الحاخام الأكبر تشكيل هيئة تشرف على الذبح وعلى التسويق وعلى البيع . .

ولكن كان لابد للسلخانة أن تطبق تحفظاً هاماً وهو أن يباع اللحم الحلال للجزارين الحلال – أى المرخص لهم ببيعه . ولجأت السلخانة إلى واحد من جماعة « حراس المدينة » المتعصبين جداً بالإشراف على السلخانة . ولكن الحاخام الأكبر هدد بسحب رخصة السلخانة وتحريم كل ما يخرج منها .

وذهب مجلس إدارة السلخانة إلى المحكمة العليا ، ولكن المحكة العليا دفعت بأن مثل هذه القضايا الشرعية ليست من اختصاصها ، وأنه أفضل للشركة صاحبة السلخانة أن تتفق مع الحاخام الأكبر .

وفى أغسطس ١٩٦٤ استسلمت السلخانة لكل مطالب الحاخام الأكبر ، وأشرف رجال الدين تماماً على اللحوم حية وميتة !

* * *

وفى سنة ١٩٥٣ ثار رجال الدين على قانون التشريح – أو القانون المعروف باسم قانون « علم أمراض وتشريح الجثث » فقد اعتادت المستشفيات الإسرائيلية على تشريح جثث الموتى دون موافقة أهل المتوفى .. ودون تصريح من الشخص قبل وفاته . أو دون أن يكون هناك سبب واضح من فائدة عامة أو دون أن يكون هناك خوف على الصحة العامة .

وتقرر تعديل هذا القانون وكان الشرط الأساسى ألا يقوم الأطباء بتشريح أية جثة دون أن يوقع ثلاثة من الأطباء على قرار تشريح الجثة – فلا ينفرد طبيب بتشريح أية جثة !

وأدخل تعديل على القانون سنة ١٩٥٥ . . وكان الشرط لتشريح جثة أن يكون ذلك من أجل الصالح العام .

وفى خارج إسرائيل نشرت جمعية اسمها « جمعية كرامة الإنسان فى إسرائيل » بياناً فى النيويورك تيمس بعنوان : لا تشرحوا الموتى : وجاء فى البيان أن المستشفيات تشرح الموتى بالجملة . مع أن الدين ينص على ضرورة دفن الميت وعدم المساس بجسمه . . **وجاء فى البيان أنه لايحدث فى أى بلد فى العالم ما يحدث فى إسرائيل من وحشية . ففى إسرائيل هيئات علمية تتولى تشريح هذه الجثث وتشتريها . وهناك سوق رائجة للحوم البشر . . وأكد البيان بأدلة ووثائق دامغة أن نسبة تشريح الموتى فى كل مستشفيات إسرائيل تصل إلى ٨٠ ٪ بما فى ذلك مستشفى « هداسة »** بالقدس . على الرغم من أن الكثيرين من المرضى يطلبون من المستشفيات تعهداً بتسليم جثتهم فى حالة الوفاة إلى أهليهم . وكانت المستشفيات تفعل ذلك .

وفى ٧ يونية سنة ١٩٦١ أصدرت وزارة الصحة قراراً بإلغاء هذا التعهد . وأن أى مريض يصر على هذا التعهد يجب طرده من المستشفى فوراً .

ولم تفلح الدولة فى أن تمنع الأطباء من تشريح جثث الموتى . واستمر ذلك حتى الآن .

والعجيب أن عدداً من الحاخامات الأمريكان المقيمين فى إسرائيل طلبوا من أمريكا حمايتهم من التشريح بعد الوفاة .

وقامت المظاهرات فى كل مكان ونفخوا فى الأبواق عند حائط المبكى ، وبكوا وعلقوا الصور للأطباء الوحوش مصاصى الدماء .

ولما اشتعلت حرب ٦٧ أوقفت هذه الحملة ، لاعتبارات تتعلق بالأمن العام . ولكن هل الموتى عادوا يثورون من جديد على الأطباء ووزارة الشئون الدينية !



طائرة تقودها سيدة حامل أكذوبة

عبارة مشهورة فى إسرائيل : شعب له دين أصبح له جيش .. أو شعب له ماض ، فأصبح له مستقبل . ومستقبله فى حاجة إلى جيش يحميه ، ولكن ، ككل شىء فى إسرائيل ، لا اتفاق تاماً على هذه العبارة أو على معناها أو على ضرورة استخدامها . فالدين هو الذى ظل يحمى اليهود مئات السنين - هم يقولون ذلك - ولكن الدين فى حاجة الآن إلى حماية من نوع خاص . فالجيش هو الذى يحمى للدولة دينها ودنياها .

ولكن الأحزاب الدينية تعترض على مثل هذه العبارات التى تجعل شيئاً أهم من الدين . ولذلك فهناك أحزاب تحرم الالتحاق بالجيش وترى أن حمل السلاح كفر . ولكن لا يمكن إغفال أهمية الدولة والدفاع عنها بكل الطرق والحيل المشروعة وغيرها . فالأغلبية من شعب ترى أن الجندية واجب على كل مواطن ، وهناك شروط كثيرة . بعضها أمكن تحقيقه .

ففى أول دورة برلمانية كان الشعور العام أنه بغير الجيش لم تقم هذه الدولة .

وقيل أيضاً بغير دين لم يقم هذا الجيش الذى أقام هذه الدولة .

والمعنى أن الجيش والدين ضروريان . ولذلك فأهم المناصب الوزارية : وزارة الدفاع ووزارة الشئون الدينية . ولكى يكون هناك ائتلاف شامل يجب أن يتعاون الوزيران معاً على أن يكون التجنيد إجبارياً ، وأن تكون تعاليم الدين مطبقة

حرفياً .أما تعاليم الدين فتقوم على احترام الصلوات وأيام الصوم . وأن يمتنع الناس عن العمل والتدخين فى يوم السبت . لابد . وأن يمتنع الناس عن الطعام الحرام فى عيد الغفران . وألا يأكل الجنود الخنزير . وألا يأكلوا إلا بالطريقة الحلال – الكوشير – وأن يتولى ذلك كله واحد من رجال الدين . وأن يكون مع كل تشكيل عسكرى أياً كان عدده حاخام شاب وأن يزود كل جندى بنسخة من التوراة . وكتاب للصلوات . وأن يوضع فى كل دبابة وطيارة وغواصة وسيارة نسخة من التوراة . وأن يراعى الحاخام المرافق للجنود تعاليم الدين تماماً فى الطعام والشراب والموت والدفن والصلاة على الميت أمام هيكل سليمان . . وكل وحدة عسكرية معها نموذج صغير للهيكل . . وكل حاخام معه بوق ينفخ فيه عند الصلاة أو إذا أراد أن يدعوهم أو يلفت نظرهم أو يثور عليهم . . هذه ضرورة لأن يكون هناك وفاق بين الأحزاب السياسية الملحدة والأحزاب الدينية .

وهناك إدارة دينية ملحقة بالوزارات هذه الإدارة لها ميزانيتها ولها مطابعها ولها صحفها . وهى التى تتولى طبع التوراة وتوزيعها . وتصديرها . وهى التى تقوم بإعداد الحاخامات وإرسالهم إلى القوات فى أقصى المواقع العسكرية وقد رأينا ذلك فى حرب أكتوبر عندما استسلمت لنا مجموعة كاملة وكان ضمنها حاخام صغير .

***

ولابد من مشكلة يختلف عليها اليهود

وجاءت المشكلة بسرعة وهى : هل تجند المرأة فى الجيش ؟

وكل الأحزاب الدينية على اختلاف درجاتها فى التعصب اتفقت على أن تجنيد المرأة حرام . فالمرأة للبيت . والرجل للغيط أو الجيش .

ودارت مناقشات حادة تنتهى عادة بالتهديد بالانسحاب من الوزارة واهتدى أحد السياسيين إلى حل سعيد هو : أن يقرر البرلمان أن التجنيد إجبارى على الرجل والمرأة . ثم يصدر إعفاء للمرأة من الجندية . لكن المبدأ يجب أن يتقرر . واعترضت الأحزاب السياسية لأن هذا معناه التمييز بين الرجل والمرأة .

واقترح آخرون أن المرأة المتدينة إذا رفضت الالتحاق بالجيش ، فيجب تكليفها بعمل آخر فى الخطوط الخلفية للجيش . . واقترح جماعة من المعتدلين أن تقوم المرأة بأعمال غير عسكرية . . وكان مصير هذا الاقتراح الرفض أيضاً .

وكانت المناقشات العنيفة على سنوات عديدة ، وكان من الطبيعى أن يقترح أحد أن تعمل المرأة فى المستشفيات أو الأعمال المكتبية ، ووافق الجميع بشرط ألا يكون ذلك تطبيقاً لقرار تجنيد المرأة كالرجل تماماً .

وحاول بن جوريون أن يجد حلاً وسطاً ولكنه لم يستطع ، وهدد بالاستقالة وباركت الأحزاب الدينية ذلك . ولكن الوزارة أرجأت النظر فى هذه القضية القاضية على كل ائتلاف وزارى .

وفى سنة ١٩٥١ تجددت المحاولات بالسماح للمرأة بأن تعمل فى المستعمرات أو المستشفيات أو المزارع أو المدارس أثناء الحرب أو الاستعداد للحرب . واعترضت الأحزاب الدينية على أساس أن إسرائيل فى حالة حرب دائمة . وأن هذا تطبيق للقانون الذى رفضته الأحزاب الدينية . وقال أحد الحاخامات : إننا ندور حول الشجرة مع أن المطلوب هو أن نقطعها . فليس فى حياة إسرائيل ما يجعلها تتنكر للدين . إن الكفر شامل وعام ، ويجب ألا يكون الكفر والإلحاد والزندقة والانحلال كاسحاً لكل ما تبقى من الديانة اليهودية .

وأعلن الحاخام إسحق مائير أن تطبيق القانون الذى تطالب به الدولة حرام. وأنه يدعو إلى التمرد عليه . وأنه يفضل السجن والإعدام على تطبيق قانون الخدمة العسكرية للمرأة .

والحاخام الأكبر هدد بالإضراب عن الطعام ، ودعا الناس جميعاً إلى الصيام والامتناع عن العمل وأعلن أمام حائط المبكى : إننى أفضل أن تمتلىء سجون إسرائيل بالفتيات على أن ينفذ هذا القانون . فإلى السجن يا بنات إسرائيل !

أما حاخام جماعة « حراس المدينة » فطلب من جميع الفتيات أن ينتحرن وتحركت مظاهرات عدائية للدولة وقد أمسك المتظاهرون الحجارة والأسلحة والمواد الناسفة للبرلمان وأعلنوا الحرب المقدسة على « **الملحدين الذين يدنسون الأرض المقدسة بأفكارهم المنحله المنحرفة والذين يريدون أن يهدموا ما تبقى من هيكل سليمان** »

وحاول بن جوريون يائساً أن يجد حلاً . ووجد الحل في أن يسكت حتى تمر هذه العاصفة وسكتت العاصفة لتتجمع وتكون أعتى وأعنف بعد ذلك !

وأدخلت تعديلات كثيرة على قانون الخدمة العسكرية . ومن أهم هذه التعديلات أن كل فتاة فى الثامنة عشرة حتى السادسة والعشرين غير متزوجة وأعفيت من الخدمة العسكرية لاعتبارات دينية ، يجب أن تساهم فى الخدمة العامة . أى يجب أن تساهم بأى شيء من أجل الوطن . ولا أحد يعترض على أن يعمل أى مواطن أى شيء من أجل بلده . فالدولة فى حالة حرب . ولايمكن أن يحارب أناس ويتفرج عليهم آخرون . أويجب ألايحارب الناس من أجل المتفرجين عليهم . ففى أثناء الحرب لا أحد يتفرج على أحد .

وعلى الرغم من قدرة رجال الدين على هذا التعديل ، فإن أحداً لايستطيع أن يجد نصاً فى أى دين يدعو إلى السلبية المطلقة والجميع فى خطر .

وتدخلت الأحزاب الدينية لتقول لا مانع أن تقوم المرأة – أثناء الحرب – بأى عمل فى الخطوط الخلفية بشرط أن تتمكن من أداء كل شعائرها الدينية . ولابد أن تقوم الأحزاب الدينية بالإشراف على ذلك فترسل أو نساءها حتى يطبق الدين حرفياً مهما كانت الظروف .

ولكن الأحزاب الدينية المتطرفة اعترضت دائماً – ولا تزال تحرم على بناتها أن يعملن فى الجيش أو فى أى مصلحة لها علاقة بالحرب .

وعندما كتبت يائيل ديان ابنة موشى ديان روايتها الأولى « وجه جديد فى المرآة » تحدثت عن الحياة العسكرية . وعن حياة الفتاة فى الجيش . ولم يكن الدافع الحقيقى لهذه الرواية أن تتحدث عن أمجاد الجيش وإنما كانت تسخر من الخدمة العسكرية

وعن حياة الفتاة فى ملحدة هى وأبوها وأمها وأخوها ، فإنها لم تخف أن تجنيد الفتيات كان لهواً وعبثاً . وقد التقطت الأحزاب الدينية هذه الرواية دليلاً على فساد الخدمة العسكرية وعلى ضرورة إبعاد المرأة عن الجيش .

أما الفتيات اللاتى يعملن فى الجيش أو بالقرب منه أو فى أحضانه فإنهن متطوعات . ولكن الأغلبية الكبرى من بنات إسرائيل يرفضن العمل فى الجيش . لا لأسباب دينية فقط ، وإنما لأن الحياة العسكرية شاقة . وأن المرأة لا تساعد كثيراً وإنما هى تعطل الحركة العسكرية الجافة السريعة . فالمرأة عبء على الجيش وليست عوناً له .

* * *

وبعد حرب سنة ١٩٦٧ احتاج الجيش الإسرائيلى إلى موظفين إداريين . وكان لابد من ملء أماكن كثيرة شاغرة فى الحياة المدنية . كما أن الجيش الإسرائيلى كان يستدعى احتياطيه كثيراً . وكان على الدولة أن تواجه النقص فى مجالات الزراعة والصناعة والتعليم . وفى سنة ١٩٧١ صدر قرار بدعوة متطوعين للخدمة العامة . وتشكلت جماعات من الفتيات المتدينات اللاتى أعفين من التجنيد الإجبارى . وكان على الفتيات أن يقمن بشىء من الواجب نحو الدولة . وغضبت الأحزاب الدينية على هذا التحايل على الدين . وانتشر السخط العام . واحتشد الناس عند حائط المبكى . ونفخوا فى الأبواق وسالت الدموع وأشفق الناس على إسرائيل من الخراب . . وراحوا ينشدون : « يا أبانا يا ملكنا ، ارفع الشر عنا وغضبك »

ولايزال الشجار قائماً . ولم تحمل المرأة اليهودية سلاحاً حتى اليوم . . أما الصور التى ظهرت فى صحفهم وفى صحفنا فهى للدعاية السياحية فقط . . ونحن صدقنا ذلك أيضاً !

ومن المناسب هنا أن أحكي شيئاً غريباًعجيباً حدث أثناء حرب سنة ١٩٦٧، ففي يوم من الأيام اهتزت القاهرة ، وقالوا : قطار من الأسرى وصل - أي أننا أسرنا هذا العدد الهائل من اليهود ، بضعة ألوف من جنود العدو . .

وليس غريباً أن نأسر هذا العدد ما دمنا قد أسقطنا تلك الأعداد من الطائرات أول يوم - كما تقول الإذاعة والصحف من ورائها . أو كما قيل للجميع . أو كما تورط الجميع أو تبرعوا أو تطوعوا لأن يبالغوا فى انتصاراتنا وانكساراتهم .

وبعد ذلك كبرت الشائعة وتحولت إلى شيء أروع فقيل إن القطار كله من المجندات الإسرائيليات . أى أن هناك مجندات . وأنهن محاربن وأنهن كن فى الصفوف الأولى . وسقطن فى أيدينا . صحيح أنهن مجندات،ولكن رجالنا - على كل حال - أقدر . وكأن الذى أطلق هذه الشائعة ، قد أخجله أن يكون لليهود مجندات ، ولا تقع المجندات فى أيدينا . . **ومعنى ذلك أيضاً أن المجد الذى أعطيناه لبنات أورشليم باليمين، قد سحبناه بالشمال . .**

وتطورت الشائعة أو تهورت وقيل فى ذلك الوقت إن طائرة سقطت بالقرب من القاهرة . وهذه الطائرة فانتوم . وعندما انفجرت الطائرة هبطت إحدى المظلات وبالاقتراب من المظلة وجدوا أن التى تقودها سيدة حامل .. وأنها فى شهرها التاسع .

وأن الإنسانية تحتم علينا أن ننقلها إلى مستشفى المعادى . وولدت وتركوا لها الحرية فى اختيار اسم المولود . ولكن الطيارة الإسرائيلية قالت : أنا وضعت مولوداً هذا صحيح ، ولكن أرجو أن تختاروا له الاسم . فقالوا لها : أنت التى تختارين الاسم . قالت : أنتم تختارون الاسم .قالوا : لابل أنت التى تختارين !

ويقال اختاروا له اسماً . .

نعود إلى أسطورة الطيارة هذه فنحن اخترنا أن تكون أول طائرة تقودها امرأة . ومجرد اختيار المرأة هو إمعان فى التعذيب لنا . أى أن اليهود يحاربوننا بالنساء . . بأرق وأضعف المخلوقات . كأن المصريين لايستحقون أن يحاربهم الرجال .

وأعجب من ذلك أن الطيارة كانت حاملاً . أى أن الحمل لم يمنعها من أن تحارب وتقاتل وتتعرض للموت هى والذى فى بطنها ، ومعنى ذلك أنها كانت تعلم أنها لن تموت . ولم تمت لاهى ولا وليدها . . وأننا حاولنا أن نكون فوق الهزيمة وفوق مقتضيات الحرب فنقلناها إلى المستشفى لتضع ولم نكتف بذلك ، وإنما دخلنا معها فى نقاش فى اختيار الاسم . وكأنها أصبحت من ممتلكاتنا هى وابنها . وأن الذوق يحتم علينا ألا نجرح شعورها ونعطى لابنها اسماً إسلامياً ، فتركنا لها أن تختار . واختارت . .

ولو رجعنا إلى هذه النكت المؤلمة لوجدناها تنطوى على جهل فاضح. . فلا أحد قد رأى هذه الطيارة ولا حتى طيارينا . .ولا عرف إن كان يمكن أن يقودها أى رجل . بل إن لها طرازاً شاباً نحيفاً رشيقاً من الرجال المدربين جداً . وأن المرأة لاتقود الطيارات الحربية ، ولا تعمل فى الجيش . وأن المرأة الحامل يستحيل أن تتحرك إلى مدى مائة كيلو متر من الجبهة . وأنه يستحيل أن تقترب من طائرة أو تدخلها أو تحارب بها . .

وهذه الشائعات هى صور من تعذيبنا لأنفسنا واحتقارنا لها ، وأنه قد هان أمرنا على أنفسنا ، إلى هذه الدرجة الأليمة !

وحتى لانعذب أنفسنا مرة أخرى : فإن المرأة الإسرائيلية لاتحارب ولن تحارب لا أرضاً ولا جواً . . وأن مشكلتها كمواطنة تريد أن تساعد بأى شىء بعيد عن الحرب ، ماتزال قضية لم يصلوا فيها إلى حل سعيد !





لم يتفقوا على من هو اليهودى

كلام كثير جميل قاله اليهود لليهود قبل أن يخطفوا أرض فلسطين ويجعلوها إسرائيل . وكان هذا الكلام الجميل ضرورة لاحتمالهم الهوان فى كل أرض . وعاش اليهود على الكلام الحلو يشربونه صباحاً ومساءً وينتظرون اليوم الموعود فى أرض الميعاد ..

قالوا لهم : إن اليهودى كاليمامة .. واليمامة مختلفة عن كل الطيور .. فالطيور إذا تعبت استراحت على فرع شجرة أو على قطعة حجر .. أما اليمامة فإنها إذا تعبت تظل تطير .. وإذا تعب جناح أراحته وطارت بالجناح الآخر ..

وقالوا لهم : إن اليهود هم رمال الأرض . . والرمال أطول عمراً من كل المعادن . . وبغير رمال الصحراء لاتقام البيوت . .وبغير تراب الوديان لا تنمو زروع . . واليهود رمال وتراب . . واليهود رمال كلما داسها الناس ازدادت لمعاناً . وإذا دخل الرمل فى طعام فإنه يجرح الأسنان ، وكذلك اليهود يجرحون الأسنان واللسان إذا أوجعتهم . . وهم كالرمال تتحرك من مكان إلى مكان فى صمت . . وهم يتحركون بلا شكوى وهم كالرمال إذا حفرت بها حفرة فى الصباح ، وعدت إليها فى الليل وجدتها قد امتلأت . .

وقالوا لهم: اليهود كالورود . . إذا شممتها كانت لها رائحة جميلة ، وإذا عضضتها بأسنانك كانت مريرة .

وقالت لهم التوراة فى سفر الخروج (الإصحاح : ٣٢ الآية : ٩) : رأيت هذا الشعب . . إنه صلب الرقبة » وقال الحاخام يوحانان فى تفسير صلابة الرقبة

أى أنه عنيد . ثم قال إن هناك أنواعاً من الصلابة : الكلب بين الحيوانات والديك بين الطيور ، واليهود بين الناس . . وقال الحاخام موشى : إن الرب لا يذم اليهود إنه يمدحهم . . فمعنى هذه الآية أن الإنسان لكى يكون يهودياً يجب أن يكون على استعداد دائم للاستشهاد !

* * *

أما الكاتب الأمريكى اليهودى لويس لويسون فيقول فى كتابه : « الجزيرة التى فى داخلنا » يحكى أن رجلاً ذهب إلى أحد أغنياء بولندا وسأله :ما رأيك فى اليهود فقال : خنازير قتلوا الأنبياء وصلبوا المسيح . . لاأثق بواحد منهم !

وسأله : وما رأيك فى إسحاق ؟

– ملاك طيب .

– وفى ليفى ؟

– أثق به أكثر من نفسى .

– وفى شالوم ؟

– لؤلؤة نادرة الوجود .

وذهب الرجل نفسه إلى غنى يهودى مؤمن وسأله : ما رأيك فى اليهود ؟ فقال : إنهم شعب الله المختار . . إنهم يحملون رسالة لإصلاح العالم كله .

وسأله : وما رأيك فى إسحاق ؟

– أحط إنسان !

– وفى ليفى ؟

– أحقر من رأيت .

– وفى شالوم ؟

– أسفلهم جميعاً !

ويقول الحاخام موشى تعليقاً على ذلك : كلاهما لا يعرف من هو اليهودى !

ثم يقول الحاخام هارون برميزلانر إنه حدث أن ذهب حاخام كبير لزيارة

إحدى المدن . وعرف الناس بنبأ الزيارة فوقفوا ينتظرونه فى الطريق . ولاحظ الحاخام ذلك . فخلع ملابسه وارتدى ملابس سائق العربة الذى جاء به . . وأخذ الناس يحيون سائق العربة . وظل هو يتفرج على الناس . ولكن حاخام المدينة كان ينظر إليه ويحييه . لقد عرفه . وسأله الناس كيف عرفت الحاخام رغم أنه غير ملابسه . فقال : **إن نصاباً لايستطيع أن يخدع نصاباً مثله !**

انتهى الكلام وبدأ العمل عندما قامت إسرائيل . . وكان السؤال الذى يهز الجميع ويفزعهم ويدهشهم كيف أنهم لم يهتدوا إلى إجابة تقنع الجميع : من هو اليهودى !

* * *

إن قانون العودة لسنة ١٩٥٠ هو أساس العقيدة الصهيونية . . وهو ينص على أن إسرائيل قد أنشئت من أجل اليهود فى كل مكان . وأن العودة إلى صهيون حق مطلق لكل يهودى .

وهذا القانون هو استجابة عاطفية لليهود الذين تشردوا فى كل مكان ثم قرروا العودة إلى إسرائيل . فإسرائيل ملجأ لكل يهودى مالم يكن مريضاً أو خطراً على أمنها . بل إن غير اليهود إذا أرادوا أن يقيموا فيها ، فهذا حقهم أيضاً . وبعد ذلك يكتسبون الجنسية اليهودية . . بلا قيد ولا شرط . .

ووضعت إسرائيل نظام البطاقات .. وأوجبت على كل إنسان أن ينص فى بطاقته على دينه وجنسه فيقول : الدين : يهودى والجنسية إسرائيلية .

وأصدر وزير الداخلية باريهوذا فى مارس سنة ١٩٥٨ قراراً يقول : كل شخص يعلن بصدق أنه يهودى ، فهو يهودى ويجب تسجيله فى البطاقة الشخصية على أنه كذلك .

واعترضت وزارة الشئون الدينية على ذلك . وكذلك الأحزاب الدينية كلها .

وأعلن الحاخام الأكبر أنه يعارض تماماً مثل هذا القرار لأن من اليهود

فئة « حراس المدينة » يرون أن قيام الدولة باطل . . فكيف تحميهم الدولة ، بل كيف يعتبر أى أحد يهودياً ؟ وقال : إن هذه الفئة ترفض أن يكون القانون قد نزل على موسى .

ولكن من هو اليهودى ؟

العرف العام يقول والتوراة أيضاً : اليهودى هو كل من كانت أمه يهودية . ويكون الطفل أيضاً يهودياً إذا أعلن أبواه ذلك . . حتى لو لم يكن هذا الطفل يعرف شيئاً عن دينه .

ولكن إذا أعلن الطفل بعد ذلك إنه ليس يهودياً فما هو حكم الشرع ؟ .

الأحزاب الدينية تقول : الأساس هو أن يعترف الإنسان بذلك . فإذا رفض أن يعترف بذلك ، فليس يهودياً .

ولكن أحزاباً أخرى تقول : اليهودى حتى إذا أخطأ فهو يهودى . فهو يهودى دائماً !

ولكن التفسيرات الشرعية للقانون اليهودى القديم تقول صراحة : كل يهودى هو من كانت أمه يهودية ، أو ولد يهودياً أو تحول من دين آخر إلى الديانة اليهودية . وليس كل من يعلن أنه يهودى . .

وتساءلوا : هل يمكن أن يكون الإنسان يهودى الجنسية ، وليس يهودى الدين ؟ هل من الممكن أن يكون إسرائيلياً وليس يهودياً !
مفروض أن إسرائيل لليهود فقط . . فالإسرائيلى هو اليهودى . . ولا انفصال بين الجنسية وبين الديانة !

وفى الكنيست صرح الوزير شابير أو هو يقول : ياناس . . لقد مضت علينا مئات السنين ونحن نعرف من هو اليهودى ؟. وما الذى يفعله اليهودى . . ومضى علينا الآن فى إسرائيل أكثر من عشر سنوات ولا نعرف أن نجيب على هذا السؤال : من هو اليهودى . . هل نسينا نحن العذاب والهوان فى كل أرض وكل عصر . . أليس فى هذا التاريخ ما يكفى لتعريف من هو اليهودى ! ؟

وكأنه لم يقل شيئاً، فقد خرج الناس من الكينست وهم يتساءلون : صحيح . . من هو اليهودى ؟ . .

* * *

وحاول بن جوريون أن يتفادى أية ازمة اقتصادية ولذلك لم يبحث هذه القضية وإنما أرجأها بعض الوقت . . ولكن القضية ملحة . . وفى كل يوم يدخل البلاد واحد له مشكلة مع زوجته ومع أولاده . ويريد أن يعرف إن كان يهودياً . .

وفى سنة ١٩٥٨ أرسل بن جوريون خطاباً إلى خمسة وأربعين من حكماء إسرائيل والعالم . وهم من العلماء والأدباء ورجال الدين والسياسة ، يسألهم :

– دلونى ياناس على من هو اليهودى ؟

وقدموا له تقريراً أشاروا إلى ضرورة النظر إلى هذه القضية من عدة اعتبارات :

(١) إن إعلان الاستقلال قد كفل لليهود حرية العقيدة – أى أن يكون يهودياً يمارس الطقوس أو لايفعل ذلك .

(٢) إن إسرائيل هى مركز للتجمع اليهودى دون تفرقة بين مذاهب اليهود وألوانهم وتاريخهم وأنهم من شعوب متحضرة وشعوب متخلفة . ويجب أن يتعاون الجميع على الذوبان فى إطار واحد . .

(٣) وإن المجتمع اليهودى فى إسرائيل مختلف تماماً عن المجتمع اليهودى فى أى مكان . فلم يعد اليهودى تلك الأقلية المسحوقة ولم يعد خاضعاً للقهر من أحد . وكلمة « الذوبان » فى الشعوب الأخرى لم تعد شيئاً مخيفاً ، بل من الواجب أن يذوب اليهود فى اليهود . وأن نترفق بالعائلات ذات الزواج المختلط كأن يتزوج اليهودى مسيحية ، أو تتزوج اليهودية مسيحياً .

(٤) يجب ألا يبقى الشعب اليهودى فى إسرائيل منعزلاً عن اليهود فى بقية بلاد العالم . فلا انفصال بين اليهودى الإسرائيلى واليهودى الأمريكى أو الروسى . .

ولم تقتنع الأحزاب الدينية فى إسرائيل . حتى ظهرت مأساة الراهب المسيحي دانيال . هذا الراهب يهودى جاء إلى إسرائيل بمقتضى قانون العودة ويريد أن يحصل على الجنسية اليهودية . والتجأ إلى المحكمة اليهودية العليا فى نوفمبر ١٩٦٤ . . وثارت من جديد أزمة اليهودى ومن هو اليهودى وبصورة عنيفة . .

وهذا الراهب دانيال قد ولد فى بولندا سنة ١٩٢٢ وكان اسمه أوزفالد روفايسن . أبواه يهوديان . وكانت تربيته يهودية . وكان له نشاط صهيونى معروف . وفى أثناء الدراسة الثانوية تعلم وتدرب على الهرب حتى يهاجر إلى فلسطين فى يونيو سنة ١٩٤١ الجستابو اعتقله . واستطاع أن يهرب وحصل على جواز سفر مزور على أنه ألمانى مسيحى . ثم عمل مترجماً للبوليس الألمانى . واستطاع عن طريق هذه الوظيفة أن يساعد مئات اليهود على الهرب عندما قرر هتلر هدم حارة اليهود فى وارسو . ولكن أحد اليهود قد أفشى سره . واعتقله النازى وأدخلوه السجن . فهرب واختفى فى أحد الأديرة . وفى سنة ١٩٤٢ اعتنق الديانة المسيحية . وفى ١٩٤٥ انتهت الحرب . ولكنه كان قد أصبح قسيساً . وطلب من الكنيسة أن تسمح له بالسفر إلى إسرائيل . . وسافر إلى إسرائيل سنة ١٩٥٨ . . وهناك طلب أن يكون يهودياً .. واعترضت الهيئات الدينية . وكذلك المحكمة العليا . وتقدم لوزير الداخلية يقول إنه يهودى الأصل . . ورفض الوزير . وأعلنت المحكمة أن اليهودى إذا تحول إلى المسيحية لايكون يهودياً . ولما قال : إنها الظروف الخاصة بكل يهود العالم . وإنه لجأ إلى المسيحية ، ولم يعتنقها . قال رجال الدين : كذاب . . يهودى كذاب . . يهودى يهاجم اليهودية باسم المسيحية ليس يهودياً . . وقالت المحكمة : إن الراهب دانيال يريد منا أن نمحوا كل ما فعله المسيحيون باليهود فى مئات السنين إن هذا مستحيل !

ولكن فى سنة ١٩٦٣ منحوه الجنسية اليهودية !

* * *

ثم جاءت قصة السيدة رينا عيتانى سنة ١٩٤٦ . هذه السيدة ألمانية الأصل . وأمها مسيحية وأبوها بولندى . .أبوها قتله النازيون . . وعاشت هى وأمها وأختها فى حارة اليهود فى وارسو . ثم انتقلت إلى أحد المعسكرات التى أعدها الإنجليز لليهود فى قبرص . ثم وصلت إسرائيل سنة ١٩٤٧ ضمن هجرة السنين الأولى . . وسجلت على أنها يهودية . وعملت فى الجيش الإسرائيلى . واعتبرت نفسها يهودية . وربت أطفالها على أنهم يهودوفى سنة ١٩٥٢منحت الجنسية الإسرائيلية بمقتضى قانون العودة . .

وفى سنة ١٩٦١ حصلت على جواز سفر إسرائيلى وتسلمته . وتجدد هذا الجواز فى سنة ١٩٦٤ . ورشحت نفسها فى الانتخابات فى مدينة الناصرة . . ولكن بعض خصومها السياسيين نبشوا ماضيها . وأعلنوا أنها ليست يهودية وأن لديهم الدليل على ذلك . وطلبت وزارة الداخلية أن تعيد إليها كل أوراقها فوراً . والتجأت السيدة عيتانى إلى القضاء،وفى مارس سنة ١٩٦٦ أعلنت وزارة الداخلية صحة جواز سفرها على أساس أنه ليس من حق أى إنسان أن يجرد آخر من حق اكتسبه ، ما دام لم يستخدم هذا الحق فى الإساءة إلى أحد !

ثم حكاية المقدم بنيامين شاليت . وهو رجل يهودى ولد فى حيفا وتزوج من فتاة مسيحية من أصل فرنسى اسكتلندى . وهو وزوجته ملحدان . ويعترفان بذلك . وقد ولد لهما طفل اسمه هارون سنة ١٩٦٤ . واعترف الأب أن ابنه يهودى الجنسية ولكن ليس له دين حتى الآن ، وأنه يترك له ذلك حتى يكبر فيختار الدين الذى يناسبه . ولكن سجلات وزارة الداخلية يجب أن ينص فيها على الدين إما أن يكون يهودياً أو لا يكون . ورفض الأب أن يكتب أن ابنه يهودى . ولكن موظف السجلات ملأ الخانة بكلمة يهودى .. واعترض الأب والأم .

وفى سنة ١٩٦٧ ولدت له طفلة أسماها جاليا . ورفض الأب مرة أخرى أن ينص على أنها يهودية الدين . . ولكن وزارة الداخلية رفضت هذه الأوراق .

وتقدم للمحكمة . وأصدرت المحكمة قرارها بأن الطفلين يهوديان حتى إذا لم يشأ الأب أن يكتب ذلك بيده . .

وهناك عبارة مشهورة للفيلسوف الوجودى سارتر ، وهو أحد العاطفين جداً على اليهود واليهودية . لأنه نصف يهودى ، يقول : إن الإنسان لايكون يهودياً ، وإنما الناس هم الذين يجعلونه كذلك . . يحولونه إلى ذلك . ينظر إلى نفسه بعيون الناس . . ويكون بالضبط كما يريدون . .

ولكن هذه العبارة ليس لها معنى فى إسرائيل وهم يعيشون معاً ولا يطيقون بعضهم البعض ولا يزالون يتساءلون :

هل نحن يهود بين يهود من أجل يهود آخرين فى العالم ؟





كيف تطهو يهوديا على نار هادئة ؟

اقتربت السيدة العجوز من النافذة وسحبت الستائر،ولكن الشمس لم تدخل،فهى الأخرى قد أخفتها ستائر من السحب الكثيفة ومن ورائها جبال الألب الشامخة . وقالت العجوز : ليس فى نية أحد أن ينهى شيئاً . فما هو الحل ؟

ولم يكن فى الغرفة أحد يرد عليها . وكانت السيدة العجوز قد اعتادت أن تتحدث إلى نفسها كثيراً . ولذلك مضت تقول : مضى يومان ... وسوف تمضى مئات الأيام .. دون أن أجد رداً واحداً يقنعنى .. إن اسم عائلتنا العريق سوف يموت هذه الليلة ابنى سوف يتزوج واحدة مسيحية من أصل يهودى .. وسوف يجىء أبناء يحملون اسم العائلة .. هذا الاسم الذى حملناه سراً .. حملناه وسط النار واحترقنا ولم يحترق .. وعبرنا به البحار وغرقنا ولم يغرق .. ودخلنا به الكنائس وظل يهودياً . وصلينا به فى مساجد النجف وكربلاء والأزهر وبقى يهودياً .. ركعنا ولم يرجع .. سجدنا ولم يسجد .. أسلمنا ولم يسلم .. هذا الاسم سينتهى الليلة عند أول قبلة لابنى يضعها على هذه السمراء المسيحية .. ومطلوب من أى إنسان أن يفرح فى هذه الليلة الفريدة فى عمر الشباب .. إننى لا أستطيع » .

* * *

وأعادت الستائر وأظلمت الغرفة وهى تقول : يجب ألا تطلع الشمس لهذا اليوم والأيام التالية !

وانفتح باب الغرفة وأضيئت الأنوار ورأت العجوز ابنها وعروسه . . وألقت بنفسها على صدره تبكى .

* * *

وتنتهى قصة قصيرة من تأليف الكاتب اليهودى يوسف المصرى ، الذى سبق أن ألف كتاباً بعنوان « المأساة الجنسية للمرأة العربية » ولا أعرف ، ولا أحد ، يعرف إن كان هذا اسما حقيقاً أو مستعاراً . . ولكنه أصدر عدة كتب عن مصر وإسرائيل . ولكن هذه المجموعة القصصية هى أفضلها وأقربها إلى المعنى الذى أريده وهو : مشكلة اليهودى ومن هو ؟ ما تزال مشكلة كبرى فى إسرائيل وخارجها . فهذه الأم حزينة لأن ابنها سوف يتزوج فتاة مسيحية يهودية الأصل . . أى أنها ليست يهودية تماماً مع أن دماءها يهودية . فهى يهودية الأم ، ويهودية الأب . ولكنها تحولت إلى المسيحية . . كما فعل يهود كثيرون ولكن هذا التحول أفسد قلبها . وهذا يكفى ، فهى – إذن – لم تعد يهودية وهى منذ لحظة زواجها من ابنها ، سوف تصبح مقبرة له ولأولاده من بعده !

هذه المجموعة القصصية عنوانها « دخان بين الأشجار وراء النهر » وقد صدرت فى العام الماضى . . ويقول المؤلف فى مقدمتها : « صور من بعيد لما يحدث هناك . إن هذه الصور لن ترضى الجميع ، ولكن يجب أن نعرفها . فنحن لم نستطع بعد أن نحل مشاكلنا الدموية ، وخير لليهود الذين شغلوا أنفسهم بمشاكل الكواكب الأخرى أن يجدوا حلاً لهذه البقعة الصغيرة من هذا الكوكب .. » ولم يجدوا الحل بعد،ولكنهم سيحاولون – كما سنرى فيما بعد ..

***

وفجأة – كما يقول الفيلسوف اليهودى (ريمون آرون) يشعر الإنسان بخطورة أن يكون يهودياً . . أو بسخافة أن يكون يهودياً . كما حدث فى سنة ١٩٦٠ عندما اجتاحت أوربا فى وقت واحد علامات الصليب النازى . ظهر الصليب المعقوف على المقابر والمعابد والكنائس ومحطات السكك الحديدية . وبنفس السرعة اعتذرت بعض الحكومات . واستنكر ذلك بعض الزعماء .

وأحس اليهود مرة أخرى ، أن الزمن لم يقض نهائياً على كراهية الناس لهم . أو تشكك الناس جميعاً فى حسن نياتهم .. وكأن هتلر ما يزال على قيد الحياة . وكأن اليهود عبء على الإنسانية ، وأنه لا راحة لها إلا إذا تخلصت منهم ..

ثم يمضى وقت قصير يهدأ فيه كل شىء وتتلاشى العلامات النارية . **وهذا يدل على أن « اليهودى » ما يزال ذلك الإنسان الذى تكن له الإنسانية عظيم الكراهية** .. وأنه ما يزال هناك وقت طويل لإقناع العالم بأنهم أناس كالآخرين ..

وتظهر فى نفس الوقت نزعات يهودية على شكل أحضان أو أجنحة ترفرف على كل نوعيات اليهود تقول : كل يهودى خارج إسرائيل يهودى . كل يهودى صهيونى أو ليس صهيونياً فهو يهودى . وكل يهودى ملحد يعيش فى إسرائيل هو يهودى ، مثل اليهودى المتدين الذى يعيش فى أقاصى سيبيريا الكل يهود . . ويجب أن يكونوا كذلك .

* * *

ويتساءل الفيلسوف الوجودى سارتر : ما الذى يجعل اليهودى رغم ما يلقاه من عذاب وهوان أن يظل كذلك ؟ ويجيب عن ذلك : بأنه يهودى لأنه ليس أمامه أية حلول أخرى ..

ويقول أيضاً : إنه يهودى لأن الناس يريدونه أن يكون كذلك . فهو احتراماً لنفسه ، يظهر فى الصورة التى يريدها الناس . . فهم يريدونه منطوياً خائفاً جباناً ، فيفعل ذلك .. ومعنى ذلك أن يهود العالم يحاولون أن يكونوا قريبين من الصورة التى اختارها الناس لهم . . فهم يهود بالقوة . . أى بقوة إكراه الناس لهم على أن يكونوا كذلك .

إنهم إذن يهود بأى شكل من الأشكال . ولكن هل هم جنس واحد ؟ هل هم شعب ؟

يقول الكاتب الفرنسى ريمون آرون : إن يهود العالم ليست لهم صفات جسمية واحدة . فلا وجه للشبه بين اليهودى الروسى واليهودى اليمنى . وكلاهما يهودى

متدين أو ملحد . صهيونى أو مستنكر لها . . ثم إنه لا يوجد خلاف فى معالم الوجه بين اليهودى التونسى والمسلم التونسى أو بين اليهودى الهندى أو البوذى الهندى . . ويقول آرون أيضاً : إن يهود البحر الأ بيض المتوسط لم يكونوا أصلاً من اليهود ، وإنما هم أجناس مختلفة تحولت إلى الديانة اليهودية . ولا يختلفون فى الشكل عن الرومان والإغريق القدامى . . فهؤلاء اليهود أوروبيون وليسوا آسيويين .

واليهود ليسوا شعباً . فهم لم يستقروا على هذه الأرض ألفى سنة لا أقاموا فى فلسطين ، ولا فى أية أرض أخرى كل هذه السنوات الطويلة ولم يشملهم نظام سياسى واحد أو تاريخ متصل ، ولا كانت لهم دولة .

ورغم ذلك فإنهم عندما تشتتوا بين الشعوب الأخرى ، لم يذوبوا فيها . وظلوا فى عزلة . وكان لهم دينهم وتقاليدهم وأسرارهم . ولم يخلصوا للدول التى عاشوا بينها ، وظلوا مخلصين لقانونهم الدينى .

* * *

وأعود إلى قصص يوسف المصرى . ففى إحدى قصصه يروى أن النار أكلت بيوت إحدى القرى . وأن واحداً من هذه البيوت قد انهار على سيدة وأطفالها .. الأطفال صغار . . السيدة أصيبت فى أماكن مختلفة من جسمها ولكنها عندما نظرت إلى القرية حولها وجدتها قد احترقت تماماً . . ولكن بسرعة جاءت سيارات وطائرات وأنقذت بعض الجرحى . . وامتدت الأيدى إلى هذه السيدة . ولكنها رفضت المساعدة . وانكفأت على أطفالها تحضنهم وتمسح عنهم التراب ولا تنطق بشىء . وكلما اقترب واحد منها تحولت إلى وحش تبرق عيناها وتتشنج أصابعها وتعوى .. وينظر الناس بعضهم إلى بعض ويرون أنه لاداعى لإكراهها على عمل شىء . . ثم إنها سليمة وأطفالها كذلك . . ويلقون إليها بالطعام فلا تمتد يدها إليه . . وفى اليوم التالى يعودون إليها فيجدونها فى حالة أفضل . . لقد غسلت وجهها وأطفالها نيام . . ولكنها لاتتكلم . وفى اليوم الثالث وجدوا السيدة قد اعتدلت فى جلستها . وأطفالها يلعبون . وإلى جوارها أحد رجال الدين . . ويشعر الناس بالضيق ويقولون : تظاهرت بأنها مجنونة !

إنها لم تكن كذلك . . إنها إذن ادعت الجنون حتى لانقترب منها .. وحتى لا نكتشف الكنز الذى أخفته تحتها . . ولا الطعام الذى وضعته فى مكان ما ولا أرادت أن نعرف أن هناك جماعة سرية تساعدها . . ملعونة . . هؤلاء اليهود ملاعين . . ألا ليت هذه الجدران قد سقطت عليها وعلى أولادها » . .

وفى مقدمة هذه المجموعة القصصية يقول المؤلف المجهول معنى هذه القصة وستجد من بين هذه القصص صوراً « للعزلة المزدوجة » . . أى عندما يعزلك الناس مرة ويجعلونك بعيداً عنهم . . ثم تقوم أنت بعزل نفسك عن عمد . . ويصبح الإنسان معزولاً منعزلاً . . وهذا الإطار المزدوج هو الذى أبقى على اليهود فى كل مكان وزمان . .

أو بعبارة أخرى : إن اليهود فى كل المجتمعات الأخرى يجدون أنفسهم قد انعزلوا . . وانطووا على عاداتهم وتقاليدهم ودينهم . . وانغلقوا فى حواريهم . . ثم إن كراهية الشعوب الأخرى لهم جعلتهم لا يرونهم.. أو لا يشعرون بهم أو لا يحبون ذلك . . فهذه هى العزلة المزدوجة . وهى التى أبقت على اليهود فى كل البلاد التى عاشوا فيها . . إنهم محاطون بجدران باردة كريهة . . هم يكرهون الناس والناس يكرهونهم . . ولذلك لاهم يرون الناس على حقيقتهم ، ولا الناس كذلك . .

ولذلك يقول الكاتب الفرنسى اندريه سيجفريد : اليهودى إنسان متشائم لأنه يرى المجتمعات التى حوله بصورة عارية بغيضة لا إنسانية فيها . . ومن هنا كانت قسوة اليهود على الذين يعايشونهم ، وقسوتهم على اليهود . . والمعنى هو : أن هناك أنواعاً مختلفة من اليهود فى كل أرض . . اليهود كما تظهر صورتهم للناس . . اليهود كما صورهم الناس لأنفسهم : اليهودى المتدين . . اليهودى المتعصب،اليهودى الملحد .. اليهودى التاجر . والنتيجة : أن اليهودى صورة غير محددة وغير معروفة لا عند اليهود ولا عند غيرهم من الناس !

ولكن مع التسلل اليهودى إلى الشرق الأوسط وإلى فلسطين،تولدت مشكلة جديدة . وهى كيف يمكن صنع « عجينة يهودية . . أو كيف يمكن تخليق عجينة يهودية جديدة ، تتلاشى فيها الفوارق اللونية والدينية والثقافية والتاريخية . كيف

يمكن صنع يهودى جديد . . أى نوعية يهودية جديدة تضاف إلى بقية النوعيات الأخرى . . أو بعبارة أخرى : **إذا كان اليهود لم يفلحوا حتى الآن فى تحديد معالم من هو اليهودى ؟فلماذا لايحاولون أن يصنعوا يهودياً من نوع آخر مستخدمين كل الحيل التى تجعله مختلفاً تماماً عن اليهود فى كل العصور وأكثر تشدداً وتعصباً وتفجراً وفجوراً !؟**

وقد حدث فى سنة ١٩٤٥ عندما كان أربعة جنود من قوات سلاح الطيران البريطانى يتمشون فى شوارع القاهرة أن خطرت لواحد منهم فكرة : **لماذا لا نذهب إلى فلسطين ونرى ما الذى يفعله اليهود من وراء ظهور العرب ؟ وتلفت كل منهم وراءه خوفاً من أن يسمعه أحد ؟ ! . ثم عاد واحد يقول : لماذا لا نكتب للوكالة اليهودية فى القدس ؟**

وأرسل واحد منهم خطاباً إلى الوكالة اليهودية يقول : « نحن أربعة مررنا كثيرا فى الريف المصرى . وتوقفنا عند القرى والمدن . . وسافرنا إلى أسوان والإسكندرية . . ولسبب ما قررنا أن نسأل إن كان ممكناً أن نتفرج على التجربة اليهودية الجديدة . . وهى كما يقول زملاؤنا اليهود هنا : كيف تطهو يهودياً على نار هادئة من أجل البقاء فى فلسطين ؟ نريد أن نزور المستعمرات اليهودية حيث تزرعون أو تضعون بذرة اليهودى الجديد . . نريد أن نرى تجاربكم هذه التى تتم تحت أنف العرب وهم لا يدرون منها أو عنها شيئاً . .

وبعد أيام أرسلت الوكالة اليهودية ترحب بالطيارين الأربعة . . وتحدد لهم بعض المستعمرات اليهودية ليروا بأنفسهم كيف يقوم اليهود بتوليد سلالات جديدة من اليهود الشرقيين أو الغربيين ، قادرين على الحياة فى هذه المنطقة المغتصبة من العالم . . .

وقد سجل واحد من هؤلاء الأربعة تجربته فى كتاب بعنوان « القبوتس طريق جديد للحياة » . . تأليف دان ليون .

وقد جاء فى مقدمة الطبعة العبرية : أن المؤلف تحدث عن هذه التجربة من بدايتها . وعن دور المستعمرات فى توحيد شعب تشتت فى الأرض ألفى سنة . . إن عبارة مشهورة لهرتسل لها دلالتها : « إذا ما الفلاح اليهودى أمسك المحراث

بيده ، فسوف تنحل المشكلة اليهودية » . وأن الذى يذهب إلى هذه المستعمرات سيدرك صدق هذه العبارة وصعوبة تحقيقها أيضاً . . وسوف يجد أن اليهودى البورجوازى الصغير الأوربى قد تغير إلى حد كبير منذ قرر البقاء على هذه الأرض . .

فهل تنتهى مشاكله مع الذين سبقوه إلى اغتصاب الأرض العربية ؟ لانهاية لمشاكله !





جنة « يوم السبت وجهنم » بقية الأسبوع

من يذهب لمشاهدة المستعمرات اليهودية يوم السبت من أى أسبوع سيقول إنها جنة الله على الأرض .. ومن يذهب إليها يوم الجمعة أو الأحد أو بقية أيام الأسبوع يقول : إنها جهنم أشعلها اليهود على أنفسهم ..

ففى يوم السبت يتوقف العمل فى المستعمرات . إنه يوم إجازة مقدسة . كل أبناء المستعمرة قد ارتدوا ملابسهم المتشابهة تماماً . وجلسوا تحت الأشجار يتحدثون أو يتهامسون أو يأكلون أو يعزفون الموسيقى .. الآباء جاءوا لزيارة الأبناء . الشباب يجلسون اثنين اثنين .. كل شىء هادىء تماماً . إنه مجتمع عامل منتج ، وهذه إجازته . لافرق بين صغير وكبير بين أبيض وأسود . كلهم سواء فى الراحة والعمل .

أما بقية أيام الأسبوع فهذه المستعمرة مختلفة تماماً . فالعمال يزرعون الأرض أو يحرثونها .. الجرارات تروح وتجىء . الفتيات يعملن فى الحقول . وأخريات يكنسن أو يغسلن أو يدرسن للأطفال .. والرجال الكبار قد أمسكوا الأوراق والأقلام وراحوا يقلبون فى الدفاتر يبيعون ويشترون .. وهؤلاء الجنود قد عادوا من الجبهة .. أو فى الطريق إليها .. لاأحد عنده وقت ليتكلم مع أحد . فكل واحد يدور فى جهاز يتحرك فى صمت . إنه مجتمع يعمل لأنه لابد أن يعمل . فهذه المزرعة أو القرية أو المستعمر يملكها كل العاملين فيها .. كل واحد يعمل ولذلك يأكل ويشرب وينام .. ولامجال للاسترخاء .. وإذا نظرت إلى وجوههم ، فهى مرهقة وهى شاحبة وهى حزينة . إنها قطعة من جهنم

ظهرت على سطح الأرض . ويجب ألا تغرك الأشجار الخضراء ولا الأبقار ولا الأغنام ولا الأطفال . فالكل مشدود بخيوط واحدة يمكن سحبها عند الغروب فإذا الكل قد دخل إلى الغرف أو الحظائر ويبدأ الليل والنوم استعداداً ليوم آخر أكثر عنفاً وقسوة !

ولكن هذه المستعمرات اليهودية لاهى جنة ولا هى نار . وإنما هى مزيج من الاثنين بدرجات تتفاوت من مستعمرة إلى مستعمرة . أو من حزب سياسى إلى حزب دينى . فأكثر المستعمرات تتبع الأحزاب السياسية وهذه الأحزاب تفرض فلسفتها على الحياة فى العمل داخل المستعمرات وكذلك الأحزاب الدينية .

وهذه المستعمرات هى « تصحيح » للحياة المبعثرة المشتتة التى عاشها اليهود ألوف السنين فى المجتمعات الغربية عنها المعادية – أى التى يعاديها اليهود ، أو التى تعادى اليهود . وهى محاولة لأن « يعيش اليهود معاً » . كلهم يهود . من كل لون وكل طبقة . حتى لاتكون هناك فوارق فى اللون والطبقة والدين والسياسة . فهذه المستعمرات هى « حياة جديدة » أو هى فى الطريق إلى حياة جديدة . . فهى طريق وهى نهاية الطريق .

وقد اندفع اليهود فى نهاية القرن الماضى إلى تكوين المستعمرات أو القبوتس أو القبوتص على أرض فلسطين ، ولم تكن عندهم خطة مدروسة . وإنما هى أحلام بعض المهاجرين ، أدركوا أن اليهود لم يرتبطوا بالأرض ، بأى أرض . ولذلك قرروا أن تكون لهم أرض وأن يزرعوها وهم لم يزرعوا أى أرض وإنما كانوا يعملون فى التجارة أو فى الصناعة أو بعض الحرف المنحطة . ولكن عندما جاءوا إلى فلسطين قرروا أن تكون لهم أرض يزرعونها ويحرثونها ويبيعون ثمارها .. وأن يكونوا معاً يداًواحدة تزرع ويداً واحدة تبيع وتدافع عنها . لافرق بين صغير وكبير . . ثم إن الأرض للجميع لايملكها أحد . ولا توجد هناك عملات يتبادلها ويتداولها الجميع . . يكفى أن كلا منهم يعمل ويأكل . وأن تكون لهم من حين إلى آخر بعض الفلوس يبعث بها إلى أهله أو يبعث بها بعض الهدايا . . وإذا خرج الواحد من هذه المستعمرة فليس له أى حق . فلا هو مالك ولا هو مساهم فى شىء . وإن كانت المستعمرات تعين بعض الخارجين منها أو الخارجين عليها بعض الوقت حتى يتمكن من استئناف حياته فى مكان آخر .

* * *

والمستعمرات بهذه الصورة عبارة عن مجتمع شيوعى جديد . . أو نواة لمجتمع شيوعى على أوسع نطاق . . أو أن المستعمرة اليهودية هى مجتمع يعيش فيه الناس حياة جنس بلا زواج . . فلا علاقة تربط رجلاً بامرأة ، لأنه مفروض ألا يكون لأحد شيء خاص . أو ملكية خاصة . أو زوجة خاصة . وحتى إذا كانت هناك علاقات جنسية بلا عقد زواج بين رجل وامرأة ، فالأولاد ملك للمستعمرة . وللأب والأم حق فى الاهتمام من بعيد بالأطفال بشرط ألا يؤدى هذا الاهتمام إلى تمييز فى معاملة الأبناء عن بقية الأطفال كما أن الأب ليس له الحق فى أن يقدم هدايا من أى نوع لأولاده . .

ولابد أن يكون الموقف المعادى للعرب – عداؤهم للعرب وعداء العرب لهم – هو الذى حتم قيام هذا التماسك الشيوعى فى المستعمرات اليهودية . وعلى الرغم من أن اليهود معاً لا يطيقون بعضهم البعض ، فإن عداء العرب لهم قد جعلهم يتماسكون . . ومن المناسب أن أذكر صورة كاريكاتورية ظهرت فى برنامج « اغسل وجهك » فى التلفزيون الإسرائيلى . فقد ظهر فى هذا البرنامج الساخر عدد من الوحوش فى سيرك . هذه الوحوش كانت تتشاجر وكادت أن تقتل بعضها البعض ، لولا أن جاء رجال السيرك والتفوا حول القفص الحديدى وراحوا يصرخون ويلقون على الوحوش بالماء البارد والماء الساخن ويضربونها بالطوب . هنا فقط تقارب الوحوش والتصق بعضها ببعض فى صمت رهيب . ماذ حدث ؟ لقد اتحدت ضد رجال السيرك . . اتحدت الوحوش وهى أكثر عداوة بعضها لبعض . ولكن العدو الواحد الذى أهانها بالماء والطوبْ ، قد قارب بينها . . وكذلك يهود إسرائيل : إنهم عشرات الأحزاب السياسية والدينية ، وهم أكثر وأشد عداوة وحقداً وتمزقا ، ولكن عندما يكون هناك عرب فهم يد واحدة وصف واحد .

ولذلك يجب ألا نرفع أعيننا عن الذى يجرى فى المستعمرات وفى خارجها أيضاً .

فلا يزال المجتمع اليهودى ممزقاً . ولا يزال مجتمعاً عنصرياً ، ومجتمعاً دينياً متعصباً فإسرائيل دولة دينية . أى دولة يهودية . وهى فى نفس الوقت دولة عنصرية : الأبيض مواطن من الدرجة الأولى ، والملون من الدرجة الثانية حتى ولو كان

يهودياً . ثم إن اليهودى الذى ولد فى أمريكا ولم ير إسرائيل أفضل من اليهودى الملون الذى ولد فى إسرائيل وحارب دفاعاً عنها وانكسرت ساقاه ويداه !

وإذا كانت إسرائيل قد ذكرت فى « إعلان الاستقلال » أن المواطنين سواء أمام القانون ، فليس هذا صحيحاً ولم يكن ولن يكون. يكفى أن يذهب مواطن واحد لمكتب توثيق عقود الزواج . يكفى أن يسأله : أنت يهودى ؟

– نعم .

– وهى ؟

– زوجتى مسيحية .

وهنا يقفل الحاخام الدفتر الذى أمامه ويحنى رأسه . ويتكاثر حول العريس آخرون يطلبون إليه أن يخرج ويكفى هذا إهانة للرجل وللبلد .

وعلى هذا العريس : إما أن يكون مسيحياً ويتزوج فى قبرص . أو تتحول زوجته إلى اليهودية – إن كان هذا ممكناً – أو يتحول الاثنان إلى الإسلام . فإن كانت هى يهودية وهو المسيحى فلا بد أن يتحول إلى اليهودية. ولابد أن يجىء طبيب ويقوم بطهارته فوراً . وبعد ذلك يجد من رجال الدين من يعترض على أنه يهودى . وعلى ذلك فهو مواطن من الدرجة الثانية !

وفى مدارس إسرائيل مشاكل غريبة فالطلبة إذا عرفوا أن واحدة أو واحداً منهم ليس يهودياً تماماً – أى يهودى الأب ومسيحى الأم أو العكس – راحوا يعيرونه حتى يهرب من المدرسة أو ينتحر . ويذهب أبواه إلى القضاء . . ولن ينفعه أحد .

ففى البطاقة الشخصية لكل مواطن يجب أن يذكر دينه فيقول : يهودى أو عربى أو مسيحى .

أى أن العربى لايهم إن كان دينه مسيحياً أو مسلماً . المهم أنه عربى والسلام . وفى هذه الحالة هو مواطن من الدرجة الثانية المخفضة . أى من الدرجة الثالثة . أما المسيحى ، فلا بد أن يكون أوروبياً أو أمريكياً . أما العربى اليهودى فهو أيضاً مواطن من الدرجة الثانية .

وقصة الشاعر اليهودى (راتوش) وهو من زعماء « حركة كنعان » لم يشأ أن يذكر فى بطاقته أنه يهودى . . فسحبوها منه . ولكنه أصر أن ينص فيها على

أنه عبرى ، أى من سلالة عبرية وليس من الضرورى أن يكون يهودياً . ولا يزال بغير بطاقة شخصية . وهناك قصة مشهورة جداً عن أحد الجنود الذين حاربوا فى سنة ١٩٧٣ هذا الجندى انفجر فيه أحد الألغام ، ففقد ساقيه . فأرسل خطاباً إلى جولدا مائير يقول لها : يا أرجل رجل فى وزارة من النساء .. قولى لى : **كيف إننى إسرائيلى ١٠٠٪ ومكسح ١٠٠٪ ثم إننى يهودى ٥٠٪ ؟!**

ولم يتلق رداً منها ، وسبب ذلك أن والده يهودى وأمه مسيحية !

وقصة جندى أمريكى عمل فى سلاح المدرعات الإسرائيلى . . ولكن لم تعترف الدولة بأنه يهودى،لأن أمه مسيحية . فكتب إلى رئيسة الوزارة يقول لها : إما أن أكون يهودياً ، أو أكون عربياً . . فإذا كنت يهودياً فلماذا لا تكتبون ذلك بخط واضح فى بطاقتى وقد عملت فى الجيش عشر سنوات ، وإما أن أكون عربياً فلا يصح أن أكون جندياً فى الجيش الإسرائيلى .

ولم يتلق رداً من أحد .

* * *

ومن أعجب حوادث حرب العبور أن جندياً حارب فى سيناء ومات وهويدافع عن خط بارليف . فلما دفنوه رفضت الهيئات الدينية أن يكون ذلك فى مقابر اليهود . وإنما أصروا على أن يدفن خارج سور المقبرة . واحتج أبواه . وأخيراً وافقت وزارة الشئون الدينية على أن يدفن فى مقابر اليهود بشرط أن يكون بعيداً بعض الشىء وغضب الأبوان أيضاً وكانت حجة وزارة الشئون الدينية أن الجندى لم تتم طهارته . ووافق الأبوان على استخراج الجثة وإجراء الطهارة لها ودفنها بين قبور زملائه من الجنود الذين ماتوا فى حرب أكتوبر !

* * *

وغير ذلك من مئات الألوف من الأمثلة على المرارة التى فى أفواه اليهود من اليهود . ومع ذلك يجب أن تذوب كل الفوارق بالقوة والعنف . وهذه المستعمرات هى « بوتقة على نار هادئة » لتذوب فوارق الدين واللغة . والطبقة والسياسة واللون من جميع المهاجرين من كل أرض . وأكثر من نصف اليهود فى

إسرائيل مهاجرون كبار فى السن . ولذلك لا يعرفون اللغة العبرية معرفة جيدة .. ولذلك حرصت الدوله على أن تكون اللغة العبرية هى اللغة الرسمية، فصدرت عشرون صحيفة يومية وأسبوعية باللغة العبرية ، ولكن فى نفس الوقت هناك عشرات من الصحف بلغات أخرى متعددة . وهذه اللغة إلى جانب العوامل الأخرى ، تباعد بين اليهود وبين الصابرا – أى اليهود الذين ولدوا فى إسرائيل – أى أشجار الصبار التى تنبت فى الصحراء الفلسطينية التى اغتصبها اليهود .

وفى المستعمرات الكل يدرس ويتكلم اللغة العبرية . فاللغة واحدة . والزى واحد والطعام واحد . والمذهب السياسى أو الدينى واحد . وانعدام الملكية والمساواة بين الجميع هى الخيط الذى يمسك الجميع والإطار الذى يحتويهم والهدف الذى يشدهم بعصبية وتعصب .

ويقال إن هذه المستعمرات لها أصل تاريخى قديم . ويحاول اليهود أن يردوا كل شىء فى الدنيا إليهم . فهم أول من فكر فى أى شىء فى كل شىء . . فيرون أن هذا النوع من الشيوعية الجديدة ، قد ظهر عندهم قبل ذلك فى القرن الأول قبل ميلاد المسيح . « جماعة الأطهار » أو « جماعة الأتقياء » . . وهم أتقياء وأطهار لأنهم زاهدون فى الدنيا وفى نعيم الدنيا، فقد بنوا الأسوار حول أنفسهم . يعملون فى ملابس بيضاء فى رهبانية تامة : لاذهب ولا نساء ولا أحد يملك شيئاً من كل ما فى يديه من أرض وملابس وبذور وثمار . .

ربما كانت هذه هى البداية . . ولكن الأقرب إلى التاريخ والعقل هو أن الذين أقاموا إسرائيل هم من الصهاينة الشيوعيين . فكلهم من روسيا وبولندا . وهم جميعاً يهود ملحدون . ولذلك كانت هذه المستعمرات هى مناطق لإذابة الفوارق بين كل الناس والقضاء على الصراع الطبقى . ثم إنها نقط وثوب إلى المجتمع الإسرائيلى لتوحيده بعنف ضد العالم العربى الذى حوله .

هذا صحيح ولكن لأسباب مختلفة . فالمستعمرات التابعة للأحزاب السياسية تريد مجتمعاً شيوعياً خاصاً ثم شيوعياً عاماً . أما المستعمرات التى تملكها الأحزاب الدينية فهى تريد مجتمعاً يهودياً خالصا من أجل الاستيلاء على « الأرض التى أعطاها الرب لأبينا إبراهيم » وطرد الشيوعيين من إسرائيل . . وكل ذلك توحيد دينى شامل ضد العرب !



قل لى أيها الشاب كيف تعيش ؟

اجتمع عدد من الشباب فى إحدى المستعمرات اليهودية يتساءلون : لماذا لا يوجد إلا عدد قليل من اللصوص فى السجون ؟

وتلفتوا بعضهم إلى بعض ، قال واحد : لأنه لا يوجد ما يسرقونه .

– بل لأن أكثر اللصوص فى الجيش !

– بل لأنه لا توجد سجون كافية فى إسرائيل .

– .. السبب الحقيقى هو أن لدينا عدداً ممتازاً من المحامين ..

– ومن قال إن الذين فى السجون لصوص ؟ إنهم جماعة من المتآمرين هربوا من البوليس ودخلوا إلى السجن ليكون عندهم وقت أوسع للتفكير فى جرائم أكبر !

– بل السجون أرحم من المستعمرات ..

– لامانع عندى من دخول السجن إذا ضمنوا لى كمية كبيرة من الحشيش وفتاة تدعى إنها أختى لتزورنى من حين إلى آخر !.

* * *

ولم يكن الجو مرحاً . ولم يكن هؤلاء الشبان يحاولون أن يسخروا من بلادهم . ولكنهم جادون فى تفكيرهم،وانتهى بهم التفكير الجاد إلى مثل هذه الآراء . . أو إلى مثل هذه الخلافات فى الرأى . .

ولذلك فقد استمتعت بقراءة كتاب بعنوان : « **الإسرائيليون الجدد .. تقرير عن الجيل الأول الذى ولد فى إسرائيل** » تأليف (داود شينبرن) وآخرين . وهذا الكتاب هو تقرير من أفواه الشبان . فقد التقى المؤلف بمئات من الجامعيين والجنود والموظفين وأبناء المستعمرات وآبائهم وأقاربهم ، ومن الفتيان والفتيات . وسجل كل أحاديثهم . ثم درسها المؤلف . واستعان بتقارير الهيئات الاجتماعية والنفسية والأبحاث الميدانية . **ولا أظن أن عندنا دراسة بهذا المعنى عن جيل ثورة يولية ولا حتى ، جيل ما بعد ٥٦ أو ماقبل ٦٧ أو ما بعد ٦٧ .. لماذا ؟ هذه قضية أخرى !**

وعلى الرغم من حرص المؤلف على الإشادة بإسرائيل ، فإن الكثير مما نقله يستحق الاهتمام الشديد . فهو اتجه إلى الشبان يسألهم عن حياتهم فى إسرائيل . ويسألهم عن مستقبل الحياة مع اليهود ومع العرب ويسألهم إن كانت إسرائيل قد حققت الأحلام الكبرى التى عاشوا عليها وهم أطفال . هل إسرائيل ومستعمراتها هى الجنة الموعودة ؟ لماذا هم مختلفون ممزقون ؟ لماذا إذا جلس شاب وأبوه وأمه ، كان الصمت رابعهم ؟ لماذا إذا خرجوا من الصمت اختلفوا وانسحب الأب حرجاً أو انسحب الابن يأساً ، أو انزوت الأم تبكى ؟ لماذا كل هذا ؟ إنها قصة جيل وجيل . . أو قضية الفجوة التى تتسع بين الأجيال .

المؤلف يرى أن الأسرة فى إسرائيل والدولة أيضاً ، من صنع الرجل لتحكمها المرأة . . فالأسرة الصغيرة تجد فيها الابن أفضل من فى البيت . . وتجد الأب هو سيد البيت ، ولكن الأم هى التى تحكم الجميع . . تماماً كما كانت جولدا مائير رئيسة للوزراء تروض عدداً من الوحوش مثل ديان وسابير وبنحاس وآلون وبيريز . . فهذه السيدة هى التى حكمت جميع المتنافرين . . ويروى أن بن جوريون عندما ذهب إلى باريس رافقته جولدا مائير وزيرة الخارجية فى ذلك الوقت وكان بن جوريون يريد أن يقدمها إلى الجنرال ديجول . فسأله ديجول : هل هناك فى التعاليم اليهودية ما يحتم أن تكون المرأة وزيرة

وقال بن جوريون : ومن قال إن جولدا مائير امرأة . . إنها أرجل واحد فى الوزارة !

وعلقت مائير على ذلك : إن الرجال يقصدون بذلك تحيتى والإشادة بى وإن كنت لا أرى ذلك !

* * *

ولكن الشبان لهم رأى آخر . . أحد الشبان الذين سألهم المؤلف قال : بل لا أحب أن تعمل المرأة بالسياسة . المرأة للبيت . هى هكذا . أنا أعمل وهى تدبر البيت وتربى الأولاد . . إن جولدا مائير ليست امرأة . إنها هيئة . مؤسسة . إنها عبقرية . . ومن هو المغفل الذى يقبل الزواج من امرأة عبقرية . . أريد زوجتى امرأة بسيطة ذكية . متعلمة . وأفضل ألا تكون جامعية !

شاب ثان يقول : أريد أن أدخل الجيش وأنهى خدمتى . وأعود إلى الجامعة أكمل تعليمى . وأجد لى عملاً وأكون قد بلغت الرابعة والعشرين وأتزوج فتاة أصغر منى . وأقل ثقافة . ويكون لنا بيت وثلاثة من الأولاد . ونعيش ككل خلق الله فى كل مكان !

شاب ثالث يقول : لابد من الزواج . . إنه علاقة صعبة . التزام أخلاقى وربما كانت الزوجة الواحدة لاتكفى . أو ربما كانت العلاقة بامرأة واحدة لا تكفى . فهذه هى طبيعة الرجل . ولكن لايمكن أن تقوم أسرة على الخيانة . فلكى يكون الزواج ناجحاً ، يجب أن يكون الزوج مخلصاً ويكون نموذجاً لأولاده .

وقد لاحظ المؤلف أن ٧٠ ٪ من الشبان اليهود يرون ذلك . وقالت فتاة فى العشرين من عمرها :

— لم تكن لى علاقات جنسية . وليس سبب ذلك بروداً فى طبعى . ولاجبناً . ولكنى أفضل تجربة الزواج . . أو أفضل « الزواج التجريبى » أى أن يكون هناك شخص أحبه . ونعيش معاً بلا زواج لنتفاهم على كل شىء وفى كل شىء . وبعد ذلك نعقد زواجاً سعيداً . . إنهم فى المستعمرات يعيشون بلا عقد زواج . ولكن بلا حب أيضاً . . وأنا أرى أن الحب شرط الزواج . وأرى أن التفاهم أساس النجاح فى أن تكون هناك أسرة . . وأرى أن الحياة الزوجية يجب ألا ينظر إليها الإنسان بهذه السهولة والاستخفاف .

ومئات من بنات القيبوتص – المستعمرات اليهودية – كل واحدة تفضل الحياة فى المدينة ... فى تل أبيب أو حيفا . لأنها ملت الحياة فى الصحراء مع نفس الوجوه . . ونفس الروتين اليومى فى كل شىء . . حتى أصبحت الحياة صامتة ساكنة جامدة . فليس عند أى إنسان شىء يقوله أو يفعله . بل إنها لاحظت أن معظم الناس لا يردون تحية الصباح أو المساء . . أو لايبدأونها . . فكل شىء معروف مقدماً . وكل شىء لا داعى له . ولاقيمة له . . وتقول : ولا أفضل الزواج بغير حب . . وفى نفس الوقت لا أفضل الحب الملتهب . لأن الحب المشتعل لا يدوم . أفضله هادئاً مستمراً مستقراً . . ولاشىء من ذلك فى المستعمرات !

وسئل شاب من أبناء المستعمرات فقال : أنا لا أحب الحياة فى المستعمرات . لأن هذه الحياة بلا حياة . فأنت لاتجد نفسك . أنت ضمن الآخرين . أنت محشور فى الطابور . أنت « مزنوق » فى المطعم . . أنت مفروض على الآخرين . وهم مفروضون عليك . ليست لك رغبات خاصة . بل أنت جزء من رغبة عامة . . من طابور طويل ولذلك فأبناء المستعمرات لا يستريحون إلا إذا ذهبوا إلى الجيش . . ففى الجيش عمل جماعى . وطاعة . ولكنهم حتى عندما يذهبون إلى الجيش فإنهم كالذى هرب من الفرن إلى إناء يغلى . . إنها نار أرحم من نار أخرى .

قالت فتاة مجندة وتخصصت فى علم نفس الجريمة : أنا أفضل أن أعمل فى الشرطة العسكرية . . أدرس الجنود . واهتم بهم . وأتخصص فى المخدرات . فأكثر الشبان يدخنون الحشيش .

وسئل شاب أبوه روسى وأمه بولندية : لا أوافق على المساواة بين المرأة والرجل ، فالمرأة ما الذى تريده أكثر مما أخذت ؟ إن كل شىء ينتهى بين يديها . . هى التى تدير البيت وتربى الأطفال ومعها كل فلوس الأب . . ثم إنها أكثر راحة واسترخاء من الرجل . كم عدد الرجال الذين يموتون فى الحرب وكم عدد النساء ؟ ثم نتحدث عن المساواة . . مساواة من بمن ؟ إنها مساواة الرجل بالمرأة التى لا تموت ولا تصاب بشىء !

وقالت إحدى المجندات : المرأة يجب أن تؤدى واجبها .. ولكن المرأة يجب ألا تحارب إنها لا تقوى على ذلك . دعونا نتحدث بصراحة وصدق . . إنها تفقد أعصابها بسهولة . . ولكن وجود المرأة فى الجبهة إلى جانب الرجل يرفع معنوياته ويجعله يشعر أنه يعيش فى مجتمع طبيعى . ولكن الرجل أقوى جسمياً . . وأكثر استعداداً من الناحية النفسية للقتال والقتل . .

أحد الجنود قال : لايمكن أن نحب الحرب . . ما الذى نحبه فى الدم والموت والعفونة والدخان والشظايا ؟ ما الذى نحبه فى الخوف الدائم من كل جهة . . ما الذى يعجبنا فى أن نهرب من أوروبا حيث الأمان والرفاهية إلى هذه الصحراء حيث كل شبح يبدو من بعيد نتصوره عربياً جاء يقتلنا . . إنهم إذا لم يظهروا على الأرض ، فإنهم يطاردوننا فى أحلامنا . . إننا نريد أن نعيش كخلق الله . . نريد حياة عادية . . إننا إذا تراجعنا ، فإن تراجعنا هذا لن يقف إلا عند شاطىء البحر . . العرب يريدون القضاء علينا . . ولذلك يجب ألا نتراجع . . والعرب إذا دمرونا فلن يقوموا ببناء بيوتنا . إن أمريكا حطمت ألمانيا واليابان ، ثم هى التى بنت هذه البلاد وأقامت اقتصادها كله . . ثم إن روسيا التى هدمت أوروبا الشرقية لم تعمل على بنائها . . ولم تبن نفسها إلا بصعوبة وتضحيات فادحة . . فهل من المعقول أن تقوم مصر ببناء إسرائيل بعد أن تقضى عليها ؟ ولذلك يجب أن نحارب ونحن كارهون للحرب والدم . . إننا نريد أن نعيش ككل الناس الذين يجيئون إلى إسرائيل ويتفرجون علينا كأننا وحوش أتوا بها من الغابات ثم وضعوها فى بيوت زجاجية حتى لا تؤذى السادة المتفرجين !

* * *

وقد لاحظ المؤلف من قراءته لكثير من الخطابات التى أرسل بها الجنود إلى زوجاتهم أن الخطابات جافة . كأنها مراسلات حكومية .

فليست فيها عبارة حب . أو شوق . بل إن أحد الجنود كتب يقول لزوجته بعد شهرين فى الجبهة : نسيت أن أقول لك إنك وحشتينى . ولابد إنك قد عرفت ذلك من نفسك . هل ركبوا لك عداد النور الجديد ؟ .. الخ .

ولما سئل عدد من الشبان إن كان صحيحاً أنهم هكذا بلا عواطف ؟ وافق بعضهم ، بينما اعترض الآخرون قائلين : إننا جيل مختلف عن أجيال آبائنا . فلنا أساليبنا الخاصة فى التعبير عن مشاعرنا . وليس من الضرورى أن نقول ما يقولون . إن المسألة من أولها لآخرها : هى مجرد عادة وضغط مستمر لكى تقول شيئاً واحداً . فالذى يحدث هو أننا ونحن صغار يقولون لنا : يجب أن تحب أمك وأباك وزوجتك وابنتك ووطنك ودينك . . يجب ، يجب . ولذلك إذا كتبنا أو تكلمنا فلا بد أن نقول : أحبك ياأبى ياأمى . . إنهم هم الذين عودونا على ذلك . وضغطوا علينا . . حتى نكرر ذلك كالببغاء فإذا فعلنا فنحن طيبون مطيعون مخلصون شرفاء . هذا رأيهم ولكننا جيل آخر . له أسلوب آخر ، وفهم مختلف وآمال مغايرة . ويجب أن يكون هذا معروفاً . وليس من حق أى جيل ، مهما كانت أعماله عظيمة ، أن يدوس الأجيال القادمة ويفرض عليها رأيه وحياته ، دون أن يرى هذه التغيرات التى طرأت على كل شىء !

إن احترامنا لآبائنا ، وما صنعوه من أجل أن تكون هناك دولة إسرائيل لايبرر مطلقاً أن يعيشوا هم لنموت نحن . . ويموت الكلام على ألسنتنا ، ومشاعرنا فى قلوبنا باسم الطاعة لهم والولاء لمبادئهم !

* * *

ولما التف عدد من السياح الأمريكان حول أحد شبان المستعمرات سألوه فقال : هه ! . . طبعاً أنتم سعداء بأن تكونوا فى هذه الأرض المقدسة ؟ لا أعرف لماذا تسمونها مقدسة . . ماهو المقدس فى الذى ترونه الآن . . صحراء وذباب . . وعرق وحشرات وزواحف . . وشباب نحيف حزين . . وأنتم سوف تعودون إلى بلادكم الغنية الرخية وتشربون أطيب الخمور أمام التلفزيون الملون . . ثم يقول أحدكم للآخر : كنا فى إسرائيل ورأينا هؤلاء الشبان الأبطال على الأرض المقدسة . . وتتنهدون . . ولكن ما الذى قلتموه ؟ ما الذى بقى من هذه الأرض وأبناء هذه الأرض فى نفوسكم ؟ إنها أرض ولكن ليست مقدسة إلى هذه الدرجة . . إن جيل جولدا مائير هو الذى ثار على أوضاع اليهود فى العالم . . وآبائى هم الذين أكملوا هذه الثورة . . أما نحن فنريد أن تكون لنا حياة عادية . . إننا نتعلم كراهية العرب واحتقارهم . . ولكننا لانستطيع أن

نعيش حياة عادية كالعرب . وإننا نحسدهم على حياتهم الهادئة . . إن كل ما أريده هو أن أكون إنساناً عادياً . . ولا أريد أن أكون حيواناً شرساً خائفاً طول الليل والنهار . . ومطلوب منى ، باسم الوطنية والدين أن أحب زوجتى وابنتى ووطنى . . فمن أين آتى بهذا الحب إذا كان كل ما ينفجر فى داخلى هو : آبار المرارة والكراهية والثأر !

يقول المؤلف إنه التقى بمئات الشبان يكررون نفس هذه المعانى بعبارات مختلفة. إنهم ساخطون على زعمائهم . كارهون لحياتهم . يتمنون لو ولدوا على أرض أخرى ، أو عادوا ليصبحوا مثل كل الناس العاديين فى بلاد أخرى . . فلا يحملون السلاح ولا يحملون تحت السلاح شظايا شائكة من الخوف والكراهية .

* * *

وفى سنة ١٩٦٨ قرر أبناء مستعمرة « عين شمر » أن يحتفلوا بانتصارات يونيو سنة ١٩٦٧ وأن ينيروا المصابيح ويدقوا الطبول ويأكلوا ويرقصوا . . فقد انتصر اليهود على العرب . . ولكن بعض رجال المستعمرة رأوا أنه لا بأس من الاحتفال بالنصر ، ولكن يجب أن يذكروا موتاهم . . وهذه الذكرى تجعلهم يقتصدون فى الحفاوة على جثث القتلى .

ولكنهم اهتدوا إلى حل وسط . . وهو أن يحتفلوا بالنصر وبذكرى موتاهم فى وقت واحد . ولكى يعرفوا قيمة التضحية التى بذلها الموتى يجب أن يناقشوا هذه القضية : كم تساوى حياتنا فى هذه المستعمرة ؟

ودارت مناقشات حادة وجادة وهامة جداً . وقد سجلت هذه المناقشات على أشرطة وفى مسجلات وزارات الشئون الدينية والاجتماعية والدفاع . لأن هذه المناقشات هى صورة لأعماق المجتمع الإسرائيلى الجديد .

أعلن أحد الشبان : أن الحياة فى المستعمرات يجب أن تختلف عما هى عليه الآن . فالذين أقاموا المستعمرات هم أناس أصحاب خيال عريض وأحلام جامحة . هؤلاء المؤسسون لم يعد لهم وجود . إنهم يطبقون أفكاراً قديمة على جيل جديد .

وقال شاب آخر : إن هذه المستعمرات قد أوحت بها ضرورات العصر الماضى . فالذين أقاموها أناس فى حالة خوف . أناس هاربون . ولكن الآن لم يعد هذا الخوف مقبولاً . ثم إن الجيل الجديد لم يعد هارباً من شىء .

وقال شاب ثالث : الدين نفسه بهذه الصورة لم يعد له معنى . . فالدين يطالبنا بالبكاء على معبد سليمان ولكن لماذا نبكى عليه : فى استطاعة أى إنسان أن يبنى المعبد . . وأن يبنى أكبر وأفخم منه . . ثم حائط المبكى ! على أى شيء نبكى هنا وفى كل مكان ؟ إن اليهود قد استردوا واستولوا على أرض أكثر مما كانوا يحلمون . . فما الذى يبكيهم . . ؟

وقال رابع : إن الإنسان فى العصر الحديث . . فى أوروبا وفى أمريكا يشكو من العزلة . . إنه وحده . . بعيداً عن الأب والأم . وبعيداً عن سير الحياة الحديثة .. وأنه وحده منعزل لأن أحداً لا يفهمه ولا يقدره .. وليس عند أى إنسان استعداد لأن يفعل ذلك . وفى هذه المستعمرات أنواع وأشكال من العزلة . . فنحن لانتفاهم . .لا كلام ولا سلام . ثم إننا منعزلون عن المجتمع الإسرائيلى كله . ومنعزلون فى داخل هذه العزلة . . ولذلك يغلب علينا الحزن والأسى . . لماذا ؟ لأنه لاتوجد صداقة . . ولا محبة . .ولا يوجد شعور خاص عند أى واحد منا . .لا نملك حتى مشاعرنا . . ومفروض أن هذه المستعمرات تهيىء الإنسان لحياة جديدة .. حياة بعيدة عن هذه المستعمرة .. ولكنها لا تساعده ، وإنما تساعده على الهرب من الحياة والسخط على الأحياء بلا سبب معقول !

وقال شاب : إن هذه المستعمرات قائمة على فكرة فى غاية الغرور والرعونة . هذه الفكرة هى : إنه فى الإمكان تغيير الإنسان . . وأن ذلك يمكن أن يتم بسرعة . . ولذلك نشعر جميعاً بصدمة هائلة ، لأن شيئاً من ذلك غير ممكن بأية صورة . . فنحن لا عشنا حياتنا ولا عشنا حياة آبائنا وأجدادنا . . ولا نحن راضون عن هذا أو ذاك .

وقال أحد الكبار فى السن :إن الغرض من إنشاء المستعمرات هو : أن يكون اليهودى زارعاً للأرض . . وأن يكون جندياً . . وأن تزول الفوارق بينه وبين اليهود الآخرين . وهو الآن يزرع الأرض ويدافع عنها ، ولكن ليس له أى نصيب فيما يزرع . . وليس من العدل أن يدافع عن أناس يعيشون فى المدن . وهو طريد الصحراء .

إنها صورة متعددة الألوان ودرجات الحرارة لحياة الشاب أو اليهودى الجديد فى إسرائيل . .



وجع في قلب إسرائيل
ولم نضع حرف الياء على صدورهم

كاتب أجنبى صديق قال لى تعليقاً على هذه السلسلة : إذن أنت عدو للسامية ! ولم يتنبه إلى أن هذا الحكم لم يفزعنى . وليس صحيحاً . ولكن لابد من توضيح لأشياء كثيرة . ومن أجل ذلك سوف أعترض هذه السلسلة بتسجيل المناقشة التى دارت بيننا ..

فالعداء لليهود قديم كاليهود أنفسهم . ولنا أن نتساءل : لماذا يكره الناس هؤلاء اليهود ؟! أو ما الذى يفعله اليهود حتى يكرههم الناس ؟

إن قصة الفتاة اليهودية « هداسة » التى جاءت فى سفر « استير » فى التوراة أول تفسير لذلك ..

ففي هذا السفر نقرأ عن ملك فارسى اسمه اتشويرش كان مخموراً فطلب من الخدم أن يأتوا بزوجته عارية ليتفرج الضيوف على جمالها . اعترضت الزوجة . فطلقها الملك . . وعندما أفاق من الخمر ندم على ذلك ولكن ندمه لم يطل . فهو يريد أن يتزوج فتاة أجمل منها . وتقدمت الفتيات العذراى الجميلات . . ولكن رجلاً يهودياً اسمه مردخاى قرر أن يقدم ابنة أخيه واسمها هداسة . . كانت جميلة . . وجعل اسمها : استير أى النجمة . وجملها وقدمها وتفوقت على جميع الفتيات وأصبحت ملكة . وأوصاها ألا تقول إنها يهودية وأنهامن سلالة اليهود الذين أسرهم الملك البابلى نبوخذ نصر . وأخفت ذلك . . وتسلل اليهود وراءها إلى قصر الملك . . وعلم مردخاى بمؤامرة على الملك . فأخبره بها وقضى الملك

على المؤامراة وتسلل اليهود أكثر إلى حاشية الملك . واتسع نفوذهم ونشطت تجارتهم وزادت ثرواتهم . . وضاق بهم الناس . فتآمروا على اليهود ، وأصدر الملك قراره بالقضاء عليهم . . ولكن . . سرعان ما أنقذت استير هؤلاء اليهود جميعاً . وذكرت الملك بأن مردخاى هو الذى أنقذ حياته . . وأعاد الملك إلى اليهود حياتهم . . وطلب إليهم أن ينتقموا من الذين تآمروا عليهم . . وطاحت سيوف اليهود وقتلوا المئات فى كل مكان . . وانتصرت استير من أجل شعبها . . وأصبح هذا اليوم عيداً سنوياً !

منذ هذه الأيام واليهود يعرفون أنهم شعب مكروه . وهم مكروهون لأنهم منعزلون عن الناس . ثم إن لهم تقاليد وعادات تجعلهم مختلفين مخالفين لكل الناس . . وقصة أستير تؤكد هذا الخلاف تؤكد أن التآمر شرط لبقائهم . . وليست هذه هى القصة الوحيدة فى تاريخ اليهود . . فهناك ألوف فى كل مكان يتآمرون على الناس ، أو يستدرجون الناس لكى يتآمر بعضهم على بعض حتى ينشغلوا عن اليهود .

و « العداء للسامية » قديم . . ولكن هذا التعبير جديد . فقد ظهر لأول مرة فى مؤلفات الكاتب الفرنسى أرنست رينان فى سنة ١٨٧٠ .. وقد حاول كثيرون من المفكرين أن يجدوا تفسيرا نفسياًواقتصادياً لهذا العداء .. وكان آخر الذين حاولوا ذلك الفيلسوف الوجودى سارتر فى كتابه : « تأملات فى المسألة اليهودية » . . وكل النظريات تقول : إن الشعوب كلها فى تبريرها لأخطائها ، فإنها تلقيها عادة على رءوس اليهود . فإذا حدثت مصيبة قالوا : اليهود . . وإذا وقعت أزمة اقتصادية قالوا : اليهود : وإذا انتشر وباء فهم اليهود . وتفسير ذلك ، فى رأيهم ، أن الشعوب تبحث باستمرار عن « كبش فداء » . . أو عن « شماعة »أو عن « صندوق زبالة » يرمون فيه بقذارتهم — ولا يجدون غير اليهود . . والسؤال لا يزال قائماً : ولكن لماذا ؟

لأن اليهود منعزلون . متماسكون فى مواجهة الناس وليسوا معهم . . فهم الذين صلبوا المسيح . والديانة المسيحية تؤكد ذلك عشرين قرناً . . وهم يدعون أن دينهم يمنعهم من الخدمة العسكرية . ومعنى ذلك أن الشعوب يجب أن تموت

من أجلهم . وهم يكسبون فى الحرب والسلم . . ثم إن اليهود كانوا يشتغلون بالسحر الأسود . . أى أنهم فى حلف مع الشيطان ضد الإنسان . وقد رأت الشعوب فى كل العصور أن هذا الارتباط بالشيطان هو الذى جعلهم يتفوقون فى الطب والفلك . وكثيراً ما احتمى اليهود فى الطبقة الحاكمة يعطونهم المال ويغرقونهم فى الجنس . وقد أدى ذلك إلى كراهية الشعوب لهم . .

كما أن اليهود – ككل الأقليات فى كل بلد – يسارعون إلى العمل فى الجمعيات التخريبية أو فى الحزب الشيوعى . فهم يتآمرون بنظام ، على الأغلبية من الشعب . . وفى عصر القوميات فى أوروبا فى القرن التاسع كانت اليهودية أو « الصهيونية » قومية جديدة . . وفى نفس الوقت كان اليهود ضد القوميات ، إنهم « عالميون » حريصون على تحطيم كل القوميات وإذابة كل الحدود والطبقات والألوان والأديان ، هذه المواقف المتناقضة حيرت الناس وجعلتهم لا يصدقون اليهود ويرونهم كذابين متآمرين على كل القوميات والشعوب . وأنهم يدخلون كل تشكيل دينى أو سياسى بقصد القضاء عليه من الداخل . . وفى سفر أستير نجد أنه يقول لليهود : إنكم مختلفون عن الـ ١٢٧ شعباً الموجودين فى ذلك الوقت . أى أنهم مختلفون ومتفرقون ويجب أن يبقوا كذلك وأن يحرصوا على هذه الهوة بينهم وبين الشعوب الأخرى . والتوراة تؤكد لهم ضرورة أنهم الشعب الذى اختاره الله لعبادته . . هم وحدهم . . وأنهم أحق الناس بحمل رسالة الله . وأن الله ليس لكل الشعوب . وإنما لليهود فقط ! ولذلك فهم بشر يعبدون الله ، وبقية الشعوب حيوانات لايحق لها أن تعبد ولا أن يكون لها رب . . وإذا كان فليس هو الرب الذى اختار إسرائيل واختارته إسرائيل .

* * *

وتاريخ اضطهاد أوروبا المسيحية لليهود طويل وملىء بالدخان والدماء . . وفى فرنسا كانت البدايات الأولى لنبذ اليهود وإغراقهم وإحراقهم . . وفى ألمانيا نادى الشعب الألمانى فى القرن التاسع عشر بأنهم خونة لكل الشعوب . وظهرت فى ألمانيا سنة ١٨١٩ جمعية « هب هب » ، كانت تهاجم اليهود الذين هم « ملوك العصر » والذين يملكون كل ثروات الشعوب ويمتصون دماء الأبرياء . . والذى راجع السنتين ١٨٨٠ و ١٨٨١ فى ألمانيا يجد ألوف الصفحات المروعة عن الذى

فعله الألمان باليهود . . وكيف ارتفعت نداءات وطنية متطرفة تقول : لقد انتصر اليهود على الجرمان . . وكيف أن ألمانيا طردتهم من المدارس والجامعات ومنعتهم من التجارة . . وكيف تقدم الألمان إلى المستشار بسمارك يطلبون طردهم من ألمانيا . .

بل إن هذه الكراهية الشديدة لليهود ولهذا الجنس السامى – أحفاد سام ابن نوح – قد دفع الفلاسفة الألمان إلى إلغاء الديانة المسيحية . لأنها ديانة سامية . . والإبقاء على كل ما هو آرى . لأن السامية انحلال ودعوة إلى التخريب . .

وما حدث فى روسيا وأوروبا الشرقية شىء مروع ولا يمكن حصره . ولكنه عداء لليهود وكل ما هو سامى . . وفى سنة ١٨٨١ كانت رائحة الدخان تبدأ من البحر الأسود حتى بحر البلطيق – لقد كانوا يحرقون بيوت اليهود وكتبهم واليهود !

إنهم يكرهون اليهود . إنهم حاولوا أن يتعايشوا معهم ، ولكنهم يرفضون ويتعالون ويقفلون على أنفسهم الأبواب يحصون ثرواتهم ويستعدون للهرب – حدث ذلك من مائة سنه ومن مئات السنين فى كل العالم !

وبلغت الكراهية للساميين قمتها عندما ظهرت الخطة السرية الخطرة للسيطرة على العالم فقد كشف مراسل صحيفة التيمس فى اسطنبول سنة ١٩٢٩ أن اليهود قد ألفوا كتاباً اسمه « **بروتوكولات حكماء صهيون** » عندما انعقد مؤتمرهم الصهيونى الأول فى مدينة بازل بسويسرا .. وأنهم فى هذا المؤتمر قد اتفقوا على خطتهم الشيطانية للسيطرة على العالم .. وترجم هذا الكتاب فى كل بلاد العالم .. **وفى مصر ترجم أربع مرات .. وكنت أول من أشار إليه وترجم فقرات منه منذ خمسة وعشرين عاماً !**

ومع النازية الألمانية بلغ العداء للسامية أعلى مراتبه . . وأصبحت قضية اليهود هى القضية الأولى فى الفلسفة النازية . وهذا واضح فى كتاب « كفاحى » لهتلر وكتاب « أسطورة القرن العشرين » للفيلسوف وزنبرج . . ومن قبله ظهرت

فلسفة العداء للجنس السامى عند الفيلسوف الألمانى الجنسية الإنجليزى الأصل « تشمبرلين » والذى تزوج ابنة الموسيقار فاجنر . . وكذلك فى مؤلفات الفيلسوف نيتشه . .

والألمان المعاصرون معذورون إذا ارتعدوا لمجرد ذكر هذا التاريخ الرهيب لليهود فى بلادهم . . فقد طردوا وأحرقوا وخنقوا . . وأقيمت لهم معسكرات الاعتقال فى داخاوا وبلزن ويوخنفالد واوشفتس وتزبلينكا وغيرها . . وحرموا من الدراسة والتدريس ومن التجارة . . وأرغموا على أن يجعلوا لهم أسماء عبرية . . وأن يضعوا حرف « ياء » – أى يهودى – على ملابسهم . . وأن تضع الدولة هذا الحرف على جوازات سفرهم . .

ولا شىء من ذلك ، ولا واحد على ألف قد حدث فى الشرق العربى كله . .

ثم إننا لسنا « معادين للسامية » لأننا ساميون . ومن الناحية الدينية فكل الأديان السماوية وغير السماوية سامية . . واللغة العربية سامية أيضاً . فنحن لسنا أعداء للسامية ، أى أعداء لأنفسنا . . وإنما هذه صفة أو تهمة يوجهها اليهود إلى الأوروبيين ، وليست إلى الآسيويين أو الأفريقيين . .

* * *

ولا يوجد عداء للسامية كالموجود الآن فى إسرائيل . فهم فى إسرائيل يحتقرون اليهود الملونين ، أى الساميين والحاميين أيضاً . واليهود الآريون هم الذين يحكمون إسرائيل . . وهناك نوعان من اليهود ، يهود سفر ديم – أى أسبان أو شرقيون عموماً . . ويهود اشكنازيم – أى ألمان – أو غربيون عموماً . . وبين هذين النوعين أو الطرازين صراع وقتال وحرب عنصرية دموية . . بين الساميين والآريين . . فأكثر الناس عداء للسامية هم اليهود البيض فى إسرائيل !

وليس عندنا فى الشرق أو فى مصر ما يدل على العداء للسامية ولا عندنا « عقدة الذنب » العميقة عند الأوروبيين ضد إحراق وإغراق وطرد واضطهاد اليهود . . وإنما الذى عندنا هو التكفير عن هذه الذنوب الأوروبية . . فبسبب إرهاب اليهود فى أوروبا جاء اليهود إلى الشرق ... وبسبب العداء للسامية ظهرت الصهيونية . . أى القومية اليهودية . . أو جمع اليهود من كل مكان

إلى مكان واحد هذا المكان هو القلب الدامى للعالم العربى . . فنحن - هنا - نكفر عن جريمة لم نرتكبها ، وعن اضطهاد لم نقم به . ذبحوهم وقتلوهم بالملايين هناك ، يموت ويتشرد منا الألوف والملايين فى كل أرض . . ولتقع حروب توسعية على الدول العربية . . ومع ذلك فحربنا مع إسرائيل حرب ضد كيان سياسى عنصرى مجنون ، ضد نظام إرهابى . . وليس ضد الساميين الذين هم كل العرب ومعظم اليهود !




زوروا إسرائيل لتشاهدوا الأهـرام وكتب الموتى



قبل حرب ١٩٧٣ كانت إسرائيل تعلن في الصحف : زوروا إسرائيل لتشاهدوا الأهرام !

وكان ذلك يغيظنا .. ولكنها كانت تستطيع أن تقول دائماً : طالعوا كتبنا لتعرفوا ماذا حدث في مصر !..

وهو يغيظنا مرتين : مرة لأنها تقول ذلك ، ومرة لأنها الحقيقة .. وقد كتبت عن هذه القضية منذ أسابيع ، فلا يزال الكتاب الإسرائيليون والقادة العسكريون أسبق إلى رواية ماذا حدث هناك وهنا . ومن الطبيعي أن نصبح قراء لهم . ثم لا نذهب إلى أبعد من ذلك ، بل أعجب من هذا ما يحدث في العالم العربي الآن : فالصحف تطلع علينا بمذكرات غريبة .. والناس يضيقون بتشويه صورة مصر بأقلام أبنائها ووزرائها وقادتها . ولكن أحداً لا ينتقل إلى الرد أو الصد ، وإنما نكتفي بالبكاء على انعدام الأخلاق . ويكون هذا البكاء إضافة جديدة لانعدام الأخلاق : فلو أن أحدا لديه الشجاعة على الرد لفعل ، أو لو أن لديه وفاء لأحد لاستنكر شيئاً مما يضايقه .

وقد قابلني منذ أيام أحد أعضاء مجلس قيادة ثورة يوليو ، وأفرغ كل ما لديه من كلمات نابية ، وطلبت إليه أن يبرىء ذمته من هذا الذى ألصق بثورة يوليو وزعيمها جمال عبد الناصر . فما كان منه إلا أن أخرسني قائلا : ربنا هو المنتقم الجبار . . آمنت بعظمة الله وهوان مخلوقاته

وكما توقعت فقد صدر فى إسرائيل كتاب للسيد حاييم هرتسوج بعنوان « الحروب العربية الإسرائيلية » . والكتاب نموذج لما يجب أن تكون عليه الكتب العلمية . فالمؤلف قد شارك فى بناء دولة إسرائيل والدفاع عنها منذ كان صغيرا يوم أقسم وهو طفل فى بدرومات القدس على الإخلاص لإسرائيل حتى الموت، ثم شارك فى كل حروبها . وساهم فى بناء الجيش والمخابرات ، وكان سفيرا لبلاده فى الأمم المتحدة . واعتمد فى كتابه الجديد على اللقاءات الشخصية لكل القادة والساسة ، وعلى عشرات المراجع التاريخية ، وعلى الوثائق الرسمية ، وعلى تجربته الشخصية . وكل هذه شروط بديهية عند تأليف أى كتاب علمى . ولكننى أذكرها لأؤكد الفارق بين الذى صدر فى مصر والذى يصدر فى إسرائيل . . وقد علمت من المؤلف أن الطبعة الأمريكية لهذا الكتاب تتضمن فصولا عن الغزو الإسرائيلى للبنان وأنها سوف تصدر بعد أيام . .

والكتاب وجهة نظر لرجل عسكرى . استطاع أن يجمع كل الحروف فى خيط واحد ، وأن يربطها ربطا محكما ، وأن يشير إلى أخطائهم وأخطائنا أيضاً . ولا أدعى أننى عسكرى ، ولذلك لابد أن يجد العسكريون فى هذا الكتاب ما يعجبهم وما يغضبهم – وقد أغضبنى الكثير مما قرأت . ولكن – مع الأسف – ليس لدى ما أرد به عليه . وسوف يزداد عذابى عندما لا يفعل أحد ذلك يقول المؤلف : إن إسرائيل ولدت فى حرب ومن حرب إلى حرب فالحرب حقيقة والسلام أسطورة . والصداقة خرافة والعداوة مؤكدة والذى يجرى فى دم الشعوب اليهودية هو الخوف ولا يوجد إسرائيلى واحد ينظر إلى الحياة على أنها بديهية بل الموت هو البديهية . ولا يوجد يهودى على يقين من أنه سوف يعيش غداً ، ولذلك كان لابد أن يحمل السلاح على كتفه وأن يضعه تحت رأسه . والتاريخ كله أكبر دليل على ذلك . وحياته القصيرة فى الشرق الأوسط خطر يتجدد على كل جبهة ، ويكفى أن يستعيد هذه الأرقام العسكرية : ٤٨ و ٥٦ و ٦٧ و ٦٩ و ٧٣ و ١٩٨٢ .

أما فى بلاد العالم الأخرى فهناك مئات المذابح المسجلة بالدم فى التاريخ اليهودى . . وقد تعرض هرتسوج فى كتابه إلى خمس حروب :

١ –حرب الاستقلال بقيادة بن جوريون . ولم يكن لإسرائيل جيش ولا قادة مدربون . وإنما هو جيش مدنى . .

ففى يوم ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ قررت الجمعية العامة تقسيم فلسطين بأغلبية ٣٣ صوتا ضد ١٣ صوتا وامتناع عشرة وغياب دولة واحدة . والتقسيم معناه أن يكون لإسرائيل دولة ولفلسطين دولة . والفاصل بينهما نهر الأردن . أما القدس فتخضع لإدارة مدنية . وكانت سعادة اليهود لا حد لها . فقد أصبح لهم وطن

ولكن رصاص الشعب الفلسطينى أصاب أحد الأتوبيسات . ومنذ ذلك الوقت لم يتوقف إطلاق الرصاص فى كل الاتجاهات . . وحتى بعد الهدنة مع مصر فى ٢٤ فبراير سنة ١٩٤٩ ومع لبنان يوم ٢٣ مارس سنة ١٩٤٩ ومع الأردن يوم ٣ إبريل سنة ١٩٤٩ ومع سوريا يوم ٢٠ يوليو ١٩٤٩، لم يسكت الرصاص . وكان إطلاق الرصاص معناه أن العرب يرفضون الوجود الإسرائيلى فى هذه المنطقة ، وقد حاول مندوب لفلسطين فى لوزان سنة ١٩٤٩ أن يوفق بين مطالب اليهود والعرب ، غير أن العرب أدانوه . وحاول بن جوريون وكل رؤساء وزارات إسرائيل ، أن يلتقوا بمسئول عربى كبير . ولكن أحدا لم يفلح ولم يجرؤ . ولكن الرئيس السادات جرؤ وأفلح فى سنة ١٩٧٧ وولدت مع الحرب ١٩٤٨ مشكلة اللاجئين العرب واللاجئين اليهود – ثلاثة أرباع المليون من العرب .

ومن هذه الحرب ولد كل القادة اليهود وكل الكوادر السياسية ، فهم جميعاً جاءوا من تحت السلاح وتعلم اليهود من هذه الحرب ، بالضبط ما لم نتعلم . فقد تعلموا المرونة والمفاجأة والتطوير والقتال ليلاً

ولم يفت هرتسوج أن يشير إلى وقوع جمال عبد الناصر وأفراد الكتيبة مشاة ٦١ فى الحصار فى الفالوجة . ويومها قرر جمال عبد الناصر أنه لابد من ثورة على الفساد فى مصر . وإذا كان عبد الناصر قد نجا من حصار الفالوجة، فإنه قد وقع فى أخطاء مميتة ظهرت فى الحروب التالية . .

٢ - والحرب الثانية هي التي يسميها : حملة سنة ١٩٥٦ . ويرى أن هذه الحملة نموذج للحروب النظيفة الأنيقة . ومصيدة للقادة والساسة المصريين . فقد أخطأوا فى فهمها وتقديرها . ولذلك كانت كارثة سنة ١٩٦٧ . . يقول إن إسرائيل كانت على يقين من أن جمال عبد الناصر يستعد لحرب شاملة ضد إسرائيل . وإنه قد استطاع تعبئة الرأى العربى كله ضد إسرائيل . ولذلك حدثت اضطرابات واغتيالات وانهيارات سياسية ..

ويقول هوتسوج:إن حملة ١٩٥٦ ليست من الحروب المحظوظة إعلاميا ولكنها تدخل كتب التاريخ العسكرى فى مقدمة الأعمال الرائعة . وقد وصفها المؤرخ العسكرى البريطانى سيرباسيل ليدل هارت بأنها « تحفة فنية » . وقال إن المراحل الأولى من هذه الحملة كانت تطبيقاً بارعا لفن « الاقتراب غير المباشر » وقد أخطأ القادة المصريون عندما تصوروا أن الفضل فى هذه الحملة يرجع إلى قوات بريطانيا وفرنسا . ولم ينظروا طويلا إلى ما فعلته القوات الإسرائيلية - وكانت هذه أكبر غلطة وقعت فيها القيادة المصرية(؟ !)

وبهذه الحرب دخلت قوات الطوارىء الدولية لتفصل بين إسرائيل والعرب

٣ - أما الحرب الثالثة فهى حرب الأيام الستة : وقد أدى وجود قوات الطوارىء الدولية إلى هدوء فى الشرق الأوسط . وكان هدوءا زائفا . فلا يزال الشرق يغلى ويتقلب بعضه على بعض ويتألب أيضاً فقامت ثورة حقيقية فى العراق على الملك فيصل واغتيل هو وأسرته .

وكذلك رئيس وزارته نورى السعيد الذى هرب فى ثوب امرأة ، ثم ألقى القبض عليه ومسحوا بجثته شوارع بغداد . . وظهر قائدان للعراق : عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف . . وطارت القوات الأمريكية إلى لبنان والقوات البريطانية إلى الأردن . واغتيل رئيس وزراء الأردن هزاع المجالى . وأفلت الملك حسين من الموت . . ويوم ١٣ مايو سنة ١٩٦٧ ظهر وفد عسكرى سوفيتى فى القاهرة . وأكدوا للرئيس عبد الناصر أن إسرائيل قد حشدت ١١ لواء على حدود سوريا . وطلب ليفى أشكول رئيس وزراء إسرائيل من السفير السوفيتى أن يذهب إلى الجبهة ليرى إن كانت هناك حشود . ورفض السفير السوفيتى ..

وفى ذلك الوقت حرك الرئيس عبد الناصر الجيش المصرى فى مظاهرة عسكرية استعراضية تمر بسفارتى أمريكا وبريطانيا بالقاهرة . وفى وقت قصير تمركزت لمصر قوات بلغت مائة ألف جندى . .

وفى إسرائيل انهار إسحاق رابين رئيس الأركان بسبب إصابته بتسمم . وأصبح عيزر فايتسمان رئيسا للأركان . أما قائد الطيران فهو الجنرال هود . . وأعيد تشكيل وزارة إسرائيل وأصبح موشى ديان وزيرا للدفاع ومناحم بيجين وزيراً للدولة . .

وفى الساعة السابعة و ٤٥ دقيقة وعلى مدى ٣ ساعات و ٥٠٠ غارة جوية على ١٩ مطارا مصرياً حتى تحطم سلاح الطيران المصرى كله - فقدنا ٣٠٩ طائرات من ٣٤٠ طائرة .. إلى آخر الكارثة التى نعرفها.

وكان ذلك أعظم انتصار بلغته إسرائيل . وآخر انتصار لها أيضا . وأصبحت إسرائيل محاطة بمنطقة عازلة عن أعدائها : سيناء والجولان والضفة الغربية والقدس وما حولها .

وكان النصر الإسرائيلى مفاجأة كبرى للعالم كله . وكانت خسائر إسرائيل من الضباط أكثر من الجنود ، فالضباط يتقدمون جنودهم فى الحرب !

أما أخطاء القيادة المصرية فهى : أن الرئيس عبد الناصر قد تصور أن حملة ٥٦ لا دخل لإسرائيل فيها . وبذلك أقفل ملف إسرائيل دون أن يكلف نفسه ورجاله أن يتابعوا ما الذى فعله اليهود . وما الذى أدخلوه من تطويرات على سير المعارك والأسلحة . وإن عبارة كالتى قالها ليدل هارت أعظم مؤرخ عسكرى كان يجب أن تشغله طويلا . .

الغلطة الثانية : أنه بالغ كثيرا فى قوة جيشه وجيوش الدول العربية . وقد وصف موشى ديان هذه الغلطة المميته بأن الرئيس عبد الناصر قد نظر إلى الأسلحة والذخائر التى لديه ، فظن أنها وحدها تكفى لهزيمة إسرائيل !صحيح أن المصريين قد أفلحوا فى استخدام الأجهزة الأكترونية المعقدة ، ولكن الحرب ليست هى الأجهزة هى قابعة فى مكانها من الأرض !

والغلطة الثالثة : أن الرئيس عبد الناصر على الرغم من أنه حوصر فى الفالوجة ثم خرج منها ، بقى محاصرا عقليا فى الفالوجة . فقد توهم أن الحرب مع إسرائيل هى بالضبط ما حدث فى الفالوجة سنة ١٩٤٨ : انتظار طويل واستحكامات وإطلاق النار من خلفها وقد تغيرت أساليب الحرب والإعداد والاستعداد والتدريب والتطوير والمرونة والمبادرة والانتشار .

كل هذه الأخطاء قد أصابت القوات المصرية بالتردد والاضطراب والشلل ومن المؤكد أن هذه الحرب قد أصابت إسرائيل بهزيمة أخرى بالغة فقد أصابهم الغرور . الذى جعلهم يتصورون أنه ليس بعد هذه الهزيمة إلا أن يتقدم المصريون والعرب يطلبون السلام . فلا طاقة لهم على الحرب . ويقول المؤلف : لقد أخطأنا . وهذه غلطة النصر . سوء التقدير – سوء تقديرنا لأنفسنا وللعرب أيضا . ودفعنا ثمنا فادحا لذلك فى حرب ١٩٧٣

وتقدم الروس إلى مصر وسوريا بالمساعدة على بناء ما تحطم من الأسلحة وبناء معنويات الشعبين حتى لا يلينوا أمام أى ضغط إسرائيلى أو اعتداء أمريكى . . وفى مؤتمر الخرطوم اتفق العرب مع البطل الجريح الكسير جمال عبد الناصر على ثلاثة مبادىء : « لا » مفاوضة « لا » اعتراف و « لا »سلام مع إسرائيل وأضاف الرئيس عبد الناصر « لا » رابعة عندما قال فى مجلس الشعب : و « لا » تفريط فى الحقوق الشرعية للشعب الفلسطينى – نرجو أن يحرص العرب على ذلك ! .

وتجددت الأعمال العدوانية حول إسرائيل – ولا تزال . .

٤ – الحرب الرابعة هى حرب الاستنزاف ، فهى حرب إلاقليلا . فالمعارك واقعة على ضفتى القناة . . النار تنطلق من الجانبين . ولكن شيئا جديدا قد طرأ . لقد أصبحت الطائرات هى المدفعية الطائرة . وظهرت الصواريخ . فقد نجحت البحرية المصرية فى إغراق المدمرة الإسرائيلية إيلات . . فقد أصابتها بصاروخين بر – بر . . وهذه هى المرة الأولى فى الحروب البحرية أن تغرق قطعة بحرية بصاروخ . وكانت نقطة تحول فى الحروب البحرية . ومنذ ذلك الحين دخل الصاروخ كل المعارك بعد ذلك،واستخدمت أمريكا وروسيا كل ما لديها من أسلحة متطورة فى هذه الفترة من النزاع العربى الإسرائيلى ..

وبسبب الضرب الضعيف لمنطقة قناة السويس هاجر مليون مصرى إلى المدن الأخرى .

وعلى الرغم من أن حرب الاستنزاف هذه ليست لها أشكال الحروب ، فإن فيها كل عناصر القتال . بل إنها أخطر المعارك العسكرية من الناحية العلمية أى من ناحية تطبيق العلم العسكرى والتكنولوجيا المتطورة . .

٥ – أما الحرب الخامسة فهى حرب عيد الغفران يوم ٦ أكتوبر سنة ١٩٧٣ وقد حورب اليهود كثيرا فى مثل هذا اليوم ، لآنهم يكونون أقل استعداداً للحروب . وعلى الرغم من أن الرئيس السادات لم يشأ أن يعترف بهذه الحقيقة . . فإنها كانت فى حسابه تماماً . ثم إن حركة المد والجزر فى قناة السويس كانت مناسبة تماماً لعبور القوات المصرية فى زوارق المطاط .

يقول هرتسوج : إن حرب أكتوبر تدل على أن الرئيس السادات وقادته قد درسوا جيداً حرب ٦٧ وعرفوا أخطاءهم وتفادوها بمنتهى البراعة والدهاء ، وقد خدع الرئيس السادات كل مخابرات العالم عندما أقنعهم تماماً بأنه لا يريد القتال ، وأن قواته تعيش حياة عادية جداً على الضفة الغربية للقناة . يستحمون ويصيدون السمك ويتراشقون الكلمات والحوار مع القوات اليهودية ، وأفلح فى إيهام العالم كله بأن هذه الحشود ليست إلا للتدريب العادى . .

ولكن الرئيس السادات قد اقتنع بمجموعة من الحقائق البسيطة التى تبدو كأنها بسيطة عادية – وهذه هى المصيدة التى وقع فيها الجواسيس اليهود والمحللون الأمريكان . فقد كان من رأيه : أن أية عملية عسكرية ضد إسرائيل مهما كانت صغيرة فسوف تواجهها إسرائيل بمنتهى العنف . إذن فلماذا لا تكون حرباً مع إسرائيل مادام العنف هو رد الفعل الوحيد فى كلتا الحالتين ؟ . .

وَبَدَهِيَّةٌ أخرى : أن موشى ديان عندما أعلن أنه لاداعى لرفع الأعلام الإسرائيلية فى مواجهة القوات المصرية لأن هذا يضايقها، فقد استنتج الرئيس السادات من ذلك أن إسرائيل قررت البقاء ، وأنها لاتريد أن تجعل المواجهة سريعة . ولذلك ضاق جدا بما قاله ديان ، لأنه ينطوى على فهم خاطىء للمصريين . فقد تصور أن إزالة العلم تساوى إزالتهم من أرض مصر . . ولذلك كان من الضرورى أن يذهب العلم والقوات التى تسانده إلى غير رجعة . .

ويقوال هرتسوج : إن مصر قد خدعت إسرائيل . وهى أكبر خدعة فى التاريخ العسكرى فالعبور هو أعظم إنجاز عسكرى . فقد استطاعت مصر أن تنقل خمس فرق بمعداتها وذخيرتها ، وفى نفس الوقت لم تتوقف عن القتال بالأسلحة الأخرى وبمنتهى الكفاءة وكان عبور هذه القوات فى (٢٤) ساعة وعلى عشرة معابر .

إن أحداً لا يستطيع أن يقلل من خطورة هذا الذى حققته مصر ويقول : فى هذه الحرب استخدمت الصواريخ ببراعة ، واستخدم العرب بترولهم سلاحاً سياسياً . .

وقال أيضا : « وكان يقود سلاح الطيران المصرى طيار قاذف مقاتل هو حسنى مبارك الذى يمتاز بالهدوء والكفاءة العالية . وقد اتجه بطائراته إلى المطارات ومحطات الرادار ومراكز القيادة والعمليات ، ولم يتجه إلى تجمعات الجنود . وكان ذلك تطوراً مفاجئاً فى الحرب مع مصر ! »

وحرب أكتوبر هى الحرب الوحيدة التى أسفرت عن نتائج تاريخية باهرة . . نتائج غيرت تاريخ المنطقة إلى الأبد . وكان من نتائجها : السلام والصلح مع إسرائيل . . وأن أصبح السلام هو الكلمة التى تجىء على كل لسان ، وإن كانت وسائل تحقيقه قد تغايرت بين الأطراف . ولكنه الحقيقة التى لا أمن ولا حياة ولا استقرار ولا رفاهية بغيرها .

أما هذا الرجل الذى حقق السلام فقد اغتيل يوم ٦ أكتوبر وسط قواته المسلحة — هذه سطور أضافها المؤلف لهامش كتابه أثناء الطبعة البريطانية ..ويختتم المؤلف كتابه بحرب إسرائيل مع الإرهاب . ويتحدث عن الهجوم الإسرائيلى على عنتيبى . . الخ . .

* * *

وقد أشار المؤلف إلى عدد من المراجع العربية . من بينها مذكرات الرئيسين محمد نجيب والسادات ، والملك حسين ، وما كتبه حسن البدرى وطه المجدوب وأبو لغد . .

* * *

وفى الصفحة ٣٤٥ وهى آخر صفحات الكتاب ، يتحدث المؤلف عن الثورة التى أحدثها الرئيس السادات فى الشرق الأوسط ، بمبادرة السلام والصلح مع إسرائيل ، بفضل وساطة الولايات المتحدة الأمريكية وحمايتها لاتفاقية كامب دافيد من مزايدات الدول الأوربية ومقاطعات الدول العربية . . فالمنطقة كلها لم تعد ترفض إسرائيل وإنما بعض دول المنطقة وفى نفس الوقت تدرك أنه لاسبيل للسلام دون مفاوضة معها ، ولا مفاوضة بغير اعتراف بها - تماماً كما فعلت مصر . .

* * *

ويقول: إن العالم العربى ينتفض قلقا تحت ضغط العنف السياسى والدينى والحروب بين العراق وإيران وسوريا والقرن الأفريقى والصحراء المغربية والصحراء الغربية والتهديد بإنتاج القنابل النووية مرة أخرى فى العراق وليبيا وباكستان :« والصورة كما نراها الآن تدعو إلى الهدوء وإلى الفزع أيضا . فإذا كانت الحرب الشاملة قد تراجعت ، فإن القلاقل لاتزال هناك . . وعلى هذا الأساس ومن هذا المنطلق يجب أن ننظر إلى إسرائيل ، فمن الناحية السياسية والتاريخية والإنسانية يجب على إسرائيل أن تعيش لكى تحقق مجتمعا صحيا حرا وديموقراطيا رغم كل ذلك ، وهذا لا شك من أعظم القصص الخيالية المحيرة للعقول فى العصر الحديث » .

وتنتهى الطبعة البريطانية لهذا الكتاب ، ولا أدرى ما الذى أضافه إلى الطبعة الأمريكية عن غزو إسرائيل للبنان . وقد حاولت أن أعرف من المؤلف ، ولكنه وعد بأن يبعث لى بالطبعة الجديدة . ولكن قبل أن أقرأ ما سوف يقوله تفسيرا وتبريرا لما فعلته إسرائيل فى لبنان ، فإن السيد مناحم بيجين وتابعه شارون قد فضحا أعماق النفسية اليهودية التى لاتزال متعطشة للدم والثأر . . ورغم ضيق الدنيا كلها : أصدقاء وأعداء إسرائيل بكل ما حدث ، فان السيد مناحم بيجين لا يزال يدق طبول الحرب . ورغم المظاهرات الهاتفة بسقوطه ، فإن بقاءه فى الحكم هو والعصابة الدموية التى تسانده دليل على أن الأغلبية الساحقة فى إسرائيل تراه أحسن الملوك على عرش إسرائيل . .

وإذا كان الشرق الأوسط قد تغير بعد السلام مع مصر ، فإنه قد تغير مرة أخرى بعد العدوان على لبنان وتصفية المقاومة العسكرية للشعب الفلسطينى .

ولا تزال قضية الحرب والسلام مع إسرائيل حية حارة متدفقة الأمواج طائشة الرصاص . .

وإذا كان العالم قد أدخل السيد مناحم بيجين من أوسع أبواب التاريخ اليهودى لأنه حقق السلام مع مصر ، فإن الشعوب اليهودية سوف تخرجه من باب أوسع ، لأنه أثار الدنيا كلها على اليهود . .

ولاتزال فى الكراهية والحقد والمرارة والقرف بقية فى كل نفس وعلى كل لسان ! .

ولذلك يمكن تعديل السطور الأولى من هذا المقال : زوروا إسرائيل لتشاهدوا الأهرام وتقرأوا صفحات جديدة فى « كتاب الموتى » . . . لأن إسرائيل لم تتوقف عن قتل عشرات الألوف من العرب ، انتقاما لما فعلته الشعوب الأوربية بهم فى مئات السنين . . !





الحروب مستمرة والصمت أيضا

لن يصدر قريبا كتاب عربى عن العدوان الإسرائيلى على لبنان . ولا عن دماء صابرا وشاتيلا التى جفت ، وعن دموعنا التى لم تجف على خيبة الأمة العربية ، لأن هذه هى القاعدة : لا نكتب عن شيء حدث ولا نشجع أحدا أن يفعل ذلك ، ثم ننتظر ما يصدر فى بلاد أخرى . ويكون هجوما وتجنيا علينا ، ونلعن هؤلاء المؤلفين ، ثم نكتفى بذلك ، ونتطلع إلى العدل ، ويجيء العدل ، كما جاء الظلم ، من بلاد أخرى .

وبعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ ، كان أئمة المساجد يخطبون قائلين : اللهم ابعث إليهم بجنود من عندك !

أى أن يبعث بقوات من عنده لهزيمة إسرائيل . هو يبعث سبحانه وتعالى ، ونحن لا نفعل أكثر من الدعاء إليه والدعاء عليهم ..

وقد صدرت أخيراً كتب عن حرب بريطانيا والأرجنتيين على استعادة جزر فوكلاند ولم تمض على هذه الحرب سنة ، ولكن هذه الفترة القصيرة لا تبرر عدم صدور كتب ، لأن صدور الكتب عن هذه المعركة واجب قومى ومنطقى ، فالمنطق يتساءل : لماذا كانت الحرب ؟ وهل كان فى الإمكان تفاديها ؟ وكم تكلفت أرواحا وعتادا ؟ ومن الذى أخطأ ؟ الخارجية أم المخابرات أم الحلفاء ؟ ثم إلى أى حد كان الحلفاء حلفاء ؟ إلخ .

وأجد الفريق أول محمد فوزى على حق فى الذى قاله فى مقدمة كتابه « حرب الثلاث سنوات ١٩٦٧ – ١٩٧٠ » . فهو يرى أن من أسباب نكسة ١٩٦٧ أن المكتبة العسكرية قد خلت من الكتب التى تبين حقائق ما حدث ، والدروس التى يمكن أن يتعلمها المقاتلون .

ثم أنقل هذه الفقرة الطويلة عن الفريق محمد فوزى : أنه لم يدون أو لم ينشر منذ عام ١٩٤٨ حتى ١٩٦٧ أية حقائق أو دراسات ، ولم يجر أى تحليل عسكرى عن المعارك التى حدثت خلال هذه الفترة من الزمن ، لأسباب سياسية ومعنوية ، الأمر الذى أوقع ضررا كبيرا بالأجيال اللاحقة والناشئة من القادة ، فوقعوا دون مبرر فى الأخطاء العسكرية نفسها فى المعارك التى قادوها بعد ذلك . . وإن جاز عدم نشر الحقائق التاريخية فى المجالات السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية فإنه غير جائز فى المجال العسكرى إطلاقا ، إذ إن العلم والمعرفة والخبرة المكتسبة من المعارك ، لا يصح أن يحجبها أى عائق أو مانع حتى لو كانت حقائقها وظروفها سيئة ، وأبرز مثل تاريخى على ذلك هو ما حدث سنة ١٩٥٦ وعام ١٩٦٧ . فقد شاءت الظروف السياسية والمعنوية بعد معركة ١٩٥٦ أن تمنع القيادة العسكرية نشر أو ذكر حقائقها ، خوفا من تقليل شأن المكاسب السياسية الباهرة التى حققتها مصر عقب هذه المعركة . وفى نفس الوقت علقت أخطاء المعركة العسكرية على شماعة المكسب السياسى ، وظلت كذلك طوال عشر سنوات . وبينما كان العدو الإسرائيلى يعمل بجدية كانت قواتنا المسلحة منشغلة بقضايا وأمور حالت بينها وبين استيعاب دروس معركة ١٩٥٦ ، فتكررت نفس الأخطاء ومن ثم كانت هزيمة ١٩٦٧ . . »

وقد اخترت فقرة طويلة لأهمية الذى يقوله الفريق محمد فوزى ، ولأن الكتاب لم يظهر فى المكتبات المصرية بعد ولأننى أتفق معه تماماً فى كل الذى يقول . ومن أجل هذا السبب أقمت معرضا بعد هزيمة ١٩٦٧ لكل الكتب التى ظهرت بكل اللغات عن إسرائيل والصهيونية والصراع العربى الإسرائيلى ، وعن الكتب التى تحدثت عن الحروب الثلاث التى كانت بيننا ، وجعلت اسم المعرض « اعرف عدوك » ثم أخذت أتنقل بالمعرض بين العواصم العربية وعواصم المحافظات . ومازلت أرى أن من الضرورى أن نعرف ماذا حدث ، حتى لاتتكرر أخطاؤنا . .

وقد غضبنا جميعا عندما قال موشى ديان يوما ما : إنه مستعد أن يحارب مصر عشرين مرة ، وأن يهزمها عشرين مرة ، مستخدما نفس الخطة – لأن المصريين لا يتعلمون ! !

وإذا كان الفريق فوزى يرى أن الكتب التى صدرت عن حروب ٤٨ و ٥٦ و ٦٧ و ٧٠ ليست كافية ، أو نادرة ، أو منعتها العسكرية المصرية ، فإن الكتب التى تناولت حرب ٧٣ والسلام مع إسرائيل أكثر ندرة فى اللغة العربية ، ولا يزال مرجعنا الوحيد هو ما تكتبه إسرائيل دائما . . بما فى ذلك ما حدث أخيرا فى لبنان ، وما جرى على ألوف الأبرياء من الفلسطينيين فى صابرا وشاتيلا . .

* * *

وأنا أختلف تماما مع الفريق محمد فوزى . فى رأيه أن كتابه هذا هو نموذج للكتب التى تملأ الفراغ ، أو الكتب التى يجب أن تكون فى متناول العسكريين والسياسيين ولابد أن يكون هذا رأيه وإلا ما أصدر هذا الكتاب . ولابد أن يكون رأى الفريق الشاذلى كذلك ، عندما أصدر كتابه الملىء بالأسرار والخطط والوثائق الممنوعة فى كل قوانين وأعراف العسكرية الدولية !

فهل لا يوجد فى التقاليد العسكرية أو اللوائح أو القوانين ما يحتم مساءلة مثل هذين القائدين الكبيرين ؟ . . لابد من مساءلة أو لابد من مراجعة ، ولكن يجب ألا نمنع أحدا من نشر ما يعتقده ! كيف ذلك ؟ !

نفعل ما تفعله إسرائيل مع قادتها العسكريين . فهم لابد أن يقدموا « أصول » الكتاب للجنة رقابة يرأسها وزير العدل ، هذه اللجنة مهمتها حماية الأمن القومى . فتحذف من الكتاب ماتراه ضارا بالأمن القومى فقط ويحق للمؤلف بعد ذلك أن ينشر كتابه بجميع اللغات ، ولقد سألت موشى ديان إن كانت الرقابة قد حذفت من كتابه « الاختراق » شيئاً ، فقال : عبارة .. وسألت عيزرا فايتسمان إن كانت الرقابة قد حذفت من كتابه معركة السلام فقال : نكتة .وسألت حاييم هرتسوج رئيس إسرائيل الجديد إن كانوا قد حذفوا من كتابه عن « الحروب الإسرائيلية العربية » ، فقال : منعوا الإشارة إلى أحد المراجع فى آخر الكتاب .

ولكن الكتب صدرت كما أرادها مؤلفوها تماماً وبذلك تحققت حرية الكاتب وسلامة الوطن . .

وفى مصر يقول لنا قائد كبير : إنهم منعوا الكتابة عن حرب ١٩٥٦ ، لأنها لم تكن سوى نصر سياسى ، ولم تكن نصرا عسكريا . أى أن الرئيس جمال عبد الناصر وحده هو الذى انتصر ، أما الجيش فقد انكسر !

ويرى الفريق فوزى أسبابا أخرى لأكبر هزيمة عسكرية لحقت بالجيش المصرى فى كل تاريخه وهى : « إخراج أعداد ضخمة من القادة والضباط من الخدمة ، لأسباب سياسية خلال حقبة قصيرة من الزمن ، فقد أدى ذلك إلى فقدان الخبرة العسكرية ، وإلى تصدع التقاليد العسكرية . فيما بين ٥٢ و ١٩٦٧ ، فإن عدد القادة والضباط الذين شطبت أسماؤهم من قائمة العسكريين العاملين أكثر بكثير جدا من عدد القادة والضباط المحالين إلى التقاعد ، مما نتج عنه عدم وجود تدرج هرمى مقرون بزمن معقول لإمكان الاحتفاظ بالخبرة والتقاليد ، فضاعت الحقائق والدراسات المكتسبة لهذا العدد الكبير من القادة والضباط ، ثم إن الصراع الخفى بين الرئيس جمال عبد الناصر والمشير عبد الحكيم عامر منذ سنة ١٩٦٢ جعل الموقف الداخلى فى مصر غير طبيعى ، وقد تصاعد هذا الصراع إلى قمته فى سنوات ما قبل ١٩٦٧ لدرجة أثرت على صنع القرار . . ثم إن انفراد المشير بالسلطة الفعلية على القوات المسلحة ومجلس الدفاع الوطنى تسبب فى عدم وجود رأى جماعى ، وأثر بالتالى على صنع القرار الاستراتيجى العسكرى للدولة . . إلخ »

وكل هذا الذى يشكو منه الفريق محمد فوزى ليس واضحا فى كتب أو مذكرات أحد فى لغتنا العربية .

ولى عدة ملاحظات على الصورة النهائية التى أدى إليها بحث الفريق فوزى وقد أعود إلى ذلك فيما بعد ..

* * *

كان حاييم هرتسوج رئيس إسرائيل الجديد ، هو أول من كتب عن الغزو الإسرائيلى للبنان ، وذلك فى الطبعة الأمريكية فقط من كتابه « الحروب العربية الإسرائيلية » ، وكان هذا الفصل سابقا على تطور وتدهور الأحداث فى لبنان ، ولكنه عرضه من وجهة نظر إسرائيل – طبعا – وضمن الإطار العام لطبيعة الصراع العربى الإسرائيلى .

ثم صدرت فى كل صحف ومجلات العالم الكبرى دراسات نقدية حادة تهاجم العدوان الإسرائيلى .

وصدر كتابان ، فى العالم كله أحدهما لكاتب إسرائيلى وآخر لكاتب روسى الأصل أرجنتينى الجنسية هو (ياكوبو تيمرمان) بعنوان « أطول حرب » أى أطول حرب خاضتها إسرائيل . فقد اعتادت إسرائيل على حرب الأيام الستة والساعات الست – إلا هذه الحرب التى كان يتوقعها الجميع فاستمرت شهورا . وقد أدت هذه الحرب ضد لبنان ذلك البلد الصغير الممزق بنص الدستور ، والذى جاء مولده من مخلفات الحربين العالميتين الأولى والثانية . وقد بدأت هذه الحرب يوم الأحد ٦ يونيو سنة ١٩٨٢ . . وكان الجنود يعتقدون أنها ساعات أو أيام ، وبعد ذلك يعودون إلى حياتهم العادية . . وحياتهم العادية هى استعداد للحرب أيضا ، فالشعوب اليهودية فى إسرائيل كما أنها عرفت الخوف فى كل تاريخها العالمى ، فإنها لم تعرف إلا الحرب فى تاريخها الإسرائيلى ، ومضت الأيام والشهور ، والطائرات تهدم المدن والدبابات تدوس البيوت ، والجثث تتكدس : نساء ورجالا وأطفالا ودماء ودموعا . إنها حرب إبادة – تماما كما كان هتلر يفعل باليهود فى ألمانيا وبولندا .. إنه الهولكوست – وهما كلمتان يونانيتان بمعنى الحريق الشامل – ويرادفها باللغة العربية والعبرية : الشواء .

وبدأ يهود العالم يسخرون من أنفسهم : فما الذى تركه بيجين وشارون لهتلر ؟ ما الذى تركوه لأصدقائهم الذين يذرفون الدموع عليهم وعلى الكراهية التى أحاطت بهم فى كل العصور ؟ – وحتى عندما أقاموا وطنا فى قلب العالم العربى ، كان وطنا مرتجفا وسط قلب مشحون بالكراهية المتزايدة . .

يقول المؤلف تيمرمان إنه قابل الأديب عاموس عوز ، وهو روائى وقصاص موهوب . التقى به فى مستوطنة « خولدا » . وقابلته أنا أيضا فى نفس المكان . وتناقش معه طويلا . وفوجىء المؤلف بأن الأديب عوز يقول له : إن الإسرائيلى يستحيل أن يكون سعيدا .

وكانت هذه العبارة ردا على عبارة قالها المؤلف الذى طردته الأرجنتين بعد أن سجنته بضع سنوات وجردته من جنسيته : إنما جئت إسرائيل لكى أعيش سعيدا !

وقد سجل المؤلف تيمرمان تجربته فى السجن والتعذيب والطرد فى رواية بعنوان « سجين بلا اسم ، وزنزانة بلا رقم » .

وقد انزعج المؤلف لما ارتكبه أبناء وطنه فى الشعبين اللبنانى والفلسطينى . وتساءل مع أحد كبار العلماء : ماذا يحدث لو انتحرنا احتجاجا على الذى ارتكبه شارون فى لبنان ؟

ووجد أنه لاداعى لذلك ، لأن أحدا فى إسرائيل لن يتسع وقته لقراءة نبأ الانتحار ، فلن يكون له أثر على أى أحد . وسوف يمضى شارون فى الحرب ،مهما كان الثمن المعنوى ، ومهما كان التشويه عميقا لصورة إسرائيل فى أمريكا — خاصة فى أمريكا .

وقد حدث فى يوم ٣ يوليو سنة ١٩٣٦ أن انتحر مخرج سينمائى ألمانى اسمه استيفان لوكس احتجاجا على الوحشية الألمانية ضد الشعب اليهودى . ولم ينشر هذا الخبر إلا فى اليوم التالى ، ولم يدر به أحد من الناس !

* * *

وقد فزع الجنود الإسرائيليون أيضا من الأهوال التى وقعت فى لبنان . وأحس المؤلف وكثيرون فى إسرائيل ، أنهم غرباء فالذى يرونه لم يتوقعوه ، والذى يسمعونه لم يتخيلوه . . فيقول المؤلف إنه أحس كما لو كان « ميرسو » بطل رواية « الغريب » للأديب الوجودى ألبير كامى . فهذا البطل كان غريبا عن وطنه « الجزائر » غريبا عن الشارع ، غريبا فى البيت ، وسبب هذه الغربة والشعور بالغرابة أن العالم من حوله لايبالى به . . وقد أدى الخوف والفزع فى إسرائيل إلى أن أحس الناس أنهم فى أرض غريبة عليهم ، وبين أناس لا يعرفونهم ، ومضت القنابل والصواريخ والصرخات والدماء والدموع والإبادة لشعب فلسطينى .

وإذا كان جيش إسرائيل لايزال يسمى نفسه « جيش الدفاع » فإنه فى هذه الحرب لم يكن يدافع عن أحد أو عن شىء وإنما كان عدوانيا شرسا وحشيا . .

يقول المؤلف : فى ذلك الوقت كانت هناك مسرحية يتفرج عليها أهل تل أبيب ، المسرحية اسمها « كيف تتخيل الآخرين ؟ » أبطال المسرحية ثلاثة من اليهود وثلاثة من العرب،والعرب يرون اليهود يغنون ويرقصون ويحلمون بالعودة

إلى صور وصيدا . . أرض اللبن والعسل . والهدف من هذه المسرحية هو الشعور الهادىء بالغير ، أو بأفكار الغير . وأن يكون ذلك دون كراهية . . أى أن العرب يعرفون أحلام اليهود ويتغنون بها ، دون حقد عليهم أو كراهية لهم !!

وفى نفس الوقت كان الحاخام الأكبر للجيش الإسرائيلى الجنرال نافون يوزع على الجنود خريطة تؤكد أن بيروت كانت تسكنها قبيلة آشر من ألوف السنين . وأن اسمها العبرى «بيرعوت » . . وعلى ذلك فالجيش الإسرائيلى يسترد أرضا وليس يعتدى عليها !!

وفى يوم الأحد ١٩ سبتمبر سنة ١٩٨٢ ، أى فى اليوم الثانى للسنة العبرية الجديدة ٥٧٤٣ وقعت مذابح صابرا وشاتيلا . ولم تبق شعرة واحدة فى رأس إنسان على هذه الأرض لم تقف فزعا للوحشية الإسرائيلية ، ولم يتوقف قلب واحد عن نبض العطف على الشعب الفلسطينى . .

ولكن بسرعة تشكلت لجنة لمحاكمة المسئولين عن هذه المذابح ، اللجنة تضم عددا من كبار القضاة . .

وأوقفت أمامها رئيس الوزراء ووزير الدفاع ورئيس الأركان ورئيس المخابرات وغيرهم . وبسرعة تصدرت أخبار اللجنة كل الصحف . وكان ذلك دليلا على الديمقراطية ، فقد جرى العرف العسكرى بأن محاكمة قادة الحرب ، تجىء بعد نهاية الحرب وليس أثناءها ، ولكن العالم كله يستعجل إسرائيل أن تفعل ذلك ، وكانت اللجنة . . وأصدرت قرارها وأدانت شارون فى المقام الأول وأوصت بما نعرفه من طرده من وزارة الدفاع .. ووجهت اللوم إلى رئيس الوزراء .. وانتقل وزير الدفاع شارون من مقعد إلى جوار الباب إلى مقعد اخر إلى جوار النافذة وزيرا كما كان . .

وقد سألتنى إحدى الصحف الأمريكية عن رأيى فى هذه اللجنة ، فقلت إنها تشبه من يسمع أعيرة نارية تحت نافذته ، فيفتح النافذة بسرعة ليرى من القتيل ومن القاتل . . وإذا به يفاجأ بأن هذه الأعيرة النارية ليست إلا مقدمة لزفة عروس . . فقد تحولت لجنة اللوم والتكدير إلى حفلة تكريم للديموقراطية فى إسرائيل ! . .

وحتى هذا الكتاب الممتع ، ليس إلا لوما رقيقا من المؤلف ووخزا بالإبر لأبناء وطنه من أهل إسرائيل ! . .

أما الكتاب الثانى الذى صدر من مكان بعيد ، وإن كان المؤلف قريبا منا ، فهو عربى من الصومال . إنه السيد يوسف دوحول ، وعنوانه « العدوان الإسرائيلى على لبنان » . والكاتب الصومالى الشريد الطريد يعرف معنى الشتات والضياع الفلسطينى . ويعرف من بعيد تفاصيل الذى جرى ، ولكنه لا يجد الموقف العربى الواحد والقرار الواحد وتوحيد الدموع والدماء واختصارها أيضاً ، والنهضة مرة واحدة ضد العدوان ، وضد الاحتضان الأمريكى الكامل لكل ما تفعله إسرائيل . .

وطبيعى أن يكون كتاب السيد يوسف دوحول عالى النبرة ، فهو أيضا جريح ذبيح . وهو أيضا شديد اليأس حزين على نفسه وعلينا . .

* * *

ويبقى هذا الصمت المريب الرهيب للأقلام العربية لا أحد يقول . . ولا أحد إذا قال فعل . . ولا أحد إذا فعل لم ينفعل . . ولا أحد عرف ماذا جرى ولا كيف ولا من الذى أخطأ . . ولا ما الذى يمكن إصلاحه بسرعة . .

والمؤلف الصومالى يقول الذى نعرف عنه ونقرف منه : هو أننا قد أدرنا ظهرنا للحاضر ، وانشغلنا كثيرا بالماضى .. كأننا مدمنون للماضى فقط . . ولذلك يجب أن ننتظر الحاضر ليصبح ماضيا ، فإذا صار ماضيا ، بكينا عليه . . علينا !





كاتب إسرائيلي يقول: نهاية إسرائيل سنة ١٩٨٥ فوداعا لشعب لا يحبه أحد

« أن تخرج من روسيا هذا صعب ، أن تبقى فى إسرائيل هذا أصعب .. « اطلب منى أن أموت من أجل إسرائيل ، ولا تطلب منى أن أعيش فيها » « يولد مرة أخرى من يخرج من روسيا ، يموت مرة أخرى من يدخل إسرائيل » .

وهى عبارات جاءت فى كتاب « وداعا يا إسرائيل » للكاتب الإسرائيلى إفرايم سفيلا . الذى تعذب كثيرا ليهاجر من روسيا إلى إسرائيل وطن أجداده الذين تعذبوا ألوف السنين لكى يستقروا فى أرض العسل واللبن ، وحيث لا فرق بين أحد من الناس بسبب اللون أو الطبقة . فالكل أبناء إسرائيل وإخوة فى الدين . ضحايا الماضى أبناء الحاضر مشاعل المستقبل . ولكن الذى رآه المؤلف فى إسرائيل جعله يندم على أنه ترك روسيا ، وعلى أنه عندما تركها لم يذهب إلى أى بلد آخر . وعندما يذهب إلى أى بلد آخر ، فلماذا يصر على أن يكون يهوديا أى واحدا من ملايين المنبوذين ؟ لا لأن الناس نبذوهم ، ولكنهم أرادوا أن يكونوا كذلك .. أن يعيشوا بعيدا عن الناس ، لا يخالطونهم ، ولا يشعرون لهم أو معهم بالأمان . فكان من الطبيعى أن يعاديهم الناس . فإذا عادوهم راحوا يبكون ويصرخون من الاضطهاد !

والمؤلف صهيونى متعصب لشعبه ، ولكنه حزين على النهاية المؤكدة التى سوف يلقاها . فلو عاش الشعب اليهودى حياة عادية ، دون أن يغرى الناس بكراهيته والتعصب ضده ، لكان عددهم اليوم (١٥٠) مليونا – عددهم الآن (١٤) مليونا ، ثلاثة منهم فى إسرائيل !

فما الذى يبهر المهاجر الجديد إلى إسرائيل ؟ سوف يرى الشوارع المرصوفة النظيفة . وسوف يرى الحقول الخضراء الأنيقة – هذه الشوارع رصفها الفلسطينيون . هذه الحقول زرعها الفلسطينيون بأموال أمريكية !

وسوف تفزعه السيارات السريعة المجنونة . وهذه السرعة دليل على القلق والعصبية . والحياة فى إسرائيل تدفع إلى ذلك . وعند اليهود تفسير أيضا لذلك، فعالم النفس اليهودى (فرويد) يرى أن القيادة السريعة للسيارات دليل على رغبة صاحبها فى الانتحار . والشعب اليهودى ينتحر حتى إذا لم يركب هذه السيارة ، وهذا هو المعنى العام فى هذا الكتاب . وضحايا السيارات سنويا يعادل ضحايا إسرائيل فى جميع الحروب . وهناك ضحايا آخرون فى الجيش وفى المصانع ويكفى أن تزور إحدى المستوطنات لتجد نوعين من القبور : قبور العسكريين وقبور المدنيين . إن الموتى كثيرون . يزيدون ولا ينقصون . وفى البيوت اليهودية يقدمون لك « البوم الذكريات » إنها صور لموتاهم وضحاياهم . ويبعثون بهذه الصور إلى أقاربهم فى القارات الخمس . وهكذا ينتشر الحزن على أنفسهم ولكن هذا الحزن لا يوقف المزيد من الضحايا فى كل مناسبة .

فإسرائيل إن لم تكن فى حالة حرب خارجية . فهى فى حالة حرب داخلية . ضحاياها : اليهود أنفسهم . وقد لا تلمح عيناك ذلك من أول وهلة . ولكن عندما تكون يهوديا وتكشف لك البيوت أسرارها . تجد أن الحرب بين اليهود أقسى وأعنف وأطول نفسا من الحرب بين اليهود والعرب . فاليهود فى إسرائيل لم يحصلوا على كسب واحد بغير مظاهرات .. بغير عنف . وقد ترى أن المظاهرات دليل على الديمقراطية . وعلى أن من حق أى إنسان أن يقول . هذا ما يبدو . ولكن الحقيقة غير ذلك ، فلا أحد يستطيع أن يقف فى وجه أحد دون أن يلقى عقابا على ذلك ، وقد حاول المؤلف أن ينتقد الحكومة لأشياء كثيرة .

وفى اليوم التالى وجد الشائعات تتناوله وتنهشه . ووجد الوجوه تتجه بعيدا عنه . والأبواب يتم إغلاقها فى وجهه بإحكام شديد . ولم يجد إلا بابا واحدا يفتحه ويغلقه بحرية : باب بيته . حتى فمه لم يكن حرا فى أن يطبقه ويفتحه

إلا عندما يتثاءب قبل النوم ! ولم يجد أحدا ينصحه فيقول له : يا أخي اسكت أمسك لسانك . أنت لم تهرب من جهنم روسيا لكي تدخل جهنم إسرائيل،لا أحد يقول شيئا . لأن أحدا لا يعنيه أمر أحد . كل الذى يهم الشعب اليهودى فى إسرائيل هو أن يقف معا ضد العرب ، وليس أن يقف معا من أجل إسرائيل فالكل كاره للكل ، والكل ساخط على الكل .

وفى إسرائيل لا يقال : فلان يهودى فقط . إنما يقال : يهودى أبيض ويهودى أسود .. يهودى اشكنازى أى غربى ويهودى سفاردى أى شرقى . وفى إسرائيل حاخام ليهود الغرب وحاخام ليهود الشرق . وليست بينهما صلة من أى نوع . وإذا شاءت المناسبات السياسية أن يلتقى الاثنان ، فكما يتجاور تمثالان يظهران اللا مبالاة ، ويخفيان عظيم الاحتقار لكل منهما،والشرقيون ثلاثة أرباع الجيش الإسرائيلى . وفى إسرائيل كما فى لبنان يقتسمان الحكم بين دينين مختلفين : فرئيس الدولة يهودى شرقى ورئيس الوزراء يهودى غربى . وربما كان الفرق الوحيد بين إسرائيل ولبنان ، هو أن الدستور ينص على ذلك فى لبنان ، وأن الخلاف بين رئيس الدولة ورئيس الوزراء فى إسرائيل ، ليس فى الدين إنما فى المذهب . والمذهب الدينى فى إسرائيل يباعد بين اليهود كما لو كانوا من دينين مختلفين . وفى إسرائيل مذاهب دينية لا تعترف بها الدولة ، فاليهود المصريون – القراءون – لا يعترف بهم اليهود الآخرون . ويرونهم كما لو كانوا مسلمين . إن أديبا إسرائيليا مصريا قد مات ابنه فى حرب أكتوبر،لم يجد مكانا يدفنه فيه . مات من أجل إسرائيل ، ولكن المذهب الذى ينتسب إليه ، لا يجعله يهوديا ، وظل الجندى القتيل أياما لا يجد من يدفنه ، ولا من يصلى عليه ، فدفنه أبوه سرا وصلى هو عليه !

ولا تزال إسرائيل تسأل عددا كبيرا من أبنائها إن كانوا يهودا . ومنذ أيام بن جوريون وهذا السؤال لا يجد إجابة مريحة : من هو اليهودى ؟

فهل هو الذى أبوه يهودى . وأمه مسيحية أو ملحدة . أو أن كل إنسان يهودى مادامت أمه يهودية . لأن كل إنسان على يقين من أمه . وليس على يقين من أبيه ؟ فهل اليهودية التى أرغمت على المسيحية أو الإسلام لكى تتخفى وتعيش ، تظل يهودية رغم ذلك ؟ هل اليهودى هو الذى جاء من زواج مدنى ،

وليس من زواج دينى بسبب الظروف القاسية التى عاشها اليهود ؟ هل اليهودى الذى اختار أن يكون يهوديا ، فيتحول عن المسيحية بالدراسة والإيمان ؟ إن الديانة اليهودية ليست ديانة تبشيرية ، وإنما هى ديانة وراثية عائلية ، أى خاصة باليهود فقط . ومع ذلك فليس كل اليهود يهودا . وكل إنسان فى إسرائيل حريص على أن يكون زواجه دينيا ، حتى إذا كان له أولاد صاروا يهودا . وحتى إذا مات دفنوه . ومع ذلك فثلاثة أرباع الشعب اليهودى فى إسرائيل ملحدون . والأقلية مؤمنة . وأغلبية الأقلية متعصبة . إذن فالشعب اليهودى فى إسرائيل : ملحدون متطرفون ، يقابلهم متدينون متعصبون . فكيف يعيشون معا فى سلام ؟

وفى إسرائيل يهود يرون أن إسرائيل دولة قامت على الباطل فهى دولة حرام . لأن المسيح لم يهبط بعد ، يبشر بقيام هذه الدولة ، ولذلك فالحياة فى إسرائيل حرام . والالتحاق بالجيش حرام . والقانون لا يحتم الخدمة العسكرية إلا إذا كان دين المواطن يرى ذلك حلالا .

وفى إسرائيل ، أناس لا يتعاملون بالنقد الإسرائيلى ولا يحملون جوازات إسرائيلية ، وإذا أرادوا أن يزوروا « حائط المبكى » فإنهم يسافرون إليه عن طريق الأردن . مع أنهم يرون الحائط بأعينهم ، لماذا ؟ لأنهم لا يؤمنون بدولة إسرائيل الموجودة ، ويرون أنها ضد الدين ، فلم يحن موعد قيامها بعد .

ويقول المؤلف : فى روسيا قالوا لنا لا توجد دولة يهودية ، وكذبناهم ، فلما ذهبنا إلى إسرائيل وجدنا من يقول إنها لم تولد بعد !

وهناك يهود الهند ، الذين لم يعترف بهم أحد ، وهناك يهود الحبشة (الفلاشا) ويعيشون على حافة الصحراء عند ديمونة ، يعيشون كما تعيش القرود فى الأقفاص . وهؤلاء اليهود يرون أنهم أصل إسرائيل . وأن اليهود البيض ليسوا يهودا . ويهود الحبشة يعيشون فى عزلة منبوذين تماما . ولهم أسلوب عنيف فى التعامل مع الآخرين . ولذلك يصفونهم فى إسرائيل بأنهم « الديناميت » فى ديمونة !

فكيف جاءوا جميعا إلى إسرائيل ؟

القصة قديمة ومعروفة . ولكن هذا السؤال لا يهم ، وكذلك الإجابة عنه ولكن الذى يهم ، كيف تجمعوا هكذا معا ؟ وكيف يتفرقون ؟ ! إن المثل الذى يقول : إن الإناء الذى تحطم مائة قطعة لا يمكن إعادته إلى ماكان عليه ، ولكن وجود إسرائيل دليل على أن هذا ممكن ، لأنه قد أمكن،ولكن انهيار إسرائيل أكبر دليل على أن إعادته إلى ماكان عليه : مستحيل .

وسوف يكون بقاؤها أكبر دليل على أن الإناء إذا انكسر ، فمن المستحيل إعادته سليما كما كان من قبل . إن إسرائيل يوم أعلنت فى سنة ١٩٤٨ كانت تضم ثمانين جنسية . ولكنها تقاربت وقامت وتقدمت . ووقفت وبرزت ودفعها الغرور إلى أن تكون « المعجزة » هى الكلمة الوحيدة التى يكررونها كل يوم مع كل حبة عنب ، وقطرة مطر ، ودعاء فى الصلاة .

يقول الفيلسوف الوجودى (سارتر) : إن ضغط الكراهية فى كل مكان هو الذى دفع اليهود إلى أن يتقاربوا ويتماسكوا ، ليس الحب بينهم ، ولكنها الكراهية حولهم .

وليس هذا صحيحا : فالكراهية التى جمعتهم ، هى نفسها الكراهية التى سوف تفرق بينهم . فليس بين اليهود حب . وإنما الذى بينهم : قلق وخوف وحقد وتآكل .. فلم يحدث تقارب بين اليهود . وإنما حدث نوع من التجاور المؤقت . ولكى يكون هناك تقارب شديد والتصاق والتحام ، فلابد من أن تكون حروب بينهم وبين العرب . ولكن إذا أراد العرب أن يقضوا على اليهود . فليفرضوا عليهم السلام . فالسلام هو الذى يحطم أسس المجتمع اليهودى .

وقد صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب قبل مبادرة السادات بالسلام . وإذا كانت حرب أكتوبر قد زلزلت إسرائيل فهى حطمت غرور الشعب الذى يرى أن الله قد اختاره لنشر الدين والعلم والخير ولينتصر دائماً من أجل أن يحقق ذلك . فحرب أكتوبر هى إصابة مباشرة لكبرياء اليهود .. أما السلام فهو الإصابة القاتلة لعوامل الربط والتماسك بينهم إن الشعب اليهودى مثل ايكاروس ذلك الإغريقى الذى ركب ريشا فى ذراعيه وارتفع فلما اقترب من الشمس ذاب

الصمغ فتطاير الريش وسقط إيكاروس .. وكذلك فعل السلام بإسرائيل . وكان لابد أن تفتعل إسرائيل المعارك العنيفة لتجمع شتات الشعب ، فتكون المعارك السياسية الدامية أو تكون الحروب . وإذا كانت الحروب لاتقتل عددا كافيا من العسكريين ، فإن السلام هو الذى يقضى على العسكريين والمدنيين .. ولذلك توقع المؤلف أفرايم سفيلا أن تختفى إسرائيل سنة ١٩٨٥ - أى بعد سنوات سبع من وقف إطلاق النار وفك الاشتباك مرحلة بعد مرحلة ، ورأى أن فك الاشتباك بين قوات مصر وإسرائيل يقابله فك العلاقات الأخرى فى داخل المجتمع الإسرائيلى .

وقد أعلن المؤرخ البريطانى (أرنولد توينبى) فى إحدى محاضراته فى استراليا يوم انتصرت إسرائيل على مصر سنة ١٩٦٧ : رغم هذا الانتصار ، فلن تعيش إسرائيل طويلا . إنها مجتمع شاذ ، ودولة غريبة فى أرض غريبة . دولة صغيرة ترفضها الأرض التى قامت عليها والشعوب الأغلبية التى حولها . إنها لم ترفض العرب والشرق الأوسط وإنما رفضت نفسها ، وشجعت العرب والعالم على أن يتحدوا ضدها اليوم أو غدا . حتى يلفظوها فإذا انقرضت . فليس العرب وحدهم فعلوا ذلك ، ولكنها إسرائيل أيضا .

وهذا الكتاب الذى ألفه صهيونى مخلص وإسرائيلى محب لبلده وشعبه ، أكبر دليل على صحة نظرية المؤرخ البريطانى الشجاع . فقد كان شجاعا عظيما فلم يبهره النصر الإسرائيلى الذى هز كل الأقلام وأعمى كل العيون . ولكنه عندما استعرض الحضارة الإنسانية التى هى تاريخ الشعوب من أجل المزيد من الحرية والقوة . وجد أن إسرائيل أقرب إلى الدويلات العسكرية - أى الدويلات ذات الهدف الواحد . وهذ الهدف غير طبيعى ، لأنه التدمير وليس التعمير ، ولأنه الإبادة وليس التعايش فى سلام .

فهذا المؤلف حزين على إسرائيل ، وأشد حزنا على مستقبلها ، ولذلك جاء كتابه تأبينا حارا لوفاة أبيه وأمه وأجداده وأحلام الشعب اليهودى ألفى سنة !

يقول المؤلف إنه عاش فى روسيا يحلم بالديموقراطية والحرية والمساواة . تماما كما عاش الزنوج فى أمريكا ٤٠٠ سنة يحلمون بكل ذلك . فقد نقلهم

تجار الرقيق من أفريقيا إلى أمريكا ، تحت السياط ، وزرعوا وغرسوا وحصدوا كل خيرات أمريكا ، ولم يكن لهم فيها نصيب . ثم هاجر اليهود منهم إسرائيل . فماذا وجدوا ؟ وجدوا أن نيويورك لا تختلف عن تل أبيب . وأن نهر الأردن المقدس أصبح ملوثا مثل نهر المسيسبى ، ثم إنهم منبوذون محتقرون . ويقال لهم : إنهم ليسوا يهودا !

ولذلك هاجر الكثير من اليهود إلى خارج إسرائيل . وتحاول إسرائيل أن تستعيدهم .. أن تكسب قلوبهم . أن تملأ جيوبهم . ولكن أحدا لا يريد ، ولذلك فخمس اليهود يعيشون فى إسرائيل فقط . ويهود نيويورك أكثر عددا من يهود إسرائيل ، ويهود باريس أكثر عددا من يهود تل أبيب ، ويهود لندن أكثر من يهود القدس .

ثم إن (٤٠٪) من اليهود خارج إسرائيل يتزوجون من مسيحيات أى أنهم يهجرون الديانة اليهودية ، ويذوبون فى الأغلبية المسيحية !

وكثير من اليهود خارج إسرائيل يتساءلون : ولماذا نساعد إسرائيل ؟ لماذا نساعد قيام الدولة التى تجعل العالم كله يكرهنا ويعادينا ؟

فمنذ قيام دولة إسرائيل قد تضاعف العداء لليهود . وتضاعف العداء فى أمريكا نفسها . ودافع الضرائب الأمريكى يتساءل : لماذا كل هذه الأموال الهائلة إلى إسرائيل التى تهدد المصالح الأمريكية فى العالم العربى ؟ ! لماذا نحمى دولة مجنونة بالكراهية ، مجنونة بالخوف ؟ لماذا نساند دولة اختارت شمشون مثلا أعلى — ذلك الرجل الأعمى الذى هدم المعبد على رأسه ورأس أعدائه وأصدقائه .. !

وإذا كان العالم كله قد وقف متفرجا على ما فعله هتلر باليهود . عندما أحرق منهم مئات الألوف ، فإن العالم لديه هذا الاستعداد دائماً . فقد مل الناس بكاء اليهود ، وضاق الناس بتاريخهم . وفى الحرب العالمية أبحرت بين القارات سفينة حملت أطفال اليهود . فلم تشأ دولة واحدة أن تقبل إيواءهم .. حتى جاءت غواصة فأغرقت السفينة ، فكان البحر مأواهم الوحيد .

وهذا الرجل الذى تدفنه المدينة هو إسرائيل .. والسيدة الغنية هى الشعوب العربية بأموالها وبترولها . وقد لا يثق العرب فى أنفسهم ، وهذه هى أكبر غلطة . فهم قوة مؤكدة . وما فعلوه يوم هددوا بقطع البترول عن العالم ، كان عملا من علامات هذا العصر .

ففى استطاعة العرب ، أن يعيدوا أوروبا إلى العصور الوسطى - أو يهددوا بذلك ، والثمن هو إسرائيل ، والعالم كله لديه استعداد لأن يضحى بها . فالعالم لم يفعل شيئا يوم أحرق هتلر ألوف اليهود . ولو فعل العرب نفس الشىء بأموالهم وقوتهم فلن يعترض أحد .. فالشعب اليهودى فى إسرائيل على حافة الهاوية لا شك فى ذلك !

ويتلفت المؤلف إلى القراء اليهود فيقول لهم : أعرف أنهم سوف يتهموننى بأننى متشائم ، وهل يمكن ليهودى ألا يكون كذلك ؟ إنه تاريخ العذاب والاضطهاد والطرد والكراهية فى كل مكان .. إننى لم أر يهوديا متفائلاً إلا فى مستشفى الأمراض العقلية - فقد دعانى صديق طبيب لمشاهدة هذه المعجزة البشرية !

إنه يرى عواصف التغيير تهب على دروب التاريخ .. تمحو آثار أقدام الشعب اليهودى على رمال الشرق الأوسط !

فهل الذى فعلته إسرائيل فى لبنان هو بداية النهاية ؟ هل التفكك الشديد بعد حرب أكتوبر والسلام مع مصر والانسحاب من سيناء هو الذى دفع رجال السياسة والدين إلى التضامن العسكرى العنيف بين كل فئات وأديان ومذاهب وألوان الشعب الإسرائيلى لإبادة الفلسطينيين ؟

هل هى فرصة جديدة تخلقها إسرائيل للذين فاتهم أن يستوعبوا ماذا فعلت فى سنة ١٩٥٦ وماذا ارتكبت سنة ١٩٦٧ ؟ هل هى محاولة لسد الفجوة بين الأجيال العربية القديمة التى عايشت حروبا خمسا وبين الأجيال الجديدة التى لم تعرف وحشية اليهود . وبذلك تعمل إسرائيل دون قصد على سد الفجوة بين الأجيال من أجل كراهية شاملة لها ؟

إن أحب أبناء إسرائيل وأشد الناس إيمانا بها وحزنا على مصيرها، يرى أن العرب ليسوا فى حاجة إلى أن يلقوا بها فى البحر ، فهى التى تأتى بالبحر إليها : أمواجا من الدموع والدم ، وطوفانا من الكراهية !

ويوم أعلن العرب أنهم سوف يلقون بإسرائيل فى البحر .. كانوا على خطأ وكانوا على صواب .. كانوا على خطأ عندما تصوروا أن هذا حلم بعيد .. وكانوا على خطأ عندما تصوروا أنهم سوف يفعلون ذلك عن طريق الحرب .. وهم على صواب لأن البحر سوف يكون نهاية إسرائيل . فهى تعمل بكل قواها ضد كل قواها ، وعلى ذلك ، فالسلام وحده القادر على دفن إسرائيل بأيديهم فى أرض فلسطين ..

ويتساءل المؤلف : ولماذا فلسطين ؟ لماذا لم يذهب اليهود إلى أوغندة أو الأرجنتين ؟ لماذا لا يعيشون فى سلام ؟ ولكنهم لم يفعلوا ذلك . إنهم اختاروا قلب الكراهية وأرض الشوك ومقبرة الأحلام المجنونة !

يقول المؤلف إن أحد زعماء اليهود أجاب عن سؤال للملك حسين عن كيف استطاع اليهود أن يحققوا هذا الوطن ؟ فقال له : أبدا .. يكفى أن تكرر لنفسك يوميا ولمدة ألفى سنة : سوف أكون العام القادم فى القدس !

إن إسرائيل – كما يقول المؤلف – مثل سيدة عجوز طال ترحالها فى دروب الزمن .. فالشوك أدمى قدميها ، ومزق ثوبها ، فهى تنزف دما .. وكل قطرة دم عندما تسقط على الأرض ، لا تصنع زهرة ، إنما تقيم شاهدا على قبر .. إن إسرائيل نفسها هى هذا الجرح الدامى الذى لن يجف ولن يلتئم !

ويقول المؤلف إن خير مثل لما سوف تلقاه إسرائيل اليوم وغدا هو ما حدث فى مسرحية « زيارة السيدة العجوز » للأديب السويسرى (فريدريش ديرنمات).. ففى هذه المسرحية تجىء سيدة غنية إلى مدينة « جيلن » .. وتعلن عن استعدادها لإطعام الفقراء وإقامة المدارس والمستشفيات ثم التبرع بكل أموالها لشباب المدينة،ولكن بشرط واحد هو أن يدفنوا أحد أبنائها حيا .. فهو رجل كانت قد أحبته ثم خانها . ولا يجد أهل المدينة حلا لمشاكلهم سوى أن يفعلوا ما أرادت .. فراحوا يحفرون القبر للرجل ، والرجل يرى المدينة كلها تراه عدوا لمستقبلها ، وخطرا على أمنها الغذائى .. ولذلك فلا بد من دفنه حيا ، ليعيش بقية الناس فى سلام ..



أحدث كتاب عن العلاقة الغريبة بين هتلر وقيام دولة إسرائيل الصهيونازية

في سنة ١٩٧٨ قامت مظاهرة للشباب الأمريكي في مدينة شيكاغوا تطالب بعودة النازية ، ومرت هذه المظاهرة بحي اليهود في المدينة . وأمام هذه المظاهرة وضدها اختلفت آراء زعماء اليهود الأمريكان .. جماعة قالوا : اقفلوا النوافذ والأبواب ولا تتعرضوا لها .. وجماعة قالوا بل افتحوا النوافذ واحترموا وجة نظر الآخرين . فمن حق أى إنسان أن يعلن رأيه في أى وقت وفى أى مكان وبأية طريقة .

هناك فقط أدرك الكاتب الأمريكي الشاب أدوين بلاك أنه أمام لغز من ألغاز العلاقة الغريبة بين الصهيونية والنازية . ولم يفهم معنى الموقف العاقل الهادىء أمام النازية الجديدة في أمريكا ! . وعاد إلى الكتب يقرأ ، فوجد أن هتلر عندما وصل إلى السلطة في ألمانيا ، لم يهاجمه اليهود في أى مكان .. بل إن جميع المنظمات اليهودية سكتت تماما : كيف ؟ .

وعندما أطلع والديه على هذا اللغز ، وعلى أنه سوف يبحث عن الحقيقة وراء ذلك ، هدده أبوه بالطرد من البيت ، وهددته أمه ، بأنها لن تراه ولن تعترف به مدى الحياة . فأبواه قد هربا من معسكرات الاعتقال في بولندا .. أبوه عندما اختفى في إحدى الغابات تعثرت قدمه في قدم أخرى تحت الجليد فكانت زوجته ، وعاش الزوجان سنتين تحت الأشجار . ولما خرجا من الغابات كانا يعتقدان أن اليهود قد قضى عليهم تماما .. وأنه لم يعد في الدنيا إلا هذان الاثنان .. وتساءلا إن كانت هناك فائدة .. من أن يظل أى إنسان يهوديا . وقررا أن يظلا كذلك وألا ينسيا ما أصابهما .

ولكن المؤلف بلاك اعتزم أن يمضى فى البحث خمس سنوات بين القارات الثلاث ، وأن يستعين بعشرات من المترجمين حتى كان هذا الكتاب الذى رفضته كثير من دور النشر خوفا من المنظمات اليهودية .

واليهود الألمان يعيشون فى ألمانيا من القرن الرابع الميلادى . وهم يلقون موجات من العذاب والهوان . ولولا أن هذه الكراهية لهم قد استقرت واستمرت ما كانت الفلسفات النازية المعادية لهم ، وما كانت معسكرات الاعتقال وأفران الغاز فى يوخنفالد وداخاو واوشفتس وتربلنكا . واليهود أكثر الناس حساسية للتحركات الاجتماعية حولهم . وأكثرهم تنبئوا بتقلبات السياسة . فلما ظهرت النازية كانوا أشد خوفا . ولما ارتفع هتلر إلى السلطة كانوا يتوقعون ذلك ، ويخافون أيضا . بعضهم فكر بسرعة فهرب من ألمانيا حافيا عاريا ، وبعضهم قرر أن يبقى فى ألمانيا لأنه عاجز عن ترك البلاد ، ولأن لديه أملا فى أن يسقط هتلر .

وجدث كل الذى توقعه اليهود فى أبريل ١٩٣٣ عندما أعلن هتلر عداءه الصريح لليهود الذين هم مصدر كل مصائب الدنيا فى ألمانيا وغيرها . وبدأ اضطهاد اليهود وطردهم وإحراق معابدهم وتحطيم نوافذ بيوتهم ووضع العلامات الصفراء على ملابسهم ، تمييزا لهم عن غيرهم ، واستعداء الناس عليهم .

وأعلنت المنظمات اليهودية فى العالم كله مقاطعة البضاعة الألمانية ، وسارت المظاهرات فى أمريكا وعلقت اللافتات فى كل العواصم الأمريكية والآسيوية تطالب بمقاطعة السلع الألمانية .

وبدأ الألمان يشعرون بأن هذه المظاهرات مدمرة . وبدأوا يكتبون على صناعتهم : إنها صنعت فى سويسرا أو فى النمسا أو فى بعض الولايات الألمانية ، ولم يعد أحد يقرأ عبارة صنعت فى ألمانيا .

وحاول ساحر الاقتصاد الألمانى شاخت أن يدعم الاقتصاد الألمانى بوسائل مالية وحيل اقتصادية . ولكن المقاطعة للسلع الألمانية كانت نتائجها خطيرة . ومن المعروف أن أحد أسباب قبول الشعب الألمانى للنازية أن هتلر وعدهم بحل مشكلة البطالة فهناك عشرة ملايين ألمانى بلا عمل .

وقد جرب اليهود فى العالم ألواناً وأشكالاً مختلفة من مقاطعة أعدائهم لهم فى روسيا وفى بولندا .. ثم فى الولايات المتحدة الأمريكية نفسها . ففى العشرينات اتخذ (هنرى فورد) موقفاً معاديا لليهود ، وأصدر مطبوعات تصف اليهود بأنهم عصابة عالمية للتآمر على خراب الدنيا ، وجعلهم وراء كل الكوارث التى أصابت الإنسانية فى كل العصور ، وإنهم هم الذين أسقطوا عددا من رؤساء أمريكا . وكان لدى الأمريكان استعداد لقبول هذه النظريات وخاصة أن اليهود قد أفلحوا فى الاستيلاء على مصادر هائلة للثروات والصناعات ووسائل الإعلام . وكان هتلر معجبا بهنرى فورد ، وأعلن أنه من هنرى فورد قد استلهم العداء لليهود . ووصفه هتلر بأنه رئيس الحزب النازى فى أمريكا . ثم أصدر هتلر قصة حياته فى كتاب بعنوان « كفاحى » سنة ١٩٢٤ متأثرا بما قاله هنرى فورد .. وبعد قيام النازية كانت مؤلفات فورد أكثر انتشارا من « كفاحى » .

ووقفت المنظمات اليهودية تقاطع السيارة « فورد » وتعلق اللافتات فى كل مكان وفى كل العواصم الأوروبية والآسيوية ضد فورد .. وقام اليهود بمظاهرة على شكل موكب من ٤٠٠ سيارة ليست من بينها واحدة فورد .. وعلقت اللافتات : فليشاركنا من كانت له سيارة أخرى ..

وبعد سنوات هبط إنتاج سيارات فورد ، فقد امتنع الكثيرون عن شرائها . وأقبلوا على شراء الشيفروليه وغيرها من السيارات . وامتنعت البنوك اليهودية عن إعطاء القروض والتسهيلات لكل من يتعامل مع شركة وعملاء فورد فى أى موقع .. ولم يجد هنرى فورد بدا من أن يشحن كتبه فى ثلاثة لوريات ويحرقها فى احتفال أقرب إلى الاعتذار للجالية اليهودية فى أمريكا !

وعندما كانت ألمانيا تحرق وتنهب وتحطم البيوت والمعابد اليهودية ، كان مندوبون من المنظمات اليهودية يتعاونون مع الحكومة النازية على ترحيل ستين ألف يهودى ألمانى إلى فلسطين . أما الثمن : فهو أن تكف المنظمات اليهودية عن الدعاية المضادة لهتلر وللسلع الألمانية .. بل أكثر من ذلك : استعداد هذه المنظمات لشراء كل ما تحتاج إليه ألمانيا من خضروات وفواكه الشرق الأوسط ، والمواد الخام من أفريقيا .. وكان يتولى كل هذه العمليات بنك زلخا فى بيروت .

أما المفاوضات مع الألمان فيقوم بها عدد قليل من أقطاب الصهيونية فى سرية تامة بعيدا عن يهود ألمانيا ويهود العالم ، وظل النازيون يحرقون ويقتلون اليهود ، بينما هؤلاء يفاوضونهم من برلين ومن القدس .

وفى أغسطس سنة ١٩٣٣ اكتمل الاتفاق على ترحيل عدد من اليهود الألمان إلى فلسطين ، ووافق اليهود على أن يخرج هؤلاء اليهود « مطرودين » من ألمانيا .. أى وافقوا على خروجهم سرا وعلنا ، ومحترمين ومحتقرين . المهم أن يخرجوا . وهؤلاء الألمان الذين ذهبوا إلى فلسطين هم الذين ساعدوا على قيام الدولة على أسس علمية فى السياسة والاقتصاد والزراعة والصناعة — إنهم هدية هتلر إلى إسرائيل ! .

وفى لقاء بين ممثلى المنظمات الصهيونية وبين يهود ألمانيا ، حضره أدولف إيخمان ، ممثلا للحكومة الألمانية — وهو الرجل الذى خطفوه من الأرجنتين وأعدموه فى إسرائيل بعد ذلك — اعترض الألمان اليهود على المقاطعة ، واعترضوا على موقف المنظمات الصهيونية من هتلر والنازية .. ومضى الخروج من ألمانيا إلى فلسطين ، فدخل فلسطين حوالى ٥٣ ألف يهودى أوروبى ، من بينهم تسعة آلاف من ألمانيا وحدها .

وفى ذلك الوقت كان العرب واليهود يتحدثون عن دولتين فى فلسطين .. ثم بدأ الحديث عن دولة يهودية .. ثم عن دولة يهودية مستقلة . واندهش هتلر لتطور الفكر العالمى لصالح اليهود !

وكان معروفا أن إيخمان كان ضد هجرة اليهود أو ترحيلهم إلى فلسطين ، فتكون لهم أغلبية أو تكون لهم دولة . ولم يخف على اليهود الألمان ، أنه هو وهتلر إنما يهدفان إلى بعثرة اليهود فى أمريكا اللاتينية .. ليتكاثر عليهم العالم ويقضى عليهم تماما . وهكذا تنحل المسألة اليهودية . ويكون هتلر هو صاحب الفضل فى التعجيل بها .

وما يقوله إيخمان قد كرره قبل ذلك الكاتب الصهيونى هرتسل : فهو يرى أن المسألة اليهودية إنما هى تولد حيث يوجد اليهود . فاليهود يخلقون العداء لهم والتعصب ضدهم ، فهتلر — على ذلك — لم يخلق العداء لليهود ، إنما

خلقه اليهود . ولذلك فلا حل للمسألة اليهودية إلا بأن يكونوا أغلبية فى أى مكان . فى إسرائيل أو فى نيويورك ، أو غيرهما ..

وفى ذلك الوقت أصرت بريطانيا على وقف الهجرة إلى فلسطين ..

وفى سنة ١٩٣٦ اجتاحت ألمانيا دولتى النمسا وتشيكوسلوفاكيا . ووقف العالم حائرا واليهود أيضا . ولم تجرؤ دولة واحدة على أن تتخذ موقفا عدائيا من هتلر . فالكل فى فزع ، بل إن دولا أوروبية كثيرة أيدت هتلر وعقدت معه معاهدات الصلح ومواثيق حسن الجوار والسلام ..

وعندما زحفت القوات الألمانية إلى بولندا ، كانت هذه هى بداية الحرب العالمية الثانية ..

ونقل هتلر ما لديه من اليهود إلى معسكرات الاعتقال .

فلم يدفع يهود العالم أموالا أكثر لينقلوا كل اليهود إلى أى مكان آخر ، فالمنظمات اليهودية قد اختلفت فيما بينها .

وعلى الرغم من أن اليهود لجأوا إلى وسائل وحيل فى غاية التعقيد لدفع ملايين الدولارات إلى هتلر ، فإن حاجته كانت أكثر ، وسرعة الأحداث كانت أسبق ، وقراره بالحرب العالمية الثانية قد غطى كل شىء . ولم يعد فى الإمكان الاتصال بهتلر .. إنما كانت مخابرات اليهود فى فلسطين على اتصال بالجستابو الألمانى ، وعن طريق عملاء اليهود فى الجستابو ، أمكن تهريب اليهود إلى تركيا ومنها إلى فلسطين برا وبحرا وسيرا على الأقدام ..

وقد حاولت المنظمات اليهودية أن تجرى حوارا مع العرب ، بعد أسبوع واحد من وصول هتلر إلى السلطة،فأرسلت عيونها وعقولها تتحسس الرأى العام العربى ، وأسفرت هذه الاستطلاعات عن غداء أقيم بفندق داود حضره عرب ويهود ، وقد أثارت هذه المأدبة الرأى العام العربى ، وهاجم العرب هؤلاء المعتدلين الذين ارتضوا الجلوس مع اليهود لتناول العيش والملح .

ولم يكن من السهل أن يجد اليهود رأياً عربياً عاماً معهم . بل كان الرأى العام العربى والمسيحى مع هتلر ضد اليهود وضد الإنجليز والفرنسيين أيضا .

ولم تتوقف عمليات التهريب والترحيل إلى فلسطين ..

وسارعت دول أوروبا الشرقية فى إحراق اليهود وطردهم ، حتى لا يؤدى السكوت عن ذلك إلى إغضاب هتلر وقواته الزاحفة،وهكذا تعاون العالم كله ضد اليهود كراهية لهم وخوفا من هتلر . وعندما ذهب وزير المالية شاخت إلى أمريكا ، اندهش لغضب الرئيس الأمريكى من موقف ألمانيا من اليهود ، وتضايق الرئيس الأمريكى لأن شاخت قد أصدر عملات ألمانية خاصة ليستدرج كل العملات الصعبة من خارج ألمانيا ، لكى يتحتم على الجميع شراء السلع الألمانية . فاعتذر شاخت بأنه لم يتصور هذه الآثار البعيدة لها . ولم يكن شاخت صادقا . وقد أدت المقاطعة العالمية للسلع الألمانية إلى مزيد من المشاكل الاقتصادية ، ولكن الحرب قد اخترعت حلا لثلاثة أرباع مشكلة البطالة الألمانية ، فتسعة ملايين من العشرة المتعطلين أصبحوا يحاربون فى كل الجبهات !

فهل أدت مقاطعة السلع الألمانية حقا إلى النتيجة التى أرادها اليهود ؟ من المؤكد أنها أصابت الاقتصاد الألمانى ، والفلسفة النازية فى مكان شديد الحساسية ، وأنها أدت إلى توقف بعض المصانع وتخوف الشعب الألمانى من نتائج ذلك .. ولم يؤد قتل الكثير من اليهود فى ألمانيا ، إلى إنقاذ الموقف .

وسلاح المقاطعة قد لجأت إليه أمريكا نفسها فهى منعت التعامل مع شيلى ، وهى منعت تصدير القمح إلى روسيا ، وقاطعت الدورة الأوليمبية وقاطعت البترول الليبى ، وجمدت الأرصدة الإيرانية .. ولكن المقاطعة اليهودية لم تحقق كل آمال اليهود من ذلك . فاليهود لم يتفقوا فيما بينهم . فبعضهم كان من رأيه أن سقوط هتلر قد يؤدى الى أن يعقبه من هو أكثر تشددا .. وقد يسقط هذا ، وتتعاقب الانقلابات فى ألمانيا .. وفى كل مرة يزداد العداء لليهود فى ألمانيا وفى العالم المسيحى .. وتصبح ألمانيا هى « فاتيكان العداء للسامية » ..

ولكن موقف اليهود يشابه موقف الألمان أيضا . فالشعوب الأوروبية تحقد على الشعب الألمانى ، وتغار من تفوقه ، ولذلك فهى حريصة على إذلاله . ولولا معاهدة فرساى المهينة بعد الحرب العالمية الأولى ، ما كانت النازية والحرب العالمية الثانية .. ولولا اغتيال الأمير النمساوى فى يوغوسلافيا ، ما كانت الحرب العالمية الأولى ..

ولما كانت الحروب مع ألمانيا من مئات السنين . واليهود كذلك ، فهناك الكراهية لهم .. وهذه الكراهية تشبه الغازات تحتبس فى صدر الأرض ثم تنفجر براكين نازية وفاشية وشيوعية ومسيحية وإسلامية .. ولذلك أصبح الشعور بالخوف وسوء الظن من أهم صفات الألمان واليهود . وربما كان ذلك سببا فى عطف الألمان اليهود على النازية التى هى الوطنية الألمانية ، كما أن الصهيونية هى الوطنية اليهودية !! .

ولذلك فعندما سافر المؤلف إلى إسرائيل ليقضى شهر العسل فى إحدى مستوطناتها لم يعد يندهش لحرص اليهود الألمان على أن يتكلموا الألمانية ويحيطوا أنفسهم بكل التقاليد الألمانية،وأن يركبوا السيارات المرسيدس ، ويستمعوا إلى موسيقى فاجنر المعادى لليهود ، وأن يشتروا الحديد من مصانع كروب التى كانت مصنع الحرب النازية ، وأن يحتفظوا فى بيوتهم بأجهزة تسجيل جروندنج وأن تكون تليفوناتهم من سيمنس .. أليس غريبا أن تكون أكبر أسرة يهودية مالية فى العالم هى روتشيلد التى نشأت فى مدينة فرانكفورت الألمانية .. وأن يكون الزعيم الصهيونى هرتسل ألمانيا وأن يكون العبقرى أينشتين أيضا .

ويتساءل المؤلف بعد كل ذلك إن كان من مصلحة إسرائيل التى أقامها العلماء والخبراء والعمال الألمان ، أن تقاطع كل ما هو ألمانى ؟ . وكان الجواب : بل من مصلحتها أن تكون على علاقة طيبة . فهذا يساعدها اقتصاديا وسياسيا .

وبعد الحرب ، لولا التعويضات الألمانية الهائلة التى دفعها المستشار أدناور لإسرائيل ، ما قامت على قدميها رغم كل العداء العربى الذى يحيط بها من كل الجهات .

الكتاب الذى صدر منذ أربعة أيام فى نيويورك اسمه « اتفاقية الترحيل – قصة تنشر لأول مرة الميثاق السرى بين الرايخ الثالث وفلسطين اليهودية » . موضوع الكتاب أنه مهما كانت العداوة بين شعبين ، فإنه يمكن أن يفكر أناس عقلاء بأعصاب باردة حديدية فى مخرج من هذا المأزق . هذا

المخرج من الممكن أن نسميه « الصهيونازية » أى الاتفاق السرى بين الصهيونية والنازية المعادية لها . ويكون أساس الاتفاق هو المصلحة .. السلع .. العمال .. المصانع .. الدولار .. المارك .. لا الرحمة ولا العطف . ولا المبادىء الإنسانية . فالمعدة لا أذن لها ولا لسان ولا دين . والشعوب كالأفاعى تزحف على معداتها .. ولا يوجد مذهب سياسى أو دينى ترفضه كله أو تقبله كله .. بل إن أكثر المذاهب عداء وتناقضا فى استطاعتنا أن نجد بينها نقطا للالتقاء .

والبراعة السياسية هى أن نعرف أين ومتى وكيف — لصالح الشعوب . وهذا الكتاب نموذج لذلك .



كاتب أمريكى يقول: يستحيل الآن تفادى حرب جديدة بين إسرائيل والعرب



أمريكا إذن هى المسئولة عن كل المصائب التى مسحت الأمة العربية بالأرض المقدسة ، لأنها أيدت إسرائيل تأييدا أعمى ، ولأنها شجعت على العنف والدم،فولدت هذه الحروب ، وحروبا قادمة فى هذه المنطقة ..

هذه هى خلاصة أحدث كتاب صدر هذا الأسبوع فى أمريكا للصحفى اللامع دونالدنف . الكتاب بعنوان « محاربون من أجل القدس - الأيام الستة التى غيرت الشرق الأوسط » .

والقصة قديمة ، ولكنه اعتمد على وثائق سرية أذيعت أخيرا ، وعلى عدد هائل من المقابلات وعلى أسلوبه الصحفى السهل المثير .

وعلى أحلامه من أجل السلام ، ودفاعه عن المصالح الأمريكية فى الشرق الأوسط وفزعه من أن تؤدى العلاقة الشاذة الاستفزازية بين أمريكا وإسرائيل إلى ضياع هيبة أمريكا ومصالحها فى الشرق الأوسط ، وبعد ذلك فى العالم كله ..

وإذا كان لابد من تركيز الاتهام على شخص واحد ، فإنه لا يتردد فى أن يضع الرئيس السابق جونسون فى قفص من حديد ويكتب عليه : المجرم الحقيقى . فقد كان جونسون مؤيدا لإسرائيل فى جميع المناسبات . فعندما كان زعيما للمعارضة فى مجلس الشيوخ ، وقف يتحدى أيزنهاور الذى طالب إسرائيل بأن تنسحب من سيناء بعد العدوان الثلاثى . وإذا كانت أمريكا قد

اكتسبت شعبية فى الشرق الأوسط بسبب موقف الرئيس أيزنهاور ، فقد استطاع جونسون أن يقضى على كل ذلك . ولم يحاول جونسون أن يخفى هذا العطف العميق على إسرائيل ظالمة أو مظلومة – وكان يراها مظلومة دائما ..

وكان الرئيس جمال عبد الناصر على حق فى اعتقاده أن الرئيس جونسون لا يحبه ، وقد حاول جونسون أن يؤكد له فى رسائل عديدة ، أن هذا الإحساس خاطىء . ولكن عبد الناصر لم يتزحزح عن هذا الاعتقاد – والحق معه .. ولكن عبد الناصر قد أخطأ عندما اعتقد أن جونسون شخصيا هو السبب . والحقيقة أن جونسون ومن ورائه وحوله وأمامه كل يهود أمريكا ..

وقبل جونسون كان الرئيس كنيدى ، فكنيدى قد اعترف لبن جوريون : « بأنه لولا اليهود ما نجحت فى انتخابات الرياسة ، ولذلك سوف أساعدهم امتنانا لهم » ..

ولم يمض وقت طويل حتى بعث الرئيس كنيدى إلى إسرائيل بأكبر كمية من وسائل الدفاع الجوى ، محطما بذلك كل حظر على الشرق الأوسط . أرسل إلى إسرائيل بصواريخ هوك المضادة للطائرات .. ولما اغتيل كنيدى أعلن جونسون للسفير الإسرائيلى : إذا كنتم قد فقدتم صديقا عظيما ، فأنا صديق أعظم ! ..

وعندما زار أشرف مروان وزوجته منى عبد الناصر واشنطون . استضافهما الرئيس جونسون وقال لابنة عبد الناصر : أنت عروس .. وابنتى عروس أيضا .. وأدعوك أنت وعريسك إلى البقاء فى مزرعتى .. وأطلب إليك أن تؤكدى لوالدك أننى صديق له ! ..

ولكن مثل هذه المداعبات ليست مما يعجب به عبد الناصر أو يصدقه ..

ومضى تصعيد الأزمة فى الشرق الأوسط ، تقدمت القوات المصرية إلى سيناء واستعدت القوات الإسرائيلية ، واهتز العالم العربى كله للخطب الملتهبة التى يلقيها عبد الناصر فى جميع المناسبات ، وكلها تدين الولايات المتحدة التى تساند إسرائيل إلى غير حد ..

وأثناء ذهاب عبد الناصر إلى بور سعيد أخبره على صبرى رئيس الوزراء أن السفير الأمريكى لا يستريح الى موقف عبد الناصر العدوانى من أمريكا ، وسوف يكون من الصعب على أمريكا أن تمده بالقمح .. وغضب عبد الناصر ، وفى مواجهة جماهير بور سعيد ترك خطابه المكتوب وقال : إذا كان الرئيس جونسون لا يعجبه أسلوبنا فأمامه البحر .. ماذا يفعل به ؟ ..

فقالت الجماهير : يشرب منه ! ..

ومضى عبد الناصر يقول : وإذا لم يشبعه البحر الأبيض ، فليشرب من البحر الأحمر والأسود أيضا ! ..

وفى ذلك الوقت حاولت إسرائيل أن تحصل على تأكيدات خاصة من أمريكا بمساندتها ضد مصر . وطلبت إليها أيضا أن تمدها بالأقنعه الواقية من الغازات السامة ، فقد استخدمت مصر الغازات السامة فى حربها ضد اليمن سنة ١٩٦٢ . ووعدتها أمريكا بذلك . وظل أبا إيبان وزير خارجية إسرائيل يلح على الرئيس الأمريكى جونسون وجميع المسئولين أن يعلنوا تأييدهم لإسرائيل . فكان له ما أراد ، وأعلن جونسون أنه ضد الذى يطلق النار أولا .. ثم أعلن أنه سوف يحمى أمن إسرائيل .

* * *

فى ذلك الوقت كانت أمريكا غارقة فى حرب فيتنام . ولم يتصور الشعب الأمريكى أن هذه الحرب سوف تطول . وأنها سوف تؤدى إلى هزيمة أمريكا لأول مرة فى التاريخ. وقد طغت حرب فيتنام على كل المشاكل العالمية .. وبلغت القوات الأمريكية فى فيتنام نصف مليون جندى . وكانت هناك مدمرات وغواصات وألوف الطائرات والمدافع والدبابات .. وفجأة طلب القائد الأمريكى مددا من ربع مليون جندى . فكانت صدمة للشعب الأمريكى الذى لم تكن لديه معلومات مؤكدة عن سير القتال . وتوالت أخبار الخسائر ، وأخبار الفظائع الأمريكية والتدمير ، وتخريب الأرض وتعذيب الأسرى ..

واستطاع القس مارتن لوثر كنج أن يقود المظاهرات ضد الحكومة وألف جماعة اسمها « التفاوض الآن » يطالب بالجلوس مع الشعب الفيتنامى لإنهاء الحرب .. وسارت المظاهرات مئات الألوف تهتف بسقوط الحكومة ومحاكمة مجرم الحرب جونسون .. وهرب الجنود الأمريكان من الجيش .. وهرب الشبان من أمريكا وذلك بالسفر إلى الخارج ، أو بالانزواء وتعاطى المخدرات . واتخذ الاحتجاج على السلطة غضبا وسخطا على كل سلطة أخرى : الأبوين والمدرسة والكنيسة والمجتمع .. إذن فلقد تمزق المجتمع الأمريكى وعرف الشبان الأمريكان « تكفير » المجتمع الأمريكى الذى يتباهى دائما بالدعوة إلى السلام وإلى حماية حقوق الإنسان ، و « الهجرة » منه إلى الغابات وإلى دول أمريكا الوسطى .. والهجرة من المسيحية إلى الديانات البوذية والوثنية ..

إذن فلقد حقق الرئيس الأمريكى جونسون أكبر كارثة أصابت أمريكا فى العصر الحديث !

فلم يكن – إذن – فى حاجة إلى كارثة أخرى فى الشرق الأوسط . ولكنه لم يستطع فقد تصاعدت الأزمة . ووقعت حرب سنة ١٩٦٧ وانتصرت إسرائيل على مصر وسوريا والأردن انتصارا مروعاً . وبدأت هذا النصر بهزيمة الطيران المصرى على أرضه ، وعلى الرغم من أن جميع أجهزة الرادار فى المنطقة قد سجلت الهجوم الجوى الإسرائيلى ، فإن أحدا لم يكن يتوقع أن تكون الهزيمة هكذا ساحقة وخاطفة ..

ولكن هزيمة سنة ١٩٦٧ قد أدت إلى شعبية إسرائيل فى أمريكا . فقد انبهر الأمريكان بهذه الدولة الصغيرة التى هزمت كل الدول العربية مستخدمة الأسلحة الأمريكية . وكان الأمريكان يشيرون إلى إسرائيل على أنها الولاية الواحدة والخمسون ..

ولكن هذا النصر الساحق قد فضح أمريكا تماما . فهى قد أيدت إسرائيل تماماً ، واتخذت بذلك موقفا عدائيا من كل العرب ..

وكشفت أيضاً عن اعتماد إسرائيل الكامل على أمريكا ، ماديا وعسكريا ومعنويا أيضا . وعلى ذلك فإسرائيل هى أمريكا وأمريكا هى إسرائيل . والعداء لأمريكا هو عداء أيضا لإسرائيل ..

وفى أثناء الحرب هاجمت الزوارق الإسرائيلية سفينة التجسس الأمريكية « ليبرتى » وأصيب كثير من الجنود والضباط فى هذه العملية ، ولكن الرئيس جونسون تستر على هذا الحادث .. ثم أصدر أوامره بنقل طاقم السفينة الأمريكية إلى عشرات من قطع الأسطول الأمريكى وصدرت إليهم الأوامر بألا يفتح أحد فمه . وتكلف إصلاح هذه السفينة ثلاثين مليون دولار ، ثم بيعت خردة بعد ذلك بمائة ألف . وطالبت أمريكا بأن تدفع إسرائيل سبعة ملايين دولار ولم تدفعها ..

أما قبور شهداء السفينة « ليبرتى » فقد وضعت عليها هذه العبارة : توفى فى شرق البحر الأبيض المتوسط ..

واحتج الضباط الأحياء على هذه العبارة المهينة . وقالوا : كأنما ماتوا فى أحد كباريهات بيروت ! ..

فقط فى سنة ١٩٨٢ وضعت عبارة أخرى تقول : قتلوا على ظهر الباخرة ليبرتى ! ..

وهى عبارة لا تشرف أحدا ولكنها أقل إهانة من العبارة الأولى ! ..

* * *

والذى ينظر إلى الحروب بين العرب وإسرائيل يجد أنها تزداد قسوة وعنفا ووحشية . ففى العدوان الثلاثى – من بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على مصر – كان عدد القتلى فى إسرائيل ١٩٨ وعدد الجرحى ٨٩٩ ، بينما عدد القتلى المصريين ألف ، وعدد الجرحى أربعة آلاف .. وبعدها بأحد عشر عاما فقدت إسرائيل ٩٨٣ قتيلا و ٤٥١٣ جريحا ، وفقدت القوات العربية ٤٢٩٦ قتيلا و ٦٥٤١ جريحا ..

أما حرب سنة ١٩٧٣ وهى التى استخدمت فيها أحدث الأسلحة وأكثرها تطورا وقدرة على التدمير فقد بلغ قتلى إسرائيل ٢٨٣٨ وجرحاها ٨٥٢٨ وأسراها ٥٠٨ ..

أما قتلى العرب فهم ٨٥٢٨ وجرحاهم ١٩٥٤٨ والأسرى ٨٥٥١ . وفقدت الجيوش المتحاربة كلها ٤٩٥ طائرة و ٦١ هليوكو بتر و ٣٣٩٤ دبابة ..

وسوف تكون الحرب القادمة أكثر قسوة وفداحة ..

وفى سنة ١٩٥٦ صوبت روسيا صواريخها إلى لندن وباريس وتل أبيب احتجاجا على العدوان الثلاثى ..

أما أمريكا فقد نقلت الأسطول السادس إلى البحر الأبيض ..

وفى سنة ١٩٦٧ كانت المواجهة بين روسيا وأمريكا أخطر . فقد حذر كوسيجين رئيس وزراء روسيا ألا تذهب أمريكا إلى أبعد من ذلك فى مساندتها لإسرائيل ، وكان رد الفعل الأمريكى هو استعداد أسطولها السادس مرة أخرى لكل الاحتمالات ..

وفى سنة ١٩٧٣ استعدت كل القوات الأمريكية فى العالم لمواجهة أى تدخل سوفيتى فى سير القتال . يقول المؤلف : إن حرب سنة ١٩٦٧ هى أعظم مأساة عسكرية أصابت الشرق الأوسط . ففى السبعة عشر عاما الماضية تمزق الشرق الأوسط بالكراهية والأحقاد والمرارة والعنف والدم . وَطَبَعِىّ أن يقوم الفلسطينيون بكل أنواع الانتقام،فقد قتلوا الفريق الإسرائيلى فى الدورة الأوليمبية بميونخ ، ثم كانت حرب سنة ١٩٧٣،ثم كان الهجوم الوحشى الإسرائيلى على لبنان ، وكان الحصار اللا إنسانى لبيروت ..

أما الشيء الوحيد الذى تحقق فيما بعد كارثة سنة ١٩٦٧ فهو عقد اتفاقية كامب دافيد سنة ١٩٧٩ ، فهذه الاتفاقية فى تحليلها النهائى لم تؤد إلى سلام دائم بين مصر وإسرائيل ، إنما هى ضاعفت سوء الظن والمرارة بين الجميع . وهى لا شك قد أدت إلى اغتيال الرئيس السادات . وكل شيء يدل الآن على أن المستقبل يدخر للمنطقة ما هو شبيه بذلك أو أسوأ . والشرق الأوسط محكوم عليه أن يعيش فترة أخرى من العذاب والإرهاب وربما تجدد القتال ..

والأمريكان الذين بهرهم الانتصار الإسرائيلى فى حرب ١٩٦٧ قد نسوا تماما كم كلفهم ذلك من خسائر فى المنطقة . كما أن علاقة أمريكا مع روسيا قد ساءت تماما ..

وازدادت أمريكا تورطا فى المنطقة ، حتى ذهبت إلى سيناء تدافع عن السلام بين مصر وإسرائيل وإلى لبنان تدافع عن إسرائيل ضد الشعب اللبنانى والسورى والفلسطينى ..

ويقول المؤلف أيضا : ومن سخريات القدر أن اليهود الذين تعذبوا فى كل الدنيا وضاعوا وتآمروا وتشتتوا ، قد فرضوا كل ذلك على الشعب الفلسطينى ، دون رحمة ..

وأمريكا قد ساعدتهم على كل ذلك .. ثم إن أمريكا تتحدث سرا بلهجة مع الملك حسين ، وتجاهر بلهجة أخرى .. فلماذا لا تنفذ أمريكا ما تقوله فى السر ؟ ..

* * *

ومن المؤكد أن تشجيع أمريكا للتشدد والعنف الإسرائيلى هو الذى أتى إلى الحكم برجل إرهابى مثل بيجين فى ١٩٧٧ ..

والموقف الآن فى الشرق الأوسط : هو الدماء تجرى والأسلحة تدوى ، ومبادرة ريجان يرفضها اليهود والفلسطينيون وكثير من العرب .. والروس قد بعثوا بأسلحة متطورة إلى سوريا ومعها ألوف الخبراء ..

يقول المؤلف : إن الوقت قد فات لتفادى حرب جديدة !

وهذا الموقف الأمريكى أو العجز الأمريكى عن اتخاذ موقف متوازن أو عادل بين العرب وإسرائيل هو الذى عمق لدى الشعوب العربية إحساسها بالكراهية والمرارة والشك فى أمريكا وإسرائيل .. ويقول : إن أمريكا يجب أن تعرف ، وكذلك إسرائيل ، أنه لا يمكن التعايش مع العرب ، بإهانة العرب وإذلالهم . لا يمكن أن يتحقق السلام بالحرب والعدوان المستمر ، إن مثل هذا الموقف العدوانى سوف يجعل العرب على استعداد دائم للحرب والانتقام لكرامتهم ، مهما كلفهم ذلك .. ولقد كان الرئيس الأمريكى أيزنهاور أول من نبه الشعب الأمريكى والزعماء الإسرائيليين إلى ذلك . ولكن أحدا لم يأخذ بوجهة نظره . ورأوا فى دعوته إلى التفاهم والمودة ، أحد أمراض الشيخوخة .

وفى آخر الكتاب يوجه المؤلف تحذيره لأمريكا ونصيحته المخلصة للشعب الأمريكى الذى تأثر كثيرا بفيلم « الخروج » الذى ألفه يهودى أمريكى اسمه يوريس .. فتوهم الأمريكان أن بطل الفيلم هو صورة صادقة لإحساس المواطن الأمريكى نحو إسرائيل . ونسى الشعب الأمريكى الطيب أن هذه الصورة قد رسمها أديب يهودى شديد التعصب لإسرائيل .

يقول دونالدنف الذى ألف قبل ذلك كتابا رائعا عن « محاربون فى السويس » : شىء واحد هام يجب أن أؤكده وهو : أنه عن طريق الحياة كأصدقاء ، فى وسع إسرائيل أن تعيش فى سلام . فليس فى استطاعتها أن تظل إلى الأبد تلوم العرب وحدهم على هذه الحروب .. فنحن لكى نحارب لا بد من اثنين . وقد فعل الطرفان أقسى وأقصى مافى استطاعتهم فى خمسة وثلاثين عاما. فإذا لم يحاولوا أن يكونوا أصدقاء وأن يتسامحوا كما تدعو إلى ذلك اليهودية والمسيحية والإسلام ، فسوف تكون حرب أعنف وأبشع من كل الحروب التى عرفها الشرق الأوسط .. وعلى العرب وإسرائيل أن يعيدوا النظر فى مواقفهم .. وعلى أمريكا وإسرائيل أيضا ..

وإلا فكل الشعوب فى المنطقة جاهزة نفسياً للقتال . وإذا كانت أمريكا تؤيد إسرائيل تأييدا مطلقاً ، فإنها فى نفس الوقت تساعد على الحرب التى تصيب فى الدرجة الأولى مصالح أمريكا ، وتمهد الطريق لروسيا فى المنطقة ، وعلى الشعب الأمريكى أن يجيب عن هذا السؤال بوضوح : هل إسرائيل تساوى كل هذه الخسائر الأمريكية المتوالية والمصائب المتراكمة فى المنطقة وفى العالم كله ؟ ! ..

الجواب : من المؤكد أنها لا تساوى ..



الفهرس

الموضوع | الصفحة

الصهيونية عنصرية .. أو لعبة السهام المرتدة
إلى الهيئات اليهودية فى العالم ! ٧
الشعب المختار فى زجاجة نبيذ فارغة ٢٣
غرف الطعام هى المثل الأعلى ٣١
فعلا أغرب شعب فى العالم ٣٧
حتى لاينسى اليهود ماحدث قبل هذا ٤٥
تغيير النظرة لاتغيير العين نعم ٥٣
وقفة موضوعية مع العدو ٦١
خطوط فى طريق طويل مرير ٦٩
لمن يذبحون الخنازير فى دولة التوراة ٧٧
إما التوراة أو لادستور ٨٥
هؤلاء الأطفال من الذى يعلمهم الكراهية ؟ ٩٣
دماء على الباخرة شالوم ١٠١
طائرة تقودها سيدة حامل أكذوبة ؟ ١٠٩
لم يتفقوا على من هو اليهودى ١١٧
كيف تطهر يهوديا على نار هادئة ؟ ١٢٥
جنة « يوم السبت وجهنم » بقية الأسبوع ١٣٣
قل لى إيها الشاب كيف تعيش ؟ ١٣٩
وجع فى قلب إسرائيل
ولم نضع حرف الياء على صدورهم ١٤٧
زوروا إسرائيل لتشاهدوا الأهرام وكتب الموتى ١٥٣
الحروب مستمرة والصمت أيضا ١٦٥
كاتب إسرائيلى يقول نهاية إسرائيل سنة ١٩٨٥ فوداعا
لشعب لايحبه أحد ١٧٣
أحدث كتاب عن العلاقة الغريبة بين هتلر
وقيام دولة إسرائيل الصهيونازية ١٨٣
كاتب أمريكى يقول : يستحيل الآن تفادى حرب جديدة
بين إسرائيل والعرب ١٩١

رقم الإيداع ٨٦/٤٧٤٢
الترقيم الدولى ٦ - ٢٥ - ١٤٧٠ - ٩٧٧

الزهراء للإعلام العربى